

أحلام لشهاوي



الدار المصرية اللبنانية

في مَاهِيَّةِ الْحُبِّ وَالْعِشْقِ وَالْوَصْلِ

كن عاشقا / أحمد الشهاوي .- ط1.- القاهرة:

الدار المصرية العربية، 2019.

تدمك: 9789777952125

1- الحب - فلسفة.

أ- العنوان. 128.4

رقم الإيداع: 26914 /2018

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: + 202 23910250

فاكس: + 202 23909618 - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2019م

## الدار المصرية اللبنانية

جميع الحقوق محفوظة الدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويله أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحتها عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

أَحْمَدُ لِشَهَادَتِي

كُنْ  
عَاشِقًا

الدار المصرية اللبنانية

أَحْمَدُ الشَّهَاوِي

كُنْ عَاشِقًا

فِي مَاهِيَةِ الْحُبِّ وَالْعِشْقِ وَالْوَصْلِ

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى نوال عيسى..

كِتَابُ الْعِشْقِ، وَمَصْدَرُهُ،

وَمُسْنَدُهُ. الَّتِي إِنْ لَمْ يَكُنْ

الْعِشْقُ مَوْجُودًا لَخَلَقَتْهُ

أَحْمَدُ الشَّهَاوِي

ديسمبر 2018 ميلادية

# سَأَلْتَنِي: مَا الْحُبُّ؟

: لماذا تُحِبُّنِي؟

فَأَجَابَتْهَا نَفْسِي بِهَذَا الْكِتَابِ..

الذِي مَنَحْتُهُ اسْمَ: "كُنْ عَاشِقًا"،

وَلَيْتَهَا تَعْتَبِرُ الْكِتَابَ أَنْزَلَ عَلَيَّ رُوحَهَا فَتَأْخُذُ بِمَا جَاءَ فِيهِ.

## بَابُ الْكِتَابِ

### إِذَا أَحْبَبُوا مَا تُؤَا

رَأَيْتُ "العشوق فضيلة نفسانية"، والحُبَّ مختفياً محزوقاً لا رماداً له، هارباً ضائعاً غريباً بين الناس كتابةً وممارسةً وسلوكاً، ونحن - في الأصل - أُمَّةٌ عشقٌ.

لم ألتزم في حياتي بالكتابة في ما أسميته أدب العشوق، بل تنوّعت كتابتي بين الشّعر؛ وهو الأساس عندي، وفلسفة الدين، بعدما رأيتُ تعنّت وتزمت وجهل بعض الذين يشتغلون بالدين، ويشغلون مراكز ومناصب وظيفية رسمية (الأزهر .. الجامع والجامعة) أو أيديولوجية (خُصُوصاً بين جماعة الإخوان، والسلفيين).

وتأتي الصحافة التي درستُها في الجامعة، واشتغلتُ بها طوال عمري في جريدة الأهرام (تحديداً منذ الأول من يناير 1985 ميلادية). وحملت دعوة الحُب منذ بدء كتابتي، وخصّصتُ كتباً نثريةً منها: (كتاب العشوق، أحوال العاشق، الوصايا في عشق النساء: الكتاب الأول، الوصايا في عشق النساء - الكتاب الثاني، أنا من أهوى 600 طريق إلى العشوق، كُن عاشقاً، ... )، إضافةً إلى كُتبي الشعرية، حيث رأيتُ "العشوق فضيلة نفسانية"، والحُبَّ مختفياً محزوقاً لا رماداً له، هارباً ضائعاً غريباً بين الناس كتابةً وممارسةً وسلوكاً، ونحن - في الأصل - أُمَّةٌ عشقٌ أو حُبٌّ.. اخترتُ الكلمة التي تناسبك، وإن كُنْتُ أَفْضَلُ مُفْرَدَةَ العَشْقِ عَلَى مَا سِوَاهَا؛ لِأَنَّ فِيهِ إِفْرَاطًا وَإِسْرَافًا، و"العشوق هو لزوم الشيء من دون مفارقة" كما جاء في لسان العرب لابن منظور (630) - 711 هجرية / 1232 - 1311 ميلادية).

"كأنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ يَمْتَزِجَانِ".

"ولو لم يكن العشوق موجوداً في الخليقة - كما يذكرُ الرَّومِي - لخفيت .. الفضائل كلها"، كما جاء في رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء).

فقد ترك العرب القدامى تراثاً عشقياً وغلزلياً لا نظير له بين الأمم، ورأينا شعراء قد التزموا شعرَ الغزل فقط طوال حياتهم القصيرة، أو الطويلة، ورأينا أن كُتِبَ العَشْقُ يَكْتُبُهَا فُقَهَاءٌ، وَأُمَّةٌ، وَقُضَاءٌ شَرْعِيٌّ، وَعُلَمَاءٌ، وَأَصْحَابُ مَذَاهِبٍ مِنْ دُونِ أَنْ يَسْبَهُمُ أَحَدٌ، أَوْ يَحْقِدَ عَلَيْهِمْ حَاقِدٌ، أَوْ يَشْتَمَهُمْ شَاتِمٌ، وَهُمْ بِمَا كَتَبُوا كَانُوا أَكْثَرَ عُلَمَاءَ وَفَهَمًا وَوَعْيًا وَثِقَافَةً وَسِمَاحَةً وَنُورًا مَمَّنْ يَشْتَغِلُونَ بِالدِّينِ فِي زَمَانِنَا،

وليس لهم نتاج فكري أو فلسفي أو فقهي أو عشقي (لهم في نتاج القَدْح والذم والسب والشتم الكثير الذي لا يُنسى)؛ لأن النفس البشرية إن لم تكن مُهيأةً للْحُب، فلن تستطيع أن تكون طبيعية في محبَّتها لخالقها.

ومن المدهش أن المحبَّة بين رجلٍ وامرأة لا تحتاج إلى واسطة، حيث القلبان هما اللذان يأتلفان ويتحدان، وأيضًا في الحُب الإلهي لا يحتاج العبد واسطةً مع رب السموات والأرض.

ويبدو ليَّ أنَّ بعض الشيوخ الذي اعتادوا تكفير مُخالفهم، يرون أنَّ العشق هو من "فعل البطالين فارغي الهمم الذين لا شغل لهم"، كما أنَّهم لم يصادفوا الرسالة السابعة والثلاثين لـ "إخوان الصفاء"، وهي رسالة "في ماهية العشق"، وقد جاء فيها أنَّ العشق قد كان "أمرًا موجودًا في العالم، مرکوزًا في طباع النفوس دائمًا، لا يعدمه البتة ما دامت الخليقة موجودة". "وإن يكن المستولي عليه في أصل مولده المريخ والزهرة أو القمر فإن الغالب إلى طبيعته شهوة الجماع والمناكح".

وعند إخوان الصفاء: "أنَّ مبدأ العشق أوله نظرةٌ أو التفاتٌ نحو شخصٍ من الأشخاص، فيكون مثلها كمثل حبةٍ زُرعت، أو غُصن غُرس، أو نطفة سقطت في رحم بشرٍ . وتكون باقي النظرات واللحظات بمنزلة مادةٍ تنصبُّ إلى هناك، وتنشأ وتنمو على مرَّ الأيام إلى أن تصيرَ شجرةً أوجنبًا؛ وذلك أن همةَ العاشق ومُناه، هو الذنو والقُرب من ذلك الشخص. فإذا اتفق له ذلك وسهل تمَنَّى الخلوة والمجاورة . فإذا سهل ذلك تمَنَّى المُعانقة والقُبلة. فإذا سهل تمَنَّى الدخول في ثوبٍ واحدٍ، والالتزام بجميع الجوارح أكثر ما يُمكن. ومع هذه كُلها الشوق بحاله لا ينقصُ شيئًا بل يزداد وينمو".

أردتُ أن تتعلَّق الأرواح ببعضها وتألف؛ كي يتأسَّس مجتمعٌ قائمٌ على الحُب والانتلاف لا الخلاف، على العشق - وهو عندي عشقٌ رُوحِي وإلهيٌّ مقدَّسٌ، لا تغيب فيه فيوض الجسد ومعارجه - لا على الشيقاق والحقْد والحسد، بحيث يصير المُحبُّ في هواه ما عاش، وحتى إن مات " يتبع صدائِي صدائِك بين الأقبير"، عشق يتجنَّب الخيانة والغدر والفراق، ومثلبة التعدُّد، والملل والتغيُّر قائم على الوفاء والإخلاص، وهو هنا عشقٌ يعتمد أساسًا على جوهر النفس، لا على "زينة الأجسام ومحاسنها"، بينما الأجسام تتبدَّل وتتغيَّر، والجوهر كما نعرف أزلِّي ولا يتغيَّر، مُسترشدًا بما قاله أحد أسلافي:

تَعَلَّقَ رُوحِي رُوحَهَا قَبْلَ خَلْقِنَا

وَمِنْ بَعْدِ أَنْ كُنَّا نِطَاقًا وَفِي المَهْدِ

فَعَاشَ كَمَا عَشْنَا فَأَصْبَحَ نَامِيًا

وَأَلَيْسَ وَإِنْ مِتْنَا بِمُنْقَصِ العَهْدِ

وَلَكِنَّهُ بَاقٍ عَلَيَّ كُلِّ حَالَةٍ

## وَسَائِرُنَا فِي ظِلْمَةِ الْقَبْرِ وَاللَّحْدِ

وأطلبُ عشقًا بين المُحِبِّين، سمتهُ التَّوَحُّدُ والامتزاج والخلولُ الرُّوحي والاتحاد الجسدي، والوصل غير المنقطع والديمومة، بحيث نصيرُ قومًا يكثرُ فيهم العاشقون لا الحاقدون الكارهون الحاسدون المُبغضون الأشرار، وأحب عندما يسألني أحدٌ، وأنا على سفرٍ، من أين أنت؟ فأجيبه: "أنا من مصر العربية، أنا من قومٍ إذا أحبُّوا ماتوا؛ لأنَّ فينا جمالًا ورقَّةً"، مرِدِّدًا قول الأعرابي الذي كان من بني عُذرة (وهي قبيلةٌ حُميريةٌ كانت تقطن وادي القرى). قوم يقتلهم الهوى، ويتخذون العشق مذهبًا، ولا يفري الحقد أكبادهم، ولا يمكن لأقوامٍ أن تحبَّ إلا إذا كانت عاطفتها الدينية شديدةً وسليمةً، ولديها نقاءٌ إيمانٍ، وصفاءٌ سريرةٍ. ومن صفات المُحب أنه يعيش بلا تعصُّبٍ و لا عُنصريةٍ؛ لأنه يحيا على الرحمة والعطف والمحبة والتوافق والوداد والميل والمُساكلة والمُوانسة والشَّغف والتنثيم والولهُ والهيام، حيث لا توجد حربٌ يسعى إليها ضد آخر.

والعاشق عندي في هذا الزمان الذي يذمُّ الهوى على طريقة ابن الجوزي ( 510 هجرية - 1116 ميلادية / 597 هجرية - 1201 ميلادية) في كتابه "ذم الهوى" هو نسيحٌ وحده، لئلا يذمَّ العشق بين الناس، فهو "وحيد زمانه، ورئيس أقرانه، وواحد عصره، ونادرة دهره".

وياليت القانون الذي يسري بيننا ويُسيِّرنا يكون من القرآن: ﴿ذُذْفَ﴾ [سورة طه: آية 39]، لأنَّ العشق ما هو إلا شوقٌ نحو العودة إلى أصل المخلوق الأول، حيث كان المُحبُّ والمُحِبُّ شخصًا واحدًا انشطر اثنين، وبالعشق يعودان كما كانا وحدةً كاملةً، يعودان إلى حياتهما الأولى، حيث نهر كوثر المُحِبُّ الذي "حافته من ذهبٍ، وقبايه اللؤلؤ المجوف، ومجراه على الدر والياقوت، أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الخيل، تُرى فيه أباريقُ الذهبِ وَالْفِضَّةِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ".

يقول ابن الساعاتي (553 - 640 هجرية) شعراً:

قَبَلَتْهَا وَرَشَفَتْ خَمْرَةَ رَيْقِهَا

فوجدتُ نارَ صبابَةٍ في كوثر

ودخلتُ جَنَّةَ وَجْهها فأباحني

رضوانها المرجوُّ شُرْبِ المُسْكِرِ

والتقبيل يرتبط بالحب، وقد ظهر منذ بدء الخليقة، حيث تركت حواء تحت شجرتها شفتيها للنحلة؛ لكي تمتصَّ رضابها (ريقتها)، وقد انتشت، وسعدت بامتصاص رحيق شفتيها ولسانها، كما تقول الأسطورة؛ لأن البؤس كما نعرف، هو الباب، القبلة لقلب المرأة، ومن بعد ذلك جسدها، وهي القبلة التي يمكن أن نسميها قبلة الروح بين العاشق والمعشوق، حيث يمنح كلُّ منهما روحه للآخر غير

منقوصة، في عملية وصلٍ وامتزاجٍ واتحادٍ واتصالٍ لا نهائيٍّ، وهي القُبلة التي تُعرف في زماننا بـ "القُبلة الفرنسية French Kiss"، وإن كانت موجودةً قبل أن يعرفها الفرنسيون، فهناك أدلة قديمة تؤكد وجود البُوس كسلوكٍ إنسانيٍّ عاطفيٍّ عند الإنسان مذكورة في ألفيدا الهندوسي منذ حوالي 3500 عام، ومن قبل الهندوس ترك لنا المصريون القدماء رسوماً جدارية على معابدهم تثبت وجود القُبلات، ويذكر التاريخ أن الملكة كليوباترا كانت تكافئ جنودها ببوسهم.

وأنا هنا أستعمل مفردة البُوس، في الوقت الذي أستعمل فيه مفردة التقبيل؛ لأن البُوس – وهي مفردة ليست عربية – شاعت على ألسنة العربي، بعدما انتقلت إليه من بلاد فارس، مثل كلمات كثيرة فارسية مُعرَّبة نستعملها في حياتنا، وقد دخلت هذه المفردة المعجم العربي من فرط شيوعها وتداولها، وقد احتوى القرآن على مفردات من لغة أهل فارس كالاستبرق، الزبرجد، أباريق، أرائك، أساور، جُناح، زمهرير، سَجِيل، سُندس، سُرادق، سَرَاب،... وغيرها من المفردات.

وجاء الإسلام ليؤكد أهمية المُداعبة والمُلاعبة وفي مقدمتها البُوس، خصوصاً القُبلة الفرنسية، التي تقدّم وتُهمَّد، بل اعتبرها نبيُّ الله محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً بين الرجل والمرأة، وقد روى البخاري في صحيحه عن جابر رضي الله عنه أنه قال: تزوجتُ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تزوجت؟ فقلت: تزوجت ثيبًا، فقال: مالك وللعداري ولعابها.

فعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة، وليكن بينهما رسول، قيل: ما الرسول يا رسول الله؟ قال: القُبلة والكلام".

وهنا عليٌّ أن أذهبَ إلى رسالة إخوان الصفاء "في ماهية العشق"؛ لأقف على رؤيتهم في البُوس بين العاشق والمعشوق: "إذا تعانق العاشق والمعشوق جميعًا وتباوسا، وامتصَّ كل واحدٍ منهما ريق صاحبه وبلعه، وصلت تلك الرطوبة إلى معدة كل واحدٍ منهما، وامتزجت هناك مع الرطوبات التي في المعدة، ووصلت إلى جرم الكبد، واختلطت بجميع أجزاء الدم هناك، وانتشرت في العروق الواردة إلى سائر أطراف الجسد، واختلطت بجميع أجزاء البدن، وصارت لحمًا ودمًا وشحمًا وعروقًا وعصبًا (وما شاكل ذلك)..

وهكذا أيضًا إذا تنفَّس كل واحدٍ منهما في وجه صاحبه، خرج من تلك الأنفاس شيء من نسيم روح كل واحدٍ منهما، واختلط بأجزاء الهواء. فإذا استنشقا من ذلك الهواء، دخلت إلى خياشيمهما أجزاء ذلك النسيم من الهواء المُستنشق، ووصل بعضه إلى مُقدِّم الدماغ، وسرى فيه كسريان النور في جرم البلور واستلذَّ كل واحدٍ منهما ذلك التَّنَسُّم. ووصل أيضًا من أجزاء ذلك الهواء المُستنشق بعضٌ إلى جرم الرئة في الحلقوم، ومن الرئة إلى جرم القلب من النبض في العروق الضوَّارِب إلى جميع أجزاء الجسد، واختلط هناك بالدم واللحم وما شاكل ذلك من أجزاء الجسد، وانعقد في بدن هذا ما تحلَّل من جسد هذا، وفي بدن هذا ما تحلَّل

من جسد ذاك؛ فيكون من ذلك ضروبٌ ومن المزاجات من تلك الأمزجة ضروب الأخلاط، ومن تلك الأخلاط ضروب الأخلاق. كل ذلك بحسب أمزجة أبدانها".

أحمد الشهاوي

سبتمبر 2018 ميلادية – المعادي - القاهرة

# المُصادفة صاحبةُ الجلالة في الحُبِّ

المُصادفة هديةٌ لـ "الحُبِّ الحقيقي" المملوء صفاءً وهناءً وحياءً وأملًا، ثم تتبع هذه الحال الحاصلة مشاهدات ومُكاشفات هي غاية مطالب المُحب ونهاية ثمرة القُرب والعشق . والمُصادفة تاجٌ لروحين انتظرا طويلا، وهي نهاية الرحلة، وخاتمة المطاف الحياتي لاثنتين حلاً في جسدٍ واحدٍ من فرط ما بينهما من عشقٍ؛ لأن الشمس تكسفُ حُزناً على فراقٍ أو كذبٍ في العشق، وكذا يخسف القمر المأ لقلبٍ مهجورٍ أو مكسورٍ يحتاج وصلَ وجبرَ من عشقهُ.

المُصادفة التي هي الاسم الآخر أو المُستعار للعناية الإلهية، هي لقاءٌ رُوحِيٌّ محمولٌ على التلذُّذ والذوق من غيرِ مؤعِدٍ ولا قَصْدٍ، ولا سببٍ مُحدَّدٍ، رَبَّيْتَهُ السَّمَاءَ، ودَبَّرَهُ القَدَرَ، ورعته المشيئة، وسقته النفس النقية العالية التائقة إلى الحُبِّ.

المُصادفة في الحُبِّ، هي الآن والآتي في عليائه، وهي مطر السماء الذي تنتظره أو لا تنتظره، هو الذي يسقي أرضك العطشى، الباحثة عن طوق نجاةٍ؛ كي لا تتيبسَ وتجفَّ عظامها وتهرم على عُودها، وتموت كأية شجرةٍ وحيدةٍ.

لكنَّ المُصادفة - وهي ليست عمياء بالمناسبة بل حادَّة البصر والبصيرة - لا تأتي إلى غيبي، فهي تحتاج إلى من كان صاحبَ قلبٍ جامعٍ صافٍ، وذهنٍ مُتقدٍ، ونفسٍ عارفةٍ، تقبل الهدية الإلهية ولا ترفضها بقدميها في نوبةٍ من نوبات العته والاستغناء الذي لا طائل من ورائه ولا جدوى.

والمُصادفة - عندي - هي حُلمٌ مُتكرَّرٌ وتنبؤٌ يصدق، وهي نوعٌ من الكرامات والخوارق التي لا تتكرَّرُ، ولا تأتي اعتباطاً؛ لأن الحواس لا تدعُ، ولا تعرف الكذب:

ألا ربما أعطتك صادقةً المني

مصادفةُ الأحلام من حيثُ تكذبُ

مهيار الديلمي، (توفي 428 هجرية / 1037 ميلادية).

لذا هي تُفرِّق بين المُصادفة والمُحاولة الكدُوب للتقرب والرغبة العارضة الطارئة، التي لا عشق فيها، فالمُصادفة هديةٌ لـ "الحُبِّ الحقيقي" المملوء صفاءً وهناءً وحياءً وأملًا ثم يتبع هذه الحال الحاصلة مشاهدات ومُكاشفات هي غاية مطالب المُحب ونهاية ثمرة القُرب والعشق. والمُصادفة تاجٌ

لرُوحينِ انتظرا طويلا، وهي نهاية الرحلة، وخاتمة المطاف الحياتي لاثنينِ حلاً في جسدٍ واحدٍ من فرط ما بينهما من عشقٍ؛ لأن الشمس تكسفُ حُزناً على فِراقٍ أو كذبٍ في العشق، وكذا يخسف القمرُ ألماً لقلبٍ مهجورٍ أو مكسورٍ يحتاج وصلَ وجبرَ من عشقهُ.

وقلبي لا ينكرُ المُصادفة ولا الكرامة، ولا يمكن إلغاؤها أو الاستغناء عنها والعيش بدونها، ففيها لذة ومُفاجأة: "رمية نردٍ لن تلغي المُصادفة أبداً" – ستيفان مالارميه (18 من مارس 1842 - 9 من سبتمبر 1898 ميلادية)، بل أحياناً أراني ابنيهما، ففي المُصادفة سببٌ صغيرٌ يؤدي إلى نتيجةٍ عظيمةٍ، وما شُفتُ وقرأتُ في تاريخ المتصوفة وأهل العشق يجعلني أكثر إيماناً بذلك، مع تأكيدي أن المُصادفة – وهي قوياً كُلُّ القوة - لا تذهبُ إلى سائر الخلق، بل هي ما تختار من تراه لائقاً بها وفي حاجةٍ إليها، كما أنها هي الأخرى عليها أن تفتنع وتقرّ بحال المُحتاج والمنتظر لها، وفي النهاية تصل إلى اليقين والكمال المُطلق، بعد طولِ سُؤالٍ وبحثٍ للوصول ثم الوصل.

كان فولتير (21 من نوفمبر 1694 – 30 من مايو 1778 ميلادية) يُسمي المُصادفة (أو الحظ) "صاحبة الجلالة" فهي "الالتقاء المُتزامن لواقعتين لا يوجد بينهما رابطٌ، وإن كان لكلٍ منهما سببه"

وإذا كان كلوسفتر (Clausewitz)، فيلسوف الاستراتيجية، يقول إنه: "لا يوجد نشاطٌ إنسانياً يرتبط أكثر وبشكلٍ أساسيٍّ وعلى نحوٍ كاملٍ وكونيٍّ بالمُصادفة كالحرب"، فأنا سأستبدل الحب بالحرب، لأن دنيا الحب قامت على المُصادفات، كما أن الحياة والتجارب علّمتنا أن الحُبَّ له الغلبة على الحرب.

وإذا اعتبرت المُصادفة خليةً واحدةً؛ فإن الإنسان سيتحرك داخلها بحريةٍ واسعةٍ لا قيد فيها ولا حدٌ، حتى يصل إلى تحقيق حُلم الحُبِّ الذي يراه في مناماته، وينتظره بشغفٍ نادرٍ لا مثيل له في سمواته العُليا.

والأهم في الحُبِّ أن لا نتوقف عن الحُلم والسَّعي والسَّفر والسؤال والذهاب نحو ما نراه مُستحيلاً، أو صعب المنال والإمساك به.

وحدها المُصادفة - التي لم يكن من المُمكن توقعها أو تكرارها - تذهب إلى أهل الأرواح الشفيفة دُونَ تقصُّدٍ أو تعمُّدٍ أو حتى انتظارٍ، وتلقي نفسها في حِضنِ أهل الهوى، وهي لا تسير إلا على قدمين ثابتتين عارفتين، فأجمل الحُب وأصدق ما كان عفويًّا في وقوعه، وطبيعيًّا في حدوثه وحدوسه وأمله.

والمُصادفة تبحثُ عمَّا تبحث عنه أنت لتجده أمامك ينتظرك، فما تبحثُ عنه، هو بالتأكيد يبحثُ عنك، وما تريده منذ بدء مسيرتك تتألف وتتكَاتفُ السَّماء والأرضُ معاً لتُحقِّقه لك، شريطة أن تكون



\* \* \*

## عينُ المُصادفة

من لم يستجب إلى المُصادفة سيصيبه القحط والجذب، ويعيش محزومًا من الحُب، ذلك الحُب الذي جاء محمُولًا على يمين المُصادفة، وأغلق من يستحقه عينيه، فتركه في رماله القاحلة مدحورًا متروكًا عطشانًا، وذهب نحو آخر يستحق كان في قائمة اختيار المُصادفة.

لو لم تسع، وتفارق بيتك، أو غرفتك، أو سريرك، أو مقعدك، أو دائرتك المحدودة الضيقة، فلن تصافح وجهك أية مُصادفة، حيث إن المُصادفة المُقدَّسة المنتظرة المرتقبة المُرتجاة لا تذهب إلى الكسالى والأتكاليين. بل تذهب إلى المنقوعين في نهر الطموح والأمل، اللذين يزيلان أي حواجز، وينتصران على أية هزائم أو انكسارات أو إخفاقات، قد تجابه أو تواجه الإنسان، الذي ينبغي عليه أن يكون في تحدٍّ وإصرارٍ مستمرين ، ومحمولين على جناح الديمومة، لأن الإنسان خلق تواقًا للمجد والنصر.

والمُصادفة تُخْلِص الروح من قلقها وحيرتها، وتضعها على الطريق التي تبتغي وتريد وتحلم، هي تجريد للروح من أفعالها وما علق بها – عبر سنواتٍ – من خذلانٍ وحسرة.

والمُصادفة تُغيِّر، وتصوغ الإنسان وتُشكِّله، وتعيد تكوين سيرته من جديد، خصوصًا عندما تأتي في سنٍ مناسبة، والمُصادفة لا عمر لها، لكنَّ مفعولها سيكون مؤثرًا لو جاءت في الوقت المناسب؛ لأن ( الشيء إذا صادف وقتًا فثمرته وفائدته تصادف ذلك الوقت)، كما جاء في كتاب " بذل النظر في أصول الفقه " للعلاء الأسمندي ( 488 - 552 هجرية/1095 - 1157 ميلادية)، وهو من علماء سمرقند، وبشكل عام فإن المُصادفة " لا تنحاز إلا إلى الذهن المستعد " كما يرى العالم الكيميائي الفرنسي لويس باستور (27 من ديسمبر 1822 - 28 من سبتمبر 1895 ميلادية) ، ولعل كلمة مارك توين إن " اسم أعظم المخترعين هو المُصادفة "، لتعبير مطابق ودقيق يعرفه أهل العشق، وأهل العلم والمعرفة والفلسفة.

في المُصادفة كسبٌ وربحٌ، ودومًا تحمل في جيوبها المفاجآت والوعود والأمانى.

والمُصادفة مملكةٌ ترعى بنيتها الذين وُعدوا بها، إذ تُقبل عليهم، ولا تخذلهم شريطة ألا يتخاذلوا ويتكاسلوا، وألا يغلقوا أعينهم عن نورها الأبهى والأسطع .

وإذا أنتك المُصادفة فاتبعها، مثلما تتبع قلبك، لأنها عندما جاءتك لم تخطئ العنوان إليك، لأنها تقرأ جيدًا، وتحسد وتعرف الطريق دون مساعدةٍ من أحد .

ومن لم يستجب إلى المُصادفة سيصيبه القحط والجذب، وسيعيش محزومًا من الحُب، ذلك الحُب الذي جاء محمُولًا على يمين المُصادفة، وأغلق من يستحقه عينيه، فتركه في رماله القاحلة مدحورًا متروكًا عطشانًا، وذهب نحو آخر يستحق كان في قائمة اختيار المُصادفة.

بضربةٍ من يد المُصادفة يدخل الإنسان دائرة الحُب التي تحكم قلبه وتتحكّم في عمله، وعلى الذي يتلقى مصادفته أن يضطلع بالبقية من خلال قيادته وسياسته للأمور بتفاصيلها وشؤونها الصغيرة، وتُسبِر حياة راحة العاطفية، وهذه الضربة عادةً لا تكون عمياء أو عشوائية، لأنّ للمُصادفة أهلها، كما أنها لا تذهب إلا نحو من تحب، وتراه يستحقها، وجديرًا بها، ولذا فالمُصادفة ليست عرجاء، أو بقدّم واحدة، أو لا تبصر، أو أن الأمور قد اختلطت عليها، إذ هي تحدّد هدفها، وتروح إليه لتحرك ساكنه، أو تنقله من مُربّع إلى مُربّع ثانٍ، ولديها قناعة تامة أن ذلك الهدف هو من اختارته ويستأهل ما تحمله من مفاجآت، تُغيّر حياته، وتذهب به نحو مكانٍ آخر لم يتوقعه أو حتى يحلم به.

وأرى أن المُصادفة عادلة في توزيع محصُولها، ولا تخطئ الطريق التي قررت الذهاب نحوها.

المُصادفة لا تُكرهه أو تُجبر، بل تأتي طواعيةً وباختيارها، وكلمة المُصادفة قاطعة وماضية وتسبق ما سواها، إذ هي تُحدّد المآل، وترسم خريطة المصير.

وتسري مشيئة المُصادفة - التي هي القدر بمعنى ما - نحو ما تراه سليمًا وواضحًا ومُحدّدًا أمامها.

المُصادفة لها عينا زرقاء يمامة، ترقبُ في تحفُّزٍ وصمتٍ، لا يدركها سهوٌ أو نوم، ودائمًا ما تفتح بابًا لها علنيًا كان أم سرّيًا، والعاشق أو المعشوق كلاهما مدينٌ بما هو فيه للمُصادفة التي اختارته، ونامت في سرير حظّه، وأطلقت نحو نفسه الجامعة.

الأحمق وحده هو من يتفادى ضربة سهم المُصادفة المُصوّب نحو قلبه، مُحاولًا النجاة، كأنه سيسقط في بئرٍ سحيقة، ولن يأتي مارة ليلتقطوه من تلك البئر المُعتمة، وعندما يدرك المرء متأخرًا أن المُصادفة كانت تحمل في يمينها ما من شأنه أن يرفع قدره ومكانته، ويجعله في حالٍ أخرى على أصعِدَةٍ كثيرة، سيتحسر قائلاً: "ماذا لو فتحت يد قلبي للمُصادفة التي أتت إليّ طائرة أو راجلة، ساعتها كنت سأبدأ يومًا جديدًا من حياتي الأخرى".

وهناك كتاب لإريك دورتشميد عنوانه "دور المُصادفة والغيباء في تغيير مجرى التاريخ"، وكتاب ثانٍ لمحمود أمين العالم كان في الأصل أطروحته لنيل درجة الماجستير عنوانه "فلسفة المُصادفة" يؤكدان ما أراه عن حياة المُصادفة التي تعيش في بيت قلب من تختاره سماء لهديتها أو عطيتها.

ومخطئٌ من يصرخ: "أنجُ بنفسك عندما ترى سحب المُصادفة الغائمة، والحُبلى بالمطر"؛ لأن مطرها يسقي شجرة الروح، ولا يسبّب غرقًا لها، بل ينجيها من مطر الأيام الأسود.



## وقديماً كان في الناس الحب

القلب لَمَّا يعشَق، يصبح خياله تاماً ومكتملاً، لا يعرف التنافر، بل يبقى في الجذب والأسر، لا يدركه مللٌ ولا رتابةً، ويحيا ألف عمرٍ في عمرٍ واحدٍ، يعيش أزمنةً لا زماناً واحداً، حيث يصير مُلمّاً بجغرافيات جسد وروح من يحب وأزمنتها، وكذا أزمنة باطنه، وما حوله من كائناتٍ وجماداتٍ، ويصير كل ما حوله في صورةٍ مُغايرةٍ ممّا كانت عليه من قبل ولادة الحب، لأن عمر الإنسان يُقاسُ في رأيي بما (قبل الحب )، وبما (بعد الحب).

الحب يعيد الاعتبار إلى القلب، ذلك المُستودع الحاوي أسراراً ورموزاً ودلالات وإشارات وأحوالاً لا حدّاً لحصرها؛ لأنه من دونه يصبح عضلةً في جسد الإنسان تقوم بدورها الوظيفي فقط، أما مع الحب فيكون القلب ملأً كبحرٍ لا تنفذ مياهه من فرط الحب وعمقه.

فغياب الحب يُفقر القلب، ويعزله في زاويةٍ قصيةٍ لا يدركها أحدٌ. فالحب يضفي معنىً آخر عالياً للقلب، ويجعله راعياً للنجوم في فيضها، ويُصيرُه في مكانةٍ أسمى وأرقى . حيث تتحوّل قيمته المادية إلى قيمةٍ معنويةٍ، لأن العضو الذي لا يعمل يفسد، ويتبيس ويموت في النهاية.

فثُرُوس القلب التي تشتغل من دون أن تحمل اسمًا تعشقه، كأنها تساوي ثُرُوس آلةٍ تعمل من دون أن يكون هناك شيء بين أنيابها تطحنه أو تُخرجه أو تقوم به، فقط تعمل لأنها متصلة بالكهرباء.

فالقلب الذي يرى ويُصغي يكشف السرّ، ويفكّ رموز الحقائق اللامرئية، ويدرك البعد الكوني للوجود، والوصول إلى الحقيقة الكلية المطلقة، واليقين التام، باعتبار أن هذا القلب موجودٌ في سماء الإنسان الكامل.

فالقلب عندما يعشق يصل إلى ما هو خفيٌّ بفضل وصله مع من يُحب، ويتبدى له ما وراء الأشياء والموجودات والأفعال الحسية والمعنوية، ويتيسر له كشف ما هو سامٍ ومقدسٌ في الحياة من حوله، ويدرك - ببسرٍ - ما هو إلهيٌّ، ولعل ذلك ما جعل يحيى بن معاذ الرازي (258 هجرية - 830 ميلادية )، يقول في أمر أهل القلب من العشاق: "لو أمرني الله أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذاباً".

والقلب لَمَّا يعشَق، يصبح خياله تاماً ومكتملاً، لا يعرف التنافر، بل يبقى في الجذب والأسر، لا يدركه مللٌ ولا رتابةً، ويحيا ألف عمرٍ في عمرٍ واحدٍ، يعيش أزمنةً لا زماناً واحداً، حيث يصير مُلمّاً بجغرافيات جسد وروح من يحب وأزمنتها، وكذا أزمنة باطنه، وما حوله من كائناتٍ

وجمادات، وبصير كل ما حوله في صورةٍ مُغايرةٍ ممَّا كانت عليه من قبل ولادة الحُب، لأنَّ عُمَر الإنسان يُقاسُ في رأيي بما ( قبل الحُب )، وبما ( بعد الحُب ).

وإذا كنتُ قد قرأتُ ميكَرًا في الإنجيل أنه "في البَدْءِ كَانَ الكَلِمَةُ، وَالكَلِمَةُ كَانَتْ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الكَلِمَةُ اللهُ"، وقرأتُ في "الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيان التوحيدي (310 - 414 هجرية / 922 - 1023 ميلادية): "الكلامُ ينبعثُ في أوَّل مبادئه إمَّا من عفو البديهة، وإمَّا من كدِّ الرّويّة، وإمَّا أن يكون مُركَّبًا منهما، وفيه قواهما بالأكثر والأقل؛ ففضيلة عفو البديهة أنه يكون أصفى، وفضيلة كد الروية أنه يكون أشفى، وفضيلة المُركَّب منهما أنه يكون أوفى"، لكنني صرْتُ - أيضًا - أكثر قناعَةً بأنّه يمكن القول أو "الاستبدال": في البدء كان العشق خُصوصًا في مقولة أبي حيان التي يؤكِّد فيها مبدأ العفوِيّة والصفاء:

"العشقُ في أزلِّ الأزالِ مِنْ قَدَمٍ / فيه به مِنْهُ يبدو فيه إبداءُ/العشقُ لأحدتُ إذ كان هو صفةٌ / من الصفاتِ لمن قَتلاه أحياءُ / صفاتُهُ مِنْهُ فيه غيرَ مُحدِّثَةٍ.

وَمُحدِّثُ الشيء ما مبداهُ أشياءُ / لمَّا بدا البَدْءُ أبدى عِشقُهُ صِفةً / فيما بدا فتلالاً فيه لألاءُ / واللامُ بالألفِ المعطوفِ مؤنلِفٌ / كلاهما واحدٌ في السبقِ معناءُ / وفي التفرُّقِ اثنانِ إذا اجتمعَا / بالافتراقِ هما: عبدٌ ومولاءُ.

كذا الحقائق: نارُ الشوقِ مُلتهبٌ / عن الحقيقةِ إن باتوا وإن ناءوا / ذلُّوا بغيرِ اقتدارٍ عندما ولَّهوا / إن الأعزَّاءُ إذا اشتاقوا أذلاءً".  
الحلاج (244 - 309 هجرية / 858 - 922 ميلادية) .

والعربُ جُبِلت على الغزل، فأهل البادية قومٌ عشقٍ وسمَر، ومن يدرس عصر عمر بن أبي ربيعة (23 هجرية - 644 ميلادية / 93 هجرية - 711 ميلادية) سيجد نساءه (سيدات قریش المترفات الأرسقراطيات اللواتي عشن حريةً لم تُتَح لغيرهن من نساء الجزيرة العربية) من عليّة القوم، حيث الحسب والنسب والثراء، قد انشغلن بالعشق مثل عائشة بنت طلحة (هي ابنة طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشّرين بالجنة، وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، وخالتها عائشة بنت أبي بكر وزوجة مصعب بن الزبير)، وهي القائلة: "إنَّ الله تبارك وتعالى وَسَمَنِي بِمَيْسَمِ جَمَالٍ أَحَبُّبْتُ أَنْ يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم، فما كنت لأستره، وَالله ما فيَّ وَصَمَةٌ يَقدر أن يذكرني بها أحد". قال الذهبي في "سير أعلام النبلاء": "كانت عائشة أجمل نساء زمانها وأرأسهن"، وحديثها مخرَج في الصحاح.

وأيضاً مثل: سُكينة بنت الحسين، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان، وزينب بنت موسى، وهند بنت الحارث المرية.

وعمر بن أبي ربيعة (الشاعر المُتترف الذي قضى حياته كلها في مكة) ليس من شعراء الغزل المُوجِّدين، أي الذين لهم رؤية وحدانية في الحُبِّ، حيث لا يكتفي بامرأةٍ واحدةٍ، شاعر - إنسان

مُتَعَدِّد في العشق، ومثله الأحوص والعرجي (وهو حفيد عثمان بن عفان، وقد اتهمه والي مكة - وكان خصمًا له - في دم، فعذبه وحبسه فمات في سجنه) . وقيس الرقيات ( وقد سَمِّي بهذا الاسم؛ لأنه كان يتغزَّل بثلاث نساء كلهن يحملن اسم رُقِيَّة، وقد توفي سنة 85 هجرية) وسواهم من الشعراء غير الموحدين . والغزل - كما جاء في القاموس - هو " اللهو مع النساء ومحادثتهن ومرادوتهن».

أما الشعراء الذين لم يحبُّوا سوى امرأةٍ واحدةٍ طوال حياتهم، وعُرِفَ عنهم تغزُّلهم في المرأة التي عشقوها ، أو بقوا على حبهم زمناً طويلاً، فعلى رأسهم:

جميل بُثينة، وكثير عزة، ومجنون ليلي (قيس بن المُلوح)، وقيس أبنى، وعروة بن حزام صاحب عفراء (وقد ضرب في عروة بعشقه المثل، لأنه كان أطولهم صبوة، وأكثرهم في العشق كثرة)، وتوبة ابن الحمير عاشق ليلي الأخيلية، والمؤمل عشق الدلفاء، والمرقش عشق أسماء، والمرقش الأصغر عشق فاطمة بنت المنذر، وعمرو بن عجلان عشق هند، وعلي بن أديم عشق منهلة، والمهذب عشق لذة، وذو الرمة عشق مية، وقابوس عشق منية، والمخبل السعدي عشق الميلاء، وحاتم طيء عشق ماوية، ووضَّاح اليمين عشق أم البنين، والغمر بن ضرار عشق جُمَل، والنمر بن تولب عشق حمزة، وبدر عشق نعم، وشبيل عشق فالون، وبشر عشق هند، وعمرو عشق دعد، وعمر بن أبي ربيعة عشق الثريا، والأحوص عشق سلامة، وأسعد بن عمرو عشق ليلي بنت صيفي، ونصيب عشق زينب، وسحيم عبد بني الحساس عشق عميرة، وعبيد الله بن قيس عشق كثيرة، وأبو العتاهية عشق عتبة ، والعباس بن الأحنف عشق فوز، وأبو الشيبس عشق أمامة، "وأما من عشق من الشعراء فما يحصرهم عدد، ولا يحصيهم أحد. وقد عشق أكثر العرب، بل كلهم قد عشق"، كما يذكر الوشاء (تُوفِّي سنة 325 هجرية /936 ميلادية) في كتابه "الموشى".



# لم تُخلق من آدم إلا حواء واحدة

العشق رُتبةٌ وكمالٌ إنسانيٌّ، لأنه أمرٌ باطنيٌّ قبل أن يكون أمرًا ظاهريًّا، والعشق لا يمكن له أن يتمكّن من قلبٍ ما، ما لم يكن قد حفر عميقًا في أرض الرُّوح – باطن الإنسان.

أنت لا تخرُج من الحُب مُرهقًا منهكًا متعبًا خاسرًا؛ لأنَّ الحُب يجعلك في حال جدلٍ دائمٍ مع الذات، ومُنْتصرًا بلا هزائم أو خيباتٍ أو مراراتٍ، لأنَّ الرُّوح العاشقة أو المعشوقة تعلو ولا تنزل، تعيش حلمها وفلسفتها بحريةٍ جامحةٍ، ومن يجمح يطمح، ولا يصيبه وهنٌّ أو خسرانٌ.

ففي الحُب أنت تُولد مرَّةً ثانية، بعد الولادة الأولى البيولوجية، فولادة الرُّوح أهم من ولادة الرحم، هُما معًا يخلقان المرء خلقًا آخر مختلفًا، وهو ما يمكن تسميته بنسب الحُب ونسب الطين، وفي الحُب تمرُّدٌ على السائد، وتجاوز لنمطه المكرور المُعاد، وانتصارٌ على التقليد، وفوزٌ على التحجُّر، وعبورٌ على العُرف الكاذب، وتمجيدٌ للذة الروح قبل لذة الجسد، وسلطةٌ على سلطان الوجود، وهو سيادةٌ كاملةٌ لا نقصانَ فيها، سيادةٌ بلا عبوديةٍ جبريةٍ أو مُختارةٍ، وهنا السيادة تعني القوة ، وكم من حُبٍ ينفد من الهلاك والتلاشي ، لأنَّ من خسر حُبّه، فقد حياته، وعاش كسيرًا، معتزلاً.

فعلَى يد الحُب، يعلو الإنسان، ويفقهُ حاله ، ويتطهر نفسيًّا وأخلاقيًّا، ويصفو ويشفُّ، ويدرك السرَّ إدراك الشيء بمُجمله بعد أن يفوز بمفتاح الأبواب المُغلقة.

والحُب الذي لا خيال فيه معطوبٌ، وقد سقطت من أبجديته حروفٌ كثيرةٌ تُشكِّلُ مثنه، فالحُب "يخدِّر الحواس ويذهب العقول ويدهش الخواطر ويذهب بصاحبه في الذاهبين". ابن عربي: " ذخائر الأعلام في شرح ترجمان الأشواق "وقد كتبه في مدينة حلب سنة 611 هجرية.

وجوهر الحُب النقاء، والفناء فيمن تُحب، وقد رأينا كيف أنّ العربيَّ القديم إذا ما أحبَّ، دار سنةً كاملةً حول دار من يعشقه، مرتئيًّا أن دارها كعبته التي يبتهلُ في جنباتها، مؤديًّا المناسك والطقوس غير غافلٍ لشيء. فالمُحب هو السالك لطريق العشق ، محمُولًا على الحكمة الكبرى، وأسرار شرع العشق وعرشه.

ومنازلُ العشاق تكونُ على قدر عشقهم، حيث التماهي بين ما هو رُوحِيّ وبين ما هو جسديّ، في صورةٍ حلوليةٍ واتحاديةٍ، عبَّر عنها الحلاج شعرًا بقوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

نحن روحانِ حلَّلنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرتُهُ

وإذا أبصرتُهُ أبصرتنا

وعبرَ عنها شعراً أيضاً ابن عربي بقوله:

إذا ما التقينا للوداع حسيبتنا

لدى الضمِّ والتعنيقِ حرِّفاً مشدداً

فنحنُ، وإن كنا مُتتى شخوصنا

فما تنظرُ الأبصارُ إلاَّ موحدًا

وما ذاك إلاَّ من نُحولي ونُوره

فلولا أنيني ما رأت لي مشهدا

فالعشق رتبةٌ وكمالٌ إنسانيٌّ، لأنه أمرٌ باطنيٌّ قبل أن يكون أمرًا ظاهريًّا، والعشق لا يمكن له أن يتمكّن من قلبٍ ما، ما لم يكن قد حفر عميقًا في أرض الرُّوح – باطن الإنسان، وعند ابن عربي وسواه من شيوخ العشق لا يكون الأنس إلاَّ بالجنس.

والعاشق الحق ابن القلق المعرفي، إذا دخل على معشوقه دخل بكُّلِّه، لا يترك منه خارجًا عن معشوقه شيئًا، حيث في عالم الرُّوح تتساوى القلوب، لا فرق بين مُحبِّ ومحبوبٍ، حتى يقول العاشق بلسان العرفان الصوفي: "حدّثني قلبي عن ربي".

ففي العشق "بين نعم ولا ، تطيرُ الأرواحُ من موادِّها، والأعناق من أجسادها"، ومن يعشق لا يذوق الخلَّ بعد العسل، حيث يلزم بيتَ عشقه موجِّدًا لا مُكثِّرًا معيِّدًا، ثابتًا على دينِ حيِّه، لا متنقلًا بين كثيرٍ من النساء، إذ إنَّ آفةَ الحُبِّ التعدُّدُ فيه؛ لأنَّ ذلك وشبيهه لا يصيرُ في عُرفنا ومنطقنا ومذهبنا حُبًّا، فمن آدم لم تُخلق إلاَّ حواء واحدة.

والدين هو الحُب، ذلك الحُب الذي يفجّر الطاقات الرُّوحية والحسيّة لدى المُحب والمحبوب معًا ، لأن النساء يقرّبن المرء من ربِّه، يقول الحديث النبوي : "حُبب إليَّ من دنياكم ثلاث : الطَّيب، والنساء، وجُعلت قرة عيني في الصلاة".

والحُب أن تراعي كريم ذات من تحب، وهو أمرٌ صار نادرًا في زماننا.

والإنسان يعرف نفسه في الحب، ويدرك قدراته اللانهائية به، فمن عرف من يعشق عرف نفسه بالضرورة، والنفوس تنصرف عن فعل الشرور إذا أحببت؛ لأنها ستكون مشغولة بالتفكير والتأمل والخلق وحدوس الذات ومشاركة الأنوار الأسمى في عليائها، حيث تحيا النفس حيوات كثيرة في اليوم الواحد، ولا يصيبها أحد في مقتل؛ لأنها مُحصنة، وبصرها ممدود نحو الحب الأعلى.

والمرأة تُحب لذاتها، فهي أهل ولاية، وهي من خواص الخواص، وهي النقطة العليا في العشق، وهي إحدى مراتب الوجود، وهي عين الشمس، (تشرق الشمس إذا ما ابتسمت) وقرّة عين الروح – في العموم – التي تُدرك بالقلب والبصيرة والعقل والأنفاس والشهود والأدلة، يقول ابن عربي (558 هجرية - 1164 ميلادية / 638 هجرية 1240 ميلادية) في كتابه الأشهر (الفتوحات المكية): "جعل الله النساء زهرة حيث كُن، فإذا كُن في الدنيا كُن زهرة الحياة الدنيا، فوق النعيم بهن حيث كُن، وأحكام الأماكن تختلف؛ فهن وإن خلقن للنعيم في الدنيا، فهن فتنة يستخرج الحق بهن ما خفي عنّا فينا مما هو عالم ولا نعلمه من نفوسنا فيقيم به الحجة علينا"، والمرأة هي من تثير في عاشقها فضائل المعاني، لأنها الزهرة بألف لام التعريف (تدخل لام التعريف على الأسماء؛ كي تعرفها، وتزيل إمكان اللبس في المقصد من الاسم المُعرّف)، من تعطي الرائحة، وتصير متنزّهًا للبصر، والدليل على الثمرة في بستان الحياة الواسع الذي هو بستانها، حيث تتعدّد ألوانه ولذائذه، و" هي التي تُخرج كنزَه المخفي إلى الوجود".

وقد حدث هذا مع محي الدين بن عربي عبر مريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن البجائي التي غيرت مجرى حياته (وقد أنجبت له ولدين، وبنّت اسمها "زينب" تُوفيت وهي صغيرة)، وقد ماتت مريم في حياة ابن عربي، وهو القائل: "حار أربابُ الهوى / في الهوى وارتبكوا". والمرأة (النظام) التي أحبها وهو في الثامنة والثلاثين، ووصفها ابن عربي، فهي المرأة التي يحلم بها العاشق وينتظرها، وفي وصفها يقول: "إن أسهبتُ أتعبتُ، وإن أوجزتُ أعجزتُ، وإن أفصحت أوضحت، وإن نطقت خرس قس بن ساعدة، وإن كرمت خنس معن بن زائدة، وإن وفيت قصر السمائل خُطاه، وأغرى ورأى بظهر الغرر وامتطاه".



## لا حُب ينمو في زمن الاستبداد والتكفير

العشق الحق لا تقلب فيه، ولا تغير، ولا غدر، ولا خداع، ولا دور للوشاية والشائعة والدسياسة والوقية؛ ولا اهتزاز في الثقة التي ينبغي أن تكون متبادلة بين المحب والمحبوب .

والعشق لا يؤثر فيه زمان، ولا يمحوه بُعد، ولا يقترب منه سلوان، و لا تنقطع فيه الأسباب بين العاشق والمعشوق مهما تكن الأحوال والظروف، لأنَّ الحب المتين مثلما هو مرتبط بالدين، كذلك هو مرتبط بالحب

العشقُ حكمةٌ إلهاميةٌ محمولةٌ على رتبة السمو والمثالية، وعبودية طائعة مُختارة ، و عفوية وخضوع وتضرع للمرأة، وهذا موجودٌ عند العرب منذ الجاهلية، كما أنه موجودٌ في الحضارات القديمة التي كانت المرأة فيها إلهةً مقدسة تُعبد؛ لأنَّ النفس تكون مملوكةً بوحى وسلطانٍ من الحب الذي حُكمه نافذٌ، وأمره لا يعرف المخالفة، ويرى العاشق أن المرأة التي يحب مُطلقة الكمال، وفريدة بين المخلوقات، وتامة بين بنات جنسها من النساء، وأنها فوقهن بما تمتلك من حُسنٍ وجمالٍ نادرين، إذ يراها أحسن النساء وأفتنهن.

وهو تجربةٌ تخلقها النفس باطنياً، وتُغنى بالمخفي لا الظاهر من الأشياء؛ لأنَّ النفس طُبعت على الحُبِّ وجبِلت، كما أنَّ القلوب بيد من خلقها.

والعاشقُ الحُرُّ من رُوح الإله، وهو شاعرٌ حتى وإن لم يكتب بيتاً أو سطرًا شعريًا واحدًا؛ لأنَّ ممارسة العشق وحدها هي المتن المفتوح اللانهائي اللامحدود للنص .

والعشق ليس لهواً أو تسليةً أو مجوناً أو تزجية فراغ، أو ملء وقت، وشغل رُوح عابثة تتسلى، لكنه عبادةٌ لها مناسكها، وصلاةٌ لها طقوسها، ووحداً بين اثنين لا تنثيةً فيها، ولا تعدد. وهو نفاذ بصيرة، وارتقاء رُوحٍ يعلو على ما هو أرضيٌّ عابر، لأنه امتزاجٌ واتحاد بين رُوحين، والتقاء بين نفسين حيث المُماثلة والتوحيد.

ولا ينمو عشقٌ في زمنٍ يعمُّ فيه التزمُّت والتعسف والفتنة والاضطراب والمحن والخطوب والتكفير .

ألم يكن شعرُ أهل الغزل خُصوصاً ( قيس بن الملوِّح – ليلى، قيس ابن ذريح – لبنى، جميل بن معمر – بُثينة، كُثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر بن عويمر الخزاعي – عزة) يُنشدُ في المسجد الحرام بمكة، والمسجد النبوي في المدينة دون خوفٍ أو حرج؟

ألم يكن الصحابي عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ( قبل الهجرة بثلاث سنين – 68 هجرية / 619 – 687 ميلادية ) ابن عم النبي محمد، وحبر الأمة وفقهها، وإمام التفسير وترجمان القرآن يُؤثر الإنصات إلى شعر عمر بن أبي ربيعة الغزلي على أن يستمع إلى مسائل نافع بن الأزرق ( ... - 65 هجرية/... - 685 ميلادية) في الفقه والحديث وتفسير القرآن؟

العشق الحق لا تقلب فيه، ولا تغير، ولا غدر، ولا خداع، ولا دور للشائبة والشائعة والدسيسة والوقية؛ ولا اهتزاز في الثقة التي ينبغي أن تكون متبادلة بين المحب والمحبوب.

والعشق لا يؤثر فيه زمان، ولا يمحوه بُعد، ولا يقترب منه سلوان، و لا تنقطع فيه الأسباب بين العاشق والمعشوق مهما تكن الأحوال والظروف، لأنَّ الحب المتين مثلما هو مرتبط بالدين، كذلك هو مرتبط بالحب "أدينُ بدينِ الحبِّ أنِّي توجَّهْتُ رَكانبُهُ فالحُبُّ ديني وإيماني. – ابن عربي"؛ لأنَّ المنانة قوة وصلابة وتماسك وثبات وقُدرة على البقاء، والمتين كما نعرف هو "اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الشَّدِيد القوي، المُتَناهي في القُوَّة والقُدرة، الذي لا تتناقض قُوَّته، ولا تضعف قدرته"، فالعشق – أساسًا - هو عودة إلى الأصل، حيث يجتمع المتفرق، ويلتئم المتبعثر، ويلتقي المنشئت بعد طول انقسام، وتتصل النفوس المقسومة بعدما تجزأت. وفي الأدبيات الإسلامية نجد أن الحب ما هو إلا ضربٌ من ضروب الجهاد، ودائمًا ما أستعير مقولة الإمام وصاحب المذهب الظاهري الفقيه ابن حزم عندما كتب عن الحب: "ليس بمُنكر في الديانة ولا بمَحْظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل".

والعشق الذي ينبع من مصدر النفس لا الجسم حيث التجربة الذاتية، لا ينكره عُرف ولا دين، وهو ابن العفوية والمصادفة، لا تكلف فيه ولا تقصد أو تعمُد أو تزيد.

ولا ينمو عشقٌ ويتكاثر في بلدٍ يحكمه اقتتالٌ واستبدادٌ وتسُلُطٌ ونفاقٌ، ويسيطر عليه حكمٌ فرديٌّ ظالمٌ قامعٌ، يسجن الحواس السليمة ابنة البداهة والفترة؛ لأنَّ الشعوب الحرَّة الحارَّة تحمل الحبَّ جامحًا دافعًا كسيولٍ لا توقفها سدودُ البشر، والعشق يزدهر مع الوضوح والكشف والصراحة، حيث تختفي الموارد والمدارة؛ لأنه يرقق الطبائع، ويجعل النفوس خيرَّة مانحة، فليس لأهل الشرِّ مكان في كتاب الحب.

والعشق - الذي هو اتصالٌ لا انفصالٌ - حقيقة نعيشها، ونعياها، ونعانيها، ونعنيها، لا يمكن نكرانها، إذ هي واقعٌ معيشٌ، يقع فيه المحظوظون في الدنيا.

وليس في العشق حساباتٌ أو معادلاتٌ أو مقايضاتٌ أو ترتيباتٌ مسبقة، أو توازناتٌ أو خوفٌ أو شكٌ أو تفكيرٌ وأناةٌ ورويةٌ واستبطاءٌ، إذ يأتي بلا أوانٍ أو استئذانٍ حيث لا وقت له، وليس فيه صيدٌ أو قنصٌ ( تكره المرأة أن تكون فريسةً أو صيدًا لقنَّاصٍ )، ولا إثارةٌ للنفس على ما سواها، سادر جامح سادح ( سحاب شديد ثقيل ) يحمل خصبًا وغنىً، لا يلقي بالألِّ بالقواعد، تأتي فيه الغرائز في ذيل طائر

العشق  
لا في عنقه.

ومن يكتب العشق لابد أن يعيشه ويعانيه ويلتذّب به، لا أن يذهب إلى المراجع والمصادر وما خطّه الأسلاف من رسائل في العشق أو كُتّب، أو أن يبحث ويستقصي من دون أن يقرأ نفسه كمُحبّ عارفٍ؛ لأن العشق ابن التجربة، وليس ابناً للنظريات المبنية على النقل والشفاة والاستقراء والاستقصاء والقراءة في الكُتب.

ولعل ابن حزم - الذي اتهمه خصومه في الأندلس بالإلحاد في ظلّ سيطرة الفقهاء وقتذاك، حيث أوقعوا بينه وبين الحكام ووشوا به - كان من أوائل من نظروا في العشق، ونظروا له من قلب العشق وليس من خارجه بعد ( ابن داود الظاهري، وأبي الفرج بن الجوزي، وإخوان الصفا، وابن المقفع، والجاحظ، والمسعودي، وأبي إسحق الحصري القيرواني )، إذ اعتمد ابن حزم - الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي - (على دقة الملاحظة، وعمق المشاهدة، ورهافة التأمل من وجهة نظر نفسية واجتماعية، والغوص، والاستبطان، والنظر الروحي والعقلي المنطقي)، واستنبط أصولاً وقواعد هي " أشبه بالعلم وأقرب إليه من شبهها بالأدب وقربها إليه " كما يذكر طه حسين في كتابه "ألوان" دار المعارف 1958 ميلادية.

والعشق - كما أراه وأعرفه - هو أكثر سلوك بشري يمكن أن يهذب أخلاق المرء، فمن لا حُب له لا أخلاق له؛ لأنه ينبع من النفس وليس من جسدها.

وليس بمستبعد أن يتحول الحُب الحسيّ إلى عشقٍ فريد، ويحدث هذا إذا ما كان الجسدان يعرفان عبر الحواس طريقتيها إلى الرُوح، ومن هنا يصل كل واحدٍ إلى نقطته التي يقصدها أو يطلبها أو يبتغيها من النفس، لأن في الوفاق الجسدي اتحاداً بين روحيين.

\* \* \*

# لا يوجد أجمل من خطاب الحب

لا يوجد أجمل من خطاب الحب سواء أكان في الكلام أم الممارسة، حيث تعيش المثل، ويعيش الوجود الأعلى في العشق المحمّل على اللذة والانتشاء والتحقّق الروحي، حيث تصل النفس إلى أعلى مستوياتها من الرضا، وهي غارقة في إناء الحب.

في العشق نرجسية ما، ولا أقصد هنا أفئتان المرء بذاته، وإعجابه بها دون سواها، أي الأنانية من قبل المُحب إزاء المحبّوب، وليس حُب النفس، وإن كان في الأنانية حُبّ للنفس بشكلٍ أو بآخر، وذلك يُمثّل مشكلاتٍ، ويُسبّب أزماتٍ متتاليةً ومُتلاحقةً ومُتسارعةً، خُصوصًا في تجارب العشق التامة المكتملة التي تتواشجُ فيها الرُوح مع الجسد، في تصافرٍ لا تكلف فيه ولا تصنع، وإن كنتُ مع النرجسية الصحية، التي تتمثّل في تقدير الذات، وليس عبادتها، مع تقدير ذات من ترتبط بهم عشقيًا. يقول فرويد: "إن النرجسية الصحية حالة أصلية لتطور مُكوّن الحب في الفرد، وهي جزءٌ أساسيٌّ من التطور الطبيعي" لحياة المُحب أو المحبّوب، لأن النرجسية الصحية تحقّق إشباعًا وجذبًا وتوازنًا واتساقًا، وهذا أمر ليس فيه اضطرابًا أو مرضًا ما، إذ إنها الصدق الذي يبني الذات ويُعبر عنها، ولا بد من التفريق بين ذات المُحب وذات المحبّوب (الأخر)؛ إلى أن يتم الطول فيه، والاتحاد به، والتوحد معه، بحيث تتحد الروحان وتحلّان في جسدٍ واحدٍ:

"أنا من أهوى ومن أهوى أنا"

نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرتُهُ

وإذا أبصرتُهُ أبصرتنا

أيها السائل عن قصتنا

لو ترانا لم تُفرّق بيننا

روحه رُوحِي وَرُوحِي رُوحُهُ

من رأى روحين حلّت بدنا".

كما يقول الحلاج ( 244 - 309 هجرية / 858 - 922 ميلادية)، أو كما يقول ابن الرومي (من شعراء القرن الثالث الهجري في العصر العباسي، 221- 283 هجرية/ 896 ميلادية):

أعانقها والنفسُ بعدُ مشوقَةٌ

إليها وهل بعد العناقِ تداني

وألثمُ فاهَا كي تزولَ صبابتي

فيشتدُّ ما ألقى من الهيمان

ولم يكن مقدارُ الذي بي من الجوى

ليشفيهِ ما ترشفُ الشفقتان

كأنَّ فؤادي ليس يشفي غليله

سوى أن يرى الروحين تمتزجان.

ولكنني أرى أن كلَّ طرفٍ في علاقة الحب يؤمن في داخله بملكية الآخر، والملكية هنا لا تعني المصادر والتعسف، بقدر ما تعكس عمق العلاقة العشقية التي يريد كلُّ طرف أن تستمر حتى الموت (أحبك حدَّ الموت أو حتى الموت)، لكنَّ الأضرار (الخصام والشروخ والفراق) تقع إذا زادت النرجسية وحب التملك على القدر المرصود في العشق، وتحوّلت إلى غيرة تفصل وتفصم وتفصم، تؤدِّي إلى الانسحاب والأفول، حيث يصبح الآخر غير مستقر، ومنقوع في مياه الشك والريبة والقلق طوال الوقت، وفي فراغ واسع يؤدِّي إلى الهاوية، التي يسقط فيها المرء من فوق جبل العشق بعدما تصدَّع، وتهدمت أركانه، ومن ثمَّ يستحيل أن يمتد خيط العشق، حتى ولو كان مجدولاً من خامة لا تنقطع ولا تبلى؛ فحبل كتان العشق سيكون نادراً وطويل العمر، إذا لم تعتوره عوارض وقوارض آتية من حيث

لا يحتسب العاشق أو المعشوق.

فالعشق يقع عندما تستوعب رُوحك عواطف ومشاعر من تقترب منه قلبياً ، حيث تتوحد أذاك المعتدلة الوسطية المدركة المفكرة الواعية العارفة العاشقة التي تتحول تدريجياً في العشق إلى أنا عليا super-ego ، مع أنا من تراه موضوعاً نهائياً لعشقتك جسداً وروحاً، ومن ثمَّ يقع التماثل والتماهي والتوحد، وتصل إلى الجوهر بشكلٍ متدرِّجٍ وعفويٍّ، أو بشكلٍ غامرٍ وتلقائيٍّ، وهنا يحورُ العاشق كل ما يخصُّ المعشوق من أمكنةٍ وأزمنةٍ ماضيةٍ أو راهنةٍ أو آتيةٍ، لأنَّ الأسر في الحب يؤدِّي – حتماً – إلى تقديس من نحب حدَّ الألوهية، و"سجنه" داخلنا حتى يكبر في قداسته وحرمة المساس به.

وهذا التماهي، أو هذه المحاكاة بين عاشقٍ ومعشوقٍ، تجعلهما يتحدثان لغةً واحدة، ويسلكان مسالكَ شتى متشابهة أو متماثلة، وذلك هو ما يجعل هناك قرابة في الشبه بعد سنواتٍ متعاقبةٍ من الحب، حتى ليتصور الرائي أنهما توأم، أو من عائلةٍ واحدة، وهنا تلعب كيمياء السعادة في الحب دورها بشكلٍ فطريٍّ بين الاثنين اللذين سيصيران واحدًا بعد ذلك.

في العشق سطوةٌ لها مكانتها في اللغة التي تخرج من كليهما، وهي سطوةٌ تؤسس وتكون وتعيد صياغة النفس وتشكيل الروح، وترتيب عُرف المشاعر، وتجريد الرُوح من غبار السنوات، وهذا يتبعه تحقُّق متعة وسعادة بالغتين وعلويتين؛ تكونان قادرتين على مواجهة أية قوى خارجية، يمكن أن تضرب شجرة العشق التي يسعى الطرفان إلى تجديرها في تربة حياتهما.

وفي العشق – أيضًا – سلطةٌ روحية وجسدية تابعة وليست هي الأساس؛ لأن العشق الذي يُبنى على مبدأ لذة الجسد سينهار جسره قُرب الزمن أو امتد، ولتلك السلطة قدرةٌ على التحكم والسيطرة في الفعل ورد الفعل، والسلوك الذي يمارسه المُحب أو المحبُوب، إذ لا توجد ممارسة عشوائية في الحُب إن لم يكن هناك إقناع وإمتاع ومنح لا نهائي.

أليس كل إنسان لديه قدرةٌ عاطفيةٌ ونفسيةٌ وثقافيةٌ على العشق؟

هل يمكن لرجلٍ أو امرأة أن يستغني عن الحُب، ويعيش معزولاً ووحيداً دون شريكٍ دائمٍ أو حتى متغيرٍ؟

أحيانًا بعد انفصالٍ أو فراقٍ بين اثنين يقَرّر المرء (أحدهما أو هما معًا) ألا يقع في التجربة المقدّسة (العشق) مرةً ثانية؛ كي لا يتوجّع، أو يتألم قلبه من جديد، أو يُجِدّد جراحه، ويستعيد ذكريات ما مضى معه في السابق، لأن التذكُّر يملأ الجرح ملءًا مركزًا يأكل لحم جسد الروح.

وهنا نحن أمام مقاومةٍ للحُب، وأخذ مسافة بعيدة أو ساتر يفصل المرء عن جدار الحب الذي قد يكون جازًا أو قريبًا خشية الوقوع في الحب، ومُعاودة التجربة، وتكرارها مع شخصٍ آخر، مع أنه يعلم أن البشر مختلفون، ولا توجد تجربةٌ تستنسخ سابقتها، أو شخصٌ يكرّر آخر في الحُب، أو في أيِّ أمرٍ آخر. مع أن الذات هنا تكون قد تبطّنت من خلال التجربة التي مرّت بها ووعت الدرس العشقي أو على الأقل بعضه، وكوّنت معرفةً تستطيع بها أن تُقوّم الأمور، وتضبط المشاعر، وتفرض الحقيقي من المُزيّف، والصادق من المُفَنّعل، وأدركت صورتها كيف تكون في الحُب؛ كي تتحاشى ما وقعت فيه من هناتٍ أو هفواتٍ أو أخطاء، ويصير للذات نداء ذو صوتٍ عالٍ يطلب الحُب لا أن يتهدّج ويتمرّق وينتقم ويتوارى مُحبطًا مُستلبًا مُدمرًا مُكوّمًا في زاوية اليأس، كارهاً الحُب والمُحبين.

لأنه لا يوجد أجملُ من خطاب الحُب سواء أكان في الكلام أم المُمارسة، حيث تعيش المُثل، ويعيش الوجود الأعلى في العشق المحمُول على اللذة والانتشاء والتحقُّق الرُوحِي، حيث تصل النفس إلى أعلى مستوياتها من الرضا، وهي غارقةٌ في إناء الحُب.

\* \* \*

## في الحب اختلاف وتعدّد وحرية

في العشق أنت تبحث عن شبيهك ، ولا أقصد هنا بالشبيه "القرين " أو " الأنا الثانية "، فالحب ليس البحث عن نسخة مطابقة لمن يستقبل الحب، إذ في الحب اختلاف وتعدّد وحرية وتنوع وغنى يتأتى من مساحات الفروق، لكنني قصدت بالشبيه أن يكون قريباً في الفكر والثقافة واللغة الباطنية؛ كي يقع الانسجام والتوافق والائتلاف ثم الاتحاد والحلول.

ليس من السهل أن تجد الحب، كما أنه – في الوقت نفسه - ليس مستعصياً أو مستحيلاً، فقط عليك أن تَبقي بابَ القلب مفتوحاً، وليس موارباً أو مغلقاً، لأن من أغلق بابَه، سجن، وعزل، وأصابه الفوت والندم.

وليس من السهل أن تحافظ على هذا الحب اللا مشروط لأنك تبحث عمّن تتماهى معه، وفي اللغة "أما الشيء بالشيء: خَلَطَهُ"، وليس من النقص أو العيب أن يحاكي المُحب المحبوب والعكس، وهو ناتج عن التعلق العشقي، وفي العشق مُخالطة ومُمازجة وانصهار، كما لو أن الماء ينتشر، وبالطبع لا أحد يمتلك إيقافه حين يفيض، ولا أقصد بالتماهي هنا النقمُص أو الاستلاب بل التَّوَجُّد أو التمازج العشقي أو العاطفي والتماثل والتطابق الناتج عن علاقة عشقٍ متكافئة، ليس فيها تسلُّط أو استبداد من طرفٍ على حساب طرفٍ آخر.

وفي العشق أنت تبحث عن شبيهك ، ولا أقصد هنا بالشبيه "القرين " أو " الأنا الثانية"، فالحب ليس البحث عن نسخة مطابقة لمن يستقبل الحب، إذ في الحب اختلاف وتعدّد وحرية وتنوع وغنى يتأتى من مساحات الفروق، لكنني قصدت بالشبيه أن يكون قريباً في الفكر والثقافة واللغة الباطنية؛ كي يقع الانسجام والتوافق والائتلاف ثم الاتحاد والحلول، حيث إن "الأرواح جُودٌ مُجَنَّدَةٌ، مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاقَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ"، كما جاء في الحديث، والتعارف هنا هو التوافق في الصفات والسمات، وتعارفها معناه (تَنَاسَبُهَا وَتَشَابُهُهَا فِيمَا تَعَلَّمَهُ وَتَحِبُّهُ وَتَكَرَّهُهُ).

وقال عبدُ الله بن مسعود: "الأرواحُ جُودٌ مُجَنَّدَةٌ تَتَلَقَى فِي الْهَوَاءِ، فَتَنَسَّامُ كَمَا تَنَسَّامُ الْخَيْلُ..."، وانتلف أي ألف قلبه قلب الآخر وإن تباعداً، وقد روي عن أبي الدرداء أنه قال: «إياكم ومن تبغضه قلوبكم».

أو تبحث عن نصف بذرتك التائهة ربما لما قيل مولدك، والتي ضاعت في أرضٍ أخرى وحياة ثانية، عن ذلك النصف المكتوب في كتابك الأبدي، والمسطرّ علويّاً في لوحك المكنون.

والعاجز عن الحب نرجسيٌّ وأنانيٌّ وبخيلٌ من طرازٍ نادرٍ ومنقرض، فمثلي لا يتخيل حياةً مستقيمة من غير حب.

لا يعجز عن الحُب وفعله إلا البلاء المتخشّنون، والأنايون أبناء الجفاء والجفاف، والمزيفون والخائبون والمضطربون اجتماعيًا ونفسيًا ولن يعيدهم إلى ذواتهم الأصيلة سوى الحب، والكارهون للحياة ونورها الأسطع، الذين في قلوبهم حقدٌ وبُغضٌ وشرٌّ وحسد، وفي نفوسهم جُبْنٌ وانسحاقٌ وخوفٌ وازدواجٌ وعُقدٌ لها جذورها المتأصلة، ولا يستطيعون مُبادلة الخير والحب والسكينة والسلام والمنح مع الناس، ويرضيه أن يعيشوا – هكذا – عاجزين عن منح ذواتهم للآخرين من ذوي القربى أو الجيران أو زملاء الدراسة أو العمل أو المحيطين بهم، لذلك كلما رأيتُ بخيلًا أهربُ من مداره وأفرُّ من مساره، لأن البخل صفةٌ مذمومةٌ وسينةٌ ومُنكرةٌ ومكروهةٌ من الجميع، وتبعد صاحبها عن المروءة والبذل والمنح؛ لأنني مع الحياة لم أر عدوًّا ليّ أكثر من البخيل الذي لا ينفق من نفسه شيئًا إلا لو نزل إليه وحيٌّ من السماء، وهذا افتراضٌ مستحيلٌ ومُستبعد.

وأكثر من تنطبق عليهم صفة الشُّح، هم بخلاء القلوب، الذين يحملون في نفوسهم الكثير من الأمراض المستعصية على العلاج، ويحدث أن يتزوج الشحيح بامرأةٍ فيحوّل حياتها إلى جحيمٍ؛ لأن الشحيح هو أفسى أنواع البخلاء من الرجال؛ لأنه لا يكون شحيحًا مع الآخر فقط بل مع نفسه أولاً، وهؤلاء عندي لا يُعوّل عليهم في شيء.

والبخيل غير مبالٍ، ولا ملامح له، وهو – عندي – من يجمع كلَّ مساوئ الحياة وعيوبها في سلّة حياته ومن ثمّ لا يكون قادرًا، ولا في استطاعته إقامة حياة أو علاقات قائمة على الحُب، ممسوح الوجه وممسوخ، لا دلالة له، وجاهل بالرموز والإشارات والعلامات، ومن وجهة نظري أراه فارغًا ومكبوئًا وعاجزًا جنسيًا، بل يُعرَف عنه أنه هادمُ المودّات، وقاطع الحُب من القلوب، لأن الحُب بطبيعته

لا يصدر إلا عن روح عارفة وممتلئة، ونفسٍ مانحة وسخية، وقلبٍ راءٍ ومدركٍ لماهية وجوده في جسد صاحبه، ووظيفته التي خُلِق من أجل إتمامها.

وأحيانًا ما أجد مقتيرًا وبخيلًا يصرخ في وجهي: "لا أحد يحبُّني، ماذا أفعل؟"، ولا ردٍ لديّ سوى الصمت، والخجل تجاهه، لأن البخيل لا يرى في نفسه صفة البُخل، ويشعر طوال الوقت أنه ضحيةٌ، بل إنه " يدلّع " البُخل، ويمنحه صفات أخرى مثل الحرص والتريث والتعقل والاتزان والوسطية وكل ذلك وغيره لا اسم له عندي سوى البخل.

لغات الحُب كثيرة وخاصة، وبقدر تشابهها بين أغلب البشر، فإن بينها فروقًا من حضارةٍ إلى أخرى، تبعًا لتكوين الفرد وتركيب بنيته الرُّوحية والعاطفية، والمحيط الذي نشأ فيه، والبيئة التي تربّى فيها وتعلّم.

ولغات الحُب، تتوزَّع بين الشمسية والقمرية، لا تعرف غير النور، وما عدا النور، فهو محض كذب وافتراء ونصب على الروح، ولذا يبصرها من كانت له عينان في قلبه، وكانت له في أعلى عمارة رُوحه منارةٌ تلتقط كل صوت، ويتقن الجميع هذه اللغات بنسبٍ ودرجاتٍ مُتفاوتة، سواء من وصل إلى أعلى الدرجات العلمية، أو من لم تطأ قدماه أرض المدرسة الابتدائية؛ حيث إن النفس بطبيعتها جُبلت على الحُب، ومن ثمَّ تعرف كيف تُحب، وقد وصلت إلينا نصوصٌ عبر الأزمنة والحضارات القديمة والثقافات المختلفة قالها عُشاق شفاهة، إذ هم لا يعرفون كيف تُكتب حُرُوف أبجدية لغاتهم.

حيث تتجرَّد الذات من أفعالها، وتبرز معرفتها، ويعلو شجرها، وتنتفح مسام جسدها على الحُب فقط، وتُخلق رُوحٌ جديدة تصير تامةً ومكتملةً، ولا يكون هناك يقينٌ إلا يقين الإيمان، والاعتقاد بالحب كدينٍ وعقيدةٍ ومذهبٍ وطريق متصل لا انقطاع فيه، وتصوغ بيانها المُقدَّس عن العشق، إذ تكتبه بلغة ذات أبجدية غير مسبوقة، لم يصادفها البشر من ذي قبل، وكل تجربة في العشق لها أبجديتها، وأنا من الذين يؤمنون بخصوصية لغة كل تجربة، حتى لو عاش الفرد الواحد تجارب عديدة، إذ كل تجربة لها جوهرها اللغوي الخاص بها.

يمنح الحُب – الذي بلا قيدٍ على العواطف، أو كبتٍ للأحاسيس والمشاعر – البشر تسامياً من نوع خاص، لا يمكن لشيءٍ آخر أن يحققه غير الحب الساعي إلى تحقيق المُتَع العليا المطلقة، كما أنه يعطي لحامله إعلاءً في الروح، وارتقاءً للنفس في مدارجها، وهي تمارس سلوكها وحيدةً أو بين الجموع، فهي بالحُب – الذي ينتصر على الحقد – تعيد خلق كل شيءٍ من جديدٍ، حيث تعيد تكوينه بطريقتها، حيث يمنح الحُب طاقاتٍ نادرةً، وإمكانيات غير مسبوقةٍ أو متكرِّرة؛ من شأنها أن تضع المُحبين في مصاف الأعلى مرتبةً بين الناس، مرتبة فيها من النبوية والرسولية الكثير.



## الحُب ليس من أعمال الخير وأداء الزكاة

الحُب ليس مُجاملَةً بين اثنين، وليس اعترافًا بجميلٍ أدّاه، أو معرُوفٍ صنعه طرفٌ إلى طرفه الآخر، إنه أعلى وأسمى بكثيرٍ من كل ذلك، ومن أي تصوُّرٍ بشريٍّ حسيٍّ أو ماديٍّ.

إذا صرت في الحُب، فأنت بطبع الروح، وسليقة النفس، وفطرة الإنسان، تجعلك شاعرًا، وتُصيِّرُك حكَاءً وراويًا، وتنقلُك إلى منطقةٍ أخرى وهي الإنسان العارف الرائي، الإنسان الكامل، وتصبح قادرًا على الفعل، ويصير الحرف طيِّعًا لك، وتكون ملهمًا وملهمًا، ويتنزَّلُ وحيُّ عليك؛ لأن المرأة التي تعشق، تنتقل من مربِّع المرأة، إلى مرتبة الرِّيَّة، أو سماء الإلهة، وهنا قداسة الحُب، حيث النُّبل والمنح والحرية والحياة الأخرى التي ترجوها، أو كنت تحلم بها وتتمنَّاها.

المرأة توجي، وتُحيي، فالعشق يعيد إلى النفس الحياة بعد موتها، والفعل "أحيا" في اللغة يعني: أخصب، وأشعل وأخرج، وأقام، ونفخ، وولد، وجدّد، وأصلح، والعشق - في مفهومه الأعم الأشمل - إخصابٌ لا انتهاء له للروح والجسد معًا، و"المحبَّة إذا لم تكن جامعة لا يُعوَّل عليها" كما يقول محي الدين بن عربي.

ومثلي لا يُعوَّل على حُب فيه عطفٌ أو إشفاقٌ أو مجاملةٌ، لأن الحُب بين رجلٍ وامرأة ليس من أعمال الخير، وأداء الزكوات، إذ الحُب امتزاجٌ وتفانٍ واتحادٌ وتوحدٌ ووحدانية لا إشراكٌ فيها، وائتلافٌ بعد انصهارٍ وتوافقٍ، والحُب إذا كان شفقةً بالمرأة؛ فهو ضربٌ فاسد، ودرب لا صواب فيه، ولا يمكن اعتباره نوعًا من الحُب، بل هو من أداء الواجب الاجتماعي أو الأسري أو رد دينٍ قديم أو جديد، ولذا لا يمكن لاقتراحٍ كهذا أن يستمر أو يبقى أو يصمُد، ولا يحقِّق طمأنينة أو يخلق أمانيًا يحتاجها الحُب، وتسعى إليه المرأة، خصوصًا التي تجاوزت - مثلًا - سن الأربعين، وصارت ترى نفسها ليست أنموذجًا أو امرأة مُلهمة وقادرةً على الإيحاء والخلق لدى من اقترن بها (عشقًا)، ولن تكون له ربَّة جمالٍ وإلهامٍ، بل إنه سيتكسَّر عند أول خطوةٍ في الحياة، إذ بُني (العشق) منذ البدايات على قاعدة هشَّة

لا أساس لها، ف "العطاء بعد السؤال لا يُعوَّل عليه" كما يقول محي الدين بن عربي، والذي يقول أيضًا: "كل شهوةٍ غير شهوة الحُب لا يُعوَّل عليها".

فالحُب ليس مُجاملَةً بين اثنين، وليس اعترافًا بجميلٍ أدّاه، أو معرُوفٍ صنعه طرفٌ إلى طرفه الآخر، إنه أعلى وأسمى بكثيرٍ من كل ذلك، ومن أي تصوُّرٍ بشريٍّ حسيٍّ أو ماديٍّ؛ لأن "كل جسدٍ لا ينتجُ همَّةً فعالةً لا يُعوَّل عليه" كما يقول ابن عربي، والجسد في حال الاستغلال والابتذال يكون

في مقام الموت، لا يقدر على الفعل، وكل فعل يصدر عنه، هو فعل محذوف ومجزوم وناقص، ولا يمكن تقديره، وليس له محل من الإعراب.

والمُحِب - في حالٍ كهذه - يقترف إثماً لا غفرانَ فيه، ولا توبة، إذا ما ذهب إلى امرأة؛ كي يستغلها لبعض الوقت: كسب جسدي، أو كسب مادي، أو حتى كسب كتابة قصيدة أو رواية أو أي نص آخر، إذ يستخدم المرأة جسراً مؤقتاً؛ ويعتبرها مغامرةً مُحدَّدة الوقت، ومحسوبة بالقلم والورقة، ليعبرَ عليه نحو الكتابة، وكتابة كهذه، هي في ظنِّي ناقصةٌ، وناشفةٌ لا ماء في نسغها، ومبتورةٌ، ولا لزوم لها، وعمرها قصيرٌ، ولا تُغني رُوحاً، ولا تُسمن قلباً عند التلقّي والقراءة، كتابة كهذه هي من النوع القيصري المُبتذل المُتكلف والمصنوع، لأن النفس التي تهيج كي تكتب هي نفسٌ معطوبةٌ، وعاطلة عن المنح، بل عن العمل بالكليّة، وصاحبها ميطوح الرأس، ينتحلُ الحُبَّ، مثلما ينتحل شِعْرَه ولا شعوره، فالمرأة ليست بطّةٌ أو أوزةً ضالّةً في الأزقة أو الشوارع كي نصطادها، لنُدعي الإلهام والفن يشئى أنواعه أو أجناسه، وكما قيل قديماً على لسان ابن عربي: "كل ذهابٍ لا يُفنيك عنك لا يُعوّل عليه".

لا بد أن نكرّس لمفهوم أنّ المرأة ربّة، وحُبها عبادةٌ لها فروضٌ وطقوسٌ ومناسكٌ تُؤدّى. وبالتالي الحُب ليس تابوتاً مقدّساً نُكفّن فيه مشاعرنا المزيّفة أو المحسوبة سلفاً، والمقصود بها المُتعة المؤقتة المشروطة.

وإذا كان الناس يؤمنون بأن الفردَ يغتذي بالماء والغذاء، فمثلي يؤمن أن الإنسان يغتذي وينمو ويسمق بالحُب، وهو عندي أتمُّ وأكملُ غذاء، يُجبُّ كل الأطفمة والأشربة، وهو غذاء إلهيٌّ مقدسٌ، لا يمكن العثور عليه في المتاجر والأسواق أو الصيدليات، ولا يمكن لطبيبٍ أن يصفه إذا ما لجأت إليه . فإذا كنا نؤمن بأن زمن الكرامات والخوارق قد ولى، فأنا أقول بيقينٍ كاملٍ إن الكرامات تحدث، والخوارق تقع بقرّة العشق التي هي عالية، وذات نارٍ لا يمكن قياس درجاتها، من فرط لا نهائيتها وفيضها كمنار بركانٍ فوق جزيرة، أو قمة جبلٍ يشهده الناس جميعاً. وبالعشق يكون الاستحواد، وسريان سُلطة المحبّة، وسلطان المعرفة القلبية المتولّدة عن العشق.

أظن أن المُحِبّ (المؤمن بأن المرأة مصدر وحيه وتجليه) عندما ينظر إلى امرأةٍ اصطفاها قلبه، ويحبُّها حبّاً جمّاً، فكأنه ينظر إلى الجنة، أو هو- في الواقع- في متن فردوسها مُنتشياً فرحاً، ومغموراً في الجلال، ومنقوعاً في الجمال، وسكران بضوء خمرتها، حيث يرى شفيتها باباً للفردوس، مفتوحاً لروحه من دون إغلاقٍ أو موارد، وحيث الوفاء بالوعد، إذ لا مجال لنقض عهود القلوب، وحيث لا تعرف صفحات الكتاب الذي يحمله يمين قلبه الزيف، إذ إن التاريخ الغرامي للعاشق لا بد أن لا يأتيه الباطل في أية ورقةٍ من أوراقه، بعدما أدرك وعين كيف أن ذاته تأثرت بذات من تحب حد التطابق والتوافق، إلى الدرجة التي يفتح فيها العشق باباً واسعاً لأفاقٍ لا حدود للروح فيها، وهنا يبتعد العاشق عن وحدته التي يشعُر فيها بسأمٍ و فراغٍ وملل.

فالحُب بقداسته يسحرُ الألباب، ويفتنُ العقولَ، ويأسرُ القلوبَ، لأن فيه أسرارًا تتكشَّف، وإشراقًا يعلو،  
كلما دنا العاشق من معشوقه.

ولا يوجد مُحِبٌّ حقيقيٌّ يخرج من دائرة عشقه خائبًا خاليًا، بل إنه إذا استمر في العشق أو خرج أو  
أُخرج منه، يصبح ممثلًا، ويصير ناضجًا حد الاكتمال، حيث يتعلم المُحِبُّ في مدرسة المحبُوب،  
ومهما تَكنُّ سنُّ المرأة أصغر أو أكبر من الرجل؛ فإنها قادرةٌ على التعليم، والترميم، وإعادة البناء  
والصياغة، وجعل الرجل يفيد من إخفاقه أو فشله أو أخطائه.

\* \* \*

## لماذا يكذب الناس في العشق؟

فالمراة تنفر – سريعًا – ممن كذب عليها وخدعها وغرَّر بها، وناقها وتزلف إليها، وخلف وعده معها، ومنحها عسلا في شكله، وهو سُمٌّ في منته وحقيقته، وهي أكثر الناس ضررًا من الكذب الذي يُمارس ضدها في الحياة، خُصُوصًا ممن تعشق وتهوى، وكذب القلب عندي أشدُّ قسوةً من كذب اللسان، وإن كان العاشق يكذب لمصلحة قلبه.

لماذا يكذب المرء بقلبه ولسانه وسائر جوارحه، ويُصرُّ مُتعمِّدًا أو لا شعوريًا على الكذب الخبيث في حياته؟

وماذا لو أمسك (الكاذب، الكاذبة) دفترًا ذا صفحاتٍ لا نهائية وسجَّل فيه أهم وأبرز وأكثر كذباته إيلاّمًا وجرحًا وضررًا للآخر، وما أثرها القاتل على من صدَّقوه، وصدَّقنه ممن حوله، أو ممن ارتبط بهم أو بهن قلبًا وروحًا وجسدًا، وكم دَمَّر من أنسجةٍ في قلوب وأرواح هؤلاء، وأتلف نفوسًا وأضاعها، وأغرقها في بحورٍ ممن أوهام كذبه؟

وهل الرجل أكثر كذبًا من المرأة، أم أنهما متساويان، أم أن أحدهما يتفوق على الآخر بما امتلك من حيلٍ وأقنعة وأحابيل وأباطيل وطرائق في الإقناع والإيقاع والتكسُّب والتقرُّب والتودُّد والتفتُّع والتكُلف والادِّعاء والتخفي والغمُوض والتسترُّ والابتعاد قصيًّا عن ماء نهر الصدق؟

وما شكل الحياة من دون وجود الكذب نائمًا على سريرها الواسع؟

وما الضير لو أن الإنسان قال الصدق وفعله، وليس سواه، وأن يكون صريحًا؛ لأن الصراحة أخت النقاء، الذي لاشائبة فيه، ولا يهم ما ينتظره من آثارٍ أو عواقب لقوله الصدق؟

ومثلي عاش بين كذابين كثيرين في الحياة، خُصُوصًا في مجالي الصحافة والأدب، وهما المجالان اللذان عشتُ حياتي كلها فيهما، إضافةً إلى مُعاملاتي الإنسانية التي أنت تاليةٌ ومتعلقةٌ معهما، وأخصُّ بالتحديد: المرأة. فالمرأة تنفر – سريعًا – ممن كذب عليها وخدعها وغرَّر بها، وناقها وتزلف إليها، وخلف وعده معها، ومنحها عسلا في شكله، وهو سُمٌّ في منته وحقيقته، وهي أكثر الناس ضررًا من الكذب الذي يُمارس ضدها في الحياة، خُصُوصًا ممن تعشق وتهوى، وكذب القلب عندي أشدُّ قسوةً من كذب اللسان، وإن كان العاشق يكذب لمصلحة قلبه (لا ضير في كذبةٍ توصِّل إلى الحق، كما يقول المثل الإنجليزي)، وهذا لا يعني أن النساء لا يمارسن كذبًا على عشاقهن، فالكذب والمُماطلة والمُساوفة من طرفهن عدوانٌ على نفوس عشاقهن، وبطشٌ مارسنه ضد من كانوا كرماء معهن بقلوبهم وأرواحهم، والمرأة الكاذبة – عادةً – ما تدَّعي أنها مشغولةٌ، وليس لديها وقتٌ

لتنفقه في الذهاب والمجيء من أجل الحُب، وهي هنا قصيرة المدى، ضعيفة القوى، ولم تكن صادقة من الأساس، وأنا أعد الكذب والضلال في الحُب هو الأسوأ، والأكثر ضراوةً وتوحُّشًا بين أنواع الكذب، لأنه يصيب النفس في مقتل، وفي "سِفْر الأمثال" من التوراة نقراً: "لَا تَخْتَرِعْ شَرًّا عَلَى صَاحِبِكَ، وَهُوَ سَاكِنٌ لَدَيْكَ أَمِنًا. لَا تُخَاصِمُ إِنْسَانًا بِدُونِ سَبَبٍ، إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ صَنَعَ مَعَكَ شَرًّا. انْزِعْ عَنْكَ الْتَوَاءَ الْفَمِّ، وَأَبْعُدْ عَنْكَ أَنْجِرَاتِ الشَّفَتَيْنِ"، وهي "كناية جميلة عن الكذب، والزهو، والغرور" كما يذكر الدكتور محمد مهدي علام، وجاء في المزمور الرابع والثلاثين: "صُنْ لِسَانَكَ عَنِ الشَّرِّ، وَشَفَتَيْكَ عَنِ التَّكْلِيمِ بِالْغَيْشِ". وفي الإصحاح السابع من إنجيل متى نقراً: "إِحْتَرِزُوا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَذِبَةِ الَّذِينَ يَأْتُونَكُمْ بِثِيَابِ الْحَمَلَانِ، وَلَكِنَّهُمْ مِنْ دَاخِلٍ ذُنَابُ خَاطِفَةٌ، مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. هَلْ يَجْتَنُونَ مِنَ الشُّوكِ عِنَبًا، أَوْ مِنَ الْحَسَكِ تِينًا؟، هَكَذَا كُلُّ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تَصْنَعُ أثمارًا جَيِّدَةً، وَأَمَّا الشَّجَرَةُ الرَّدِيَّةُ فَتَصْنَعُ أثمارًا رَدِيَّةً، لَا تَقْدِرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصْنَعَ أثمارًا رَدِيَّةً، وَلَا شَجَرَةٌ رَدِيَّةٌ أَنْ تَصْنَعَ أثمارًا جَيِّدَةً، كُلُّ شَجَرَةٍ لَا تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقَطَّعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ، فَإِذَا مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ".

وبالحدس - وليس سواه - يستطيع المرء كشف كذب المرأة التي يحب، وعليه أن يصبر عليها مرةً واثنين وألفاً، وإن لم تتحول إلى الصدق، عليه أن يصمت عنها ويسكت، وأن يفر منها؛ لأن مثل هذا النوع من النساء عمره قصيرٌ، وخطره حقيقٌ في الحُب والحياة، وغير جدير بأن يُفكر فيه، أو يُيكي عليه، أو يُلام، أو يُؤنب، وليس عليه حرجٌ، وإثمُه هو إثم الندم، وتعذيب الضمير، لأنه حتمًا سيدرك ما فعلت نفسه بعد أن يكون قد فات الفوت، وراح الأوان، وأن يشكر خالقه أنه نجا من المهالك. وإن كنتُ أعرف أن حُزن العاشق على المعشوق لا يساويه حُزنٌ، وهو عندي كما قال ضِرَارُ الصُّدَائِيّ في حديثه مع الخليفة مُعَاوِيَةَ بن أبي سفيان حول علي بن أبي طالب: "حُزْنُ مَنْ ذُبِحَ ولدها وهو في جُرحها".

وصرتُ أكره خصلتين في الإنسان وهما: البُخل والكذب، ولا أجد أسوأ منهما خِصَالًا، حتى أمنتُ بأنهما صفتان مقرونتان ببعضهما، لا ينفصلان، ولا تنقطعان، أو تنفرطان. فالكذب أسلوب الضعيف الفارغ الذي لا حيلة له، في مواجهة الصّادق الذي صار غريبًا في هذه الحياة، كأنه صار من الكائنات المنقرضة التي ينبغي أن نحميها من عوامل الطبيعة، وخصوصًا السرقة.

والكذب لا دين له ولا ملّة، ولا جنسية له أو مكان، فهو كالهواء موجود أينما كنت، وأسوأ الكذابين هم المزورون، والمفترون الذين يخلقون القصص والحكايات التي لا وجود لها ولا أصل، وهؤلاء لا دين لهم أو ضمير وهم ضعاف النزعة الدينية.

وما إن أستشعر كذبًا أو مُراوغةً أو مُلاوغةً أو تأجيلًا أو مُساوفةً (التسويق يسرق الوقت، ويقصّر العمر، وأقصر دليلٍ وأوضحه على الكذب)، أو مُماطلة ممن تحب أو تصادق أو حتى تزامن.

والحديث النبوي يقول: "كَبُرَتْ خِيَانَةٌ أَنْ تُحَدِّثَ أَحَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ"، لأن من تحادثه يبني بناءه المادي أو الروحي بناءً على ما قلت له، فإذا كان حديثك كذبًا فسيتهاوى

البناء وينهار وتتكشف حيلك وأكاذيبك، وإن كان صدقاً فسيبقى البناء مرصوصاً و متماسكاً، لا يصيبه الباطل من أية جهة.

ومن عاداتي عندما أهتم بأمرٍ، أن أجمع كلَّ ما يتعلق به من كتبٍ أو مقالاتٍ مُحكَّمةٍ أو دراساتٍ وبحوثٍ أكاديميةٍ؛ كي أحيط بهذا الأمر من كل جوانبه اللغوية والفلسفية والنفسية والاجتماعية والدينية والروحية.

وخلال عامين اقتنيتُ كتابين حول الكذب هما: «تاريخ الكذب» لجاك دريدا ( 1930 - 2004 ميلادية)، و "فلسفة الكذب" لمهدي محمد علّام (1900 – 1992 ميلادية)، إضافةً إلى دراساتٍ عديدةٍ أخرى في الكذب وعنه، ولعلَّ من أكثر ما صدمني قول ابني الأوحد أحمد (17 سنة وقد تربَّى ونشأ في الولايات المتحدة الأمريكية): إن المصريين كذبة، وإن الصداقة الحقيقية بين من عرفتُ معدومة، وإنه يجد صعوبةً في التعامل مع من اقترب منهم، أو زاملهم لبضعة أشهر، ولذا سرعان ما يحب العودة إلى أمريكا التي هي الأخرى أرض الاستغلال والاستعمار والسرقة والخطف والكذب والتعالي وازدراء الآخر، حتَّى ولو كان يحمل الجنسية الأمريكية، وصار ابني مُورِّعاً تائهاً بين وطنين وثقافتين، أي إنه يعاني كذباً أينما ولَّى وجهه، وصار هو الآخر يُراوغ؛ كي يتعامل مع من يقترب منهم خلال وجوده في بلده مصر.

أما القول الآخر الصادم فهو: "إن التمسُّك بقول الصدق فضيلةٌ أندر من الكبريت الأحمر في مصر الحديثة"، وقد ذكره صاحبه المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لين (1801-1876 ميلادية)، والذي عاش سنواتٍ في مصر حاملاً اسم "منصور أفندي"، وهو من ترجم كتاب (ألف ليلة وليلة) إلى الإنجليزية، وجاء قوله هذا في كتابه الشهير "العادات والأخلاق في مصر الحديثة" أو "أخلاق المصريين المعاصرين وعاداتهم، الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1835 ميلادية.

إن الحُبَّ يتعمَّق ويتعمَّق ويسمَّق وترتفع درجته بالصدق والثقة والصراحة، وليس بالملاوغة والمُمانعة والمُراوغة والكذب، والكلام الشفهي الشَّهي الذي لا يتصل بواقع حال من خرج منه، والخالي من فعلٍ أو ممارسةٍ أو تحقيق الوعود، وكل حُبِّ تخبو ناره، اعلم أن الكذب وراء انطفاء جذوته، فمن أركان العشق الصدق.

وأذكر أن امرأةً كانت قد أرسلت إلى عاشقها في إحدى المناسبات – التي لا بد فيها من تطيب الخاطر وجبره - رسالةً خطيَّةً قصيرةً مع خادماتها، قبل اختراع الهواتف ووسائل التواصل الحديثة، ذكرت له فيها :

"أحببتك وأحبك وسأظلُّ،

كلُّ لحظةٍ وأنت اكتمالُ دائرتي وأمانِيَّ" ..

وكانت هذه الرسالة بعد انقطاع دام طويلا من جانبها (لقاءً وكتابةً)، وكانت الخادمة في عجلة من أمرها فأبقاها، وقال لها: انتظري خُذي جوابي معك إلى سيدتك، وفي سرعةٍ وانفعالٍ كتب، كأنه كان يحفظ ما تخطه يميناه:

"مرت سنة وأزيد ولم أرك، هل تذكرين الدكان الذي على ناصية شارعنا؟ لقد تغير اسمُه وامتلكه آخر؟

هل تذكرين النخلة المجاورة لبيتي، لقد طالت وطرحت، ومن المؤكد أنها تسأل عنك؟

هل تذكرين النجم الذي كان يهديك وأنت عائدة ليلا، وقد تاه منك، لقد ظهر من جديد، ولم ينم منذ غيابك منتظراً مجيئك؟

هل تذكرين بيتي، لقد سكنتُ آخر كنتُ أحلم به؟

هل تذكرين القط الصغير الذي كنت تلاعبينه، لقد صار يُحبلُ قَطَط الزوّار والجيران لندرة سلالته؟

هل تذكرين ملامحي، لقد غيرَها زماني، ولستُ متأكداً من أنك لو قابلتني، ستعرفيني أم لا؟

هل وهل وهل... أظنني أعرف ما الحُب؟ وأنت تعرفين أكثر مني ما معنى أن امرأةً تعشقُ؟ "

صرف الخادمة لكنه قرر أن يكمل ما كتب:

"إن أنوثة المرأة تقلُّ إذا كذبت، وتقلُّ - أيضاً - رجولة الرجل إذا كذب؛ لأن الكذب ليس غريزة إنسانيةً، ولكنه مرض مزمن يصعب علاجه.

ليس لكذابٍ رأيي، وقيل في زمن قديم لأرسطو: ما كسب الكذابين؟ قال: عدم تصديقهم في شيء، وإن وافقوا الواقع".

وفي صياغة أخرى "الكذابون خاسرون دائماً، ولا سيما أن أحداً لا يصدقهم حتى ولو صدقوا".

وجاء في كتاب الأدب الكبير لابن المقفع: "إن الكذاب لا يكونُ أخاً صادقاً؛ لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما هو من فضولِ كذبِ قلبه، وإنما سمي الصديقُ من الصدق، وقد يتهمُ صدق القلب وإن صدقَ اللسان، فكيف إذا ظهرَ الكذبُ على اللسان؟".

ومن فرط تكرار الكذب - الذي هو عندي باطلٌ ومُنافٍ للحقيقة - والتلذُّذ به من الكذابين الذين عرفتهم في حياتي، صار صدقهم عندي كذباً، خصوصاً أن الكذب جُبِن، وسعي وراء مال أو منصب، وهو أبغض الأخلاق، وهؤلاء يأمرّون الناس أو يطالبون بالصدق وينسون أنفسهم، فعن عائشة بنت أبي بكر قالت: "ما كان خلق أبغض إلى النبي محمد من الكذب، ..."، "لأنني لم أعود منهم ذلك الصدق أبداً، وقديماً قال أرسطو (384 - 322 قبل الميلاد): إن "الموت مع الصدق خيرٌ من الحياة مع الكذب".

ومشكلة الكذاب أنه كثيراً ما يُصدِّق نفسه، على الرغم من تيقنه أنه كاذبٌ، لكنه دوماً لا يصدِّق من حوله ممن يعرف أو لا يعرف، إذ إنه اعتاد الكذب عليهم بسبب شتى، وطرائق مختلفة. وأغلب الكذابين يفتشون في نسج كذب يقنعون به غيرهم، ولذا أرى أن الصدق هو الطريق الأسهل والأيسر لأي إنسانٍ يبتغي الراحة والهدوء والسكينة في حياته؛ لأنه لا يتطلب مجهوداً ذهنياً من صاحبه، وحبكة قصصية فيها الكثير من الدراما، إذ - كما يقول المثل الشعبي السائر: "الكذاب نسائي"، أي إنه سيقع بلسانه هو، ويكشف كذبه، وسيصبح صغيراً أمام نفسه قبل أن يكون صغيراً أمام الناس، كما أن فعله وسلوكه سيفضحانه أمام من كذب عليهم؛ وقد قيل: "إن كنت كذوباً فكن ذكوراً"؛ لأن الكذب لا أرجل له، إذ هو أعرج من فرط عريه من الحقيقة.

لكنتني مع الصمت والمُدارة وحفظ الأسرار، و"الكذب" لإنقاذ من نُحب، أو كي لا نفسد حياة إنسانٍ بقول الحقيقة في وجهه، وهو ما يطلق عليه عامة الناس (الكذب الأبيض) أو (الكذب النافع)، أو (الكذب المباح) أو (الكذب الاضطراري)، أو (الكذب الرسمي)، أو (الكذب لعذر)، وتلك التسميات تعود إلى شعوبٍ مختلفة، هي من "اخترعت" تلك الحُجج والأعذار؛ كي يُمرّر الناس الكذب في أحوال "لا بد" فيها من إباحة الكذب وممارسته؛ بهدف الإصلاح، ودفع الضرر، خصوصاً في أمور العلاقات الإنسانية، وبخاصة بين رجلٍ وامرأة، حيث يضطرّ الرجل إلى الكذب؛ كي لا يقع الفراق، ويقع الخراب بين رُوحين، حيث يحدث الرجل امرأته ليرضيها، و"ليس بكذابٍ من أصلح بين اثنين".

وبشكل عام فإن الحقائق تهزم الأكاذيب شرّاً هزيمة، لأن الأصل في الإنسان هو الصدق في القول والفعل على حدٍ سواء، وليس شيئاً سواه، أو أن يوافق الفعل القول؛ لأن الصدق كما يقول الجاحظ هو ما طابق الواقع والاعتقاد.

وقد ذهبت إلى اللغة لأستقصي معنى الكذب، فرأيتُ في القواميس والمعاجم الحديثة والقديمة. "كذب الشَّخْصُ: أخبر عن الشَّيء بخلاف ما هو عليه في الواقع، مع العلم بحقيقته وواقعه، وهو من المُحَرَّمات"، ولا يجوز الكذب حتى لو كان بقصد المزاح، عكسه صدق.

مَنْ كَذَبَ فِي حَبِّهِ صَدَقَ فِي كَرِهِهِ، لَا يَكْذِبُ الْمَرْءُ إِلَّا مِنْ مَهَانَتِهِ... أو عادةِ السوءِ أو من قَلَّةِ الأدبِ: ﴿عَلَىٰ لَيْفٍ كَذُورٌ وَوَوُؤٌ﴾ [سورة يوسف: آية 27]، ﴿لَنْ تُدْذِبَهُمْ بِهِ﴾ [سورة الزمر: آية 3]، ﴿ذُذُّ ذُذُّ ذُذُّ ذُذُّ﴾ [سورة غافر: آية 28].

عمود الكذب البهتان، إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ [حديث].

أجنحة الكذب قصيرة، حبل الكذب قصير : لا يدوم وسرعان ما ينكشف، - هذا كذب صُراح).

وقد وردَ الصِّدْقُ في القرآن الكريم بمشتقَّاته في (127) موضعًا، وورد لفظ الكذب في القرآن الكريم في (251) موضعًا، وجاءت (280) آية في القرآن تبين عواقب الكذب.

ولو عدتُ إلى التاريخ القديم أو الحديث، سأجد أن أولي الأمر من الحُكَّام والولاة والأمراء والخلفاء والملوك والفقهاء والأئمة قد مارسوا الكذب مراتٍ عديدة على شعوبهم، أو على الأقل لدى كل واحدٍ منهم قدرٌ من الكذب حتى على النفس، وكَم من كذباتٍ أضاعت بلدانًا وأسقطتها.

ومهما يكنُ فالكَذِبَةُ (وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ)، لأن الكذب هو أسُّ الأذى والنقائص والردائل، ورأس الذنوب والوجائع جميعًا، ومكمن الغدر والخديعة واستغلال الصدق والثقة والوفاء والأمانة، حيث إن الإنسان المؤمن - كما جاء في الحديث - يمكن أن يكون بخيلاً، أو جبانًا، لكنه لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يكون كذابًا، ولم يحدث لي أن صادفتُ كذبةً قد عمدتُ طويلاً، إذ عمر الكذب قصير، ويموت دائماً في سن مبكرة: ﴿بِكَ كَبِّ كَبِّ كَبِّ كَبِّ﴾

[سورة غافر: آية 28]. وأصاب عمر بن الخطاب حين قال قولته الشهيرة: "لأنَّ يَضْعِي الصِّدْقُ - وَقَلَّمَا يَفْعَلُ - أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرْفَعِي الكَذِبُ - وَقَلَّمَا يَفْعَلُ"، وقال علي بن أبي طالب: "قد يبلغ الصادقُ بِصِدْقِهِ، مَا لَا يَبْلُغُهُ الكَاذِبُ بِأَحْتِيَالِهِ". وفي الإصحاح الثالث والعشرين من سفر الخروج في التوراة نقراً: "لَا تَقْبَلْ خَبْرًا كَاذِبًا،

وَلَا تَضَعْ يَدَكَ مَعَ الْمُنَافِقِ لِتَكُونَ شَاهِدَ ظُلْمٍ، ابْتَعِدْ عَن كَلَامِ الكَذِبِ، وَلَا تَقْتُلِ الْبَرِيءَ وَالْبَارَّ، لِأَنِّي لَا أُبْرِرُ الْمُذْنِبَ".

ما رأيت منفعة قط من وراء كذب، وإن أنت فسرعان ما تذهب جفاء، لأن ما يقام ويتأسس على الكذب لا استمرار فيه ولا ديمومة، فلا وفاء لكذوب، والكذب مرض يصيب الإنسان، ولا بد من علاج له ودواء.

لَا يَكْذِبُ الْمَرْءُ إِلَّا مِنْ مَهَانَتِهِ..

أَوْ عَادَةَ السُّوءِ أَوْ مِنْ قِلَّةِ الْأَدَبِ.

"الصِّدْقُ مُنْجِيكَ وَإِنْ خِفْتَهُ، وَالْكَذِبُ مُرْدِيكَ -مُوقِعُكَ فِي الْمَهَالِكِ- وَإِنْ أَمَنْتَهُ." و"مَنْ اسْتَحْلَى رِضَاعَ الْكَذِبِ عَسَرَ فِطَامُهُ". وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أَعْظَمُ الْخَطَايَا الْكَذِبَ، وَمَنْ يَعْفُ اللَّهَ عَنْهُ". وَرَوَى عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: "الْكَذِبُ لَا يَصْلِحُ مِنْهُ جِدٌّ وَلَا هَزْلٌ". وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: "الْكَذِبُ فَجُورٌ، وَالنَّمِيمَةُ سِحْرٌ، فَمَنْ كَذَبَ فَقَدْ فَجَرَ، وَمَنْ نَمَّ فَقَدْ سَحَرَ"، وَقَالَ الْأَحْنَفُ: "مَا خَانَ شَرِيفٌ، وَلَا كَذَبَ عَاقِلٌ، وَلَا اغْتَابَ مُؤْمِنٌ. وَكَانُوا يَحْلِفُونَ فَيَحْنَثُونَ، وَيَقُولُونَ فَلَا يَكْذِبُونَ"، وَقَالَ أَيْضًا: "اِثْنَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ أَبَدًا: الْكَذِبُ وَالْمُرُوءَةُ"، وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مَيْمُونٍ: "مَنْ عُرِفَ بِالصِّدْقِ جَازَ كَذِبُهُ، وَمَنْ عُرِفَ بِالْكَذِبِ لَمْ يَجُزْ صِدْقُهُ".

\* \* \*

## العاشقُ الحقُّ من نطقِ حاله نائِبًا عنه

اللغة بكل ما تحمل من جواهر، غير قادرةٍ على أن تستوعب تعبيرَ عاشقٍ واحدٍ نحو معشوقه، ولذا فهي - بثرائها - قاصرةٌ عن حمل المشاعر والانفعالات، فالعشقُ أجلُّ وأقدسُّ من الحرف؛ الذي هو وعاء التعبير، ومن المستحيل التعبير عنه بالكلام، لأنَّ العشقَ يُعاشُّ ولا يُقالُ أو يُكتبُ، وإذا ما حاول عاشقٌ أن يعبِّرَ فسيكون تعبيره مُجرَّدَ مُقارِبَةٍ للحال التي يكون عليها العاشقُ أو فيها.

"بين النطق والصمت برزخٌ فيه قبر العقل، وفيه قبور الأشياء".

النقري.

فاصمت لتعرف، وتدرک من أنت، ومن تكون في هذه الدنيا، فقلبك كهفك الممتلئ أسرارًا، ومن عاش العشق جاز له الصمت.

ويجوز لي أن أقول إن: ما للعشاق كلامٌ، لأنَّ لسان القلب جَلٌّ عن النطق، والعاشق الحق من نطق حاله نائِبًا عنه وهو صامتٌ، فالعين حين تنطق، يسكت الحرف، لأنَّ العين أبجديةٌ وحدها.

فأهل العشق أصحابُ حدوسٍ وإشاراتٍ ورموزٍ ووارداتٍ وشطحات، والصمتُ صعبٌ، خصوصًا أن الإنسان بطبعه حيوانٌ ناطقٌ - كما يقول الفلاسفة وأهل المنطق - لا يقدر عليه إلا أهل المحبة والمعرفة والإشراق، والواصلون من الناس الروحانيين، الذين يذهبون إلى أقاصي الأشياء وذرواتها.

واللغة بكل ما تحمل من جواهر، غير قادرةٍ على أن تستوعب تعبيرَ عاشقٍ واحدٍ نحو معشوقه، ولذا فهي - بثرائها - قاصرةٌ عن حمل المشاعر والانفعالات، فالعشقُ أجلُّ وأقدسُّ من الحرف؛ الذي هو وعاء التعبير، ومن المستحيل التعبير عنه بالكلام، لأنَّ العشقَ يُعاشُّ ولا يُقالُ أو يُكتبُ، وإذا ما حاول عاشقٌ أن يعبِّرَ فسيكون تعبيره مُجرَّدَ مُقارِبَةٍ للحال التي يكون عليها العاشقُ أو فيها.

وبيننا من يُظهِرُ ومن يكتُم . من يُصغي ومن ينطق، والحلاج ( 244 - 309 هجرية / 858 - 922 ميلادية ) يقول:

لِيَكُنْ صَدْرُكَ لِلأَسْرَارِ حِصْنًا لَا يُرَامُ

# إِنَّمَا يَنْطِقُ بِالسَّرِّ وَ يُفْشِيهِ اللَّئَامُ

وابن أهل العشق يعرف متى يبوح (حيث لا خوف ولا حرج) ومتى يصمت، وما بين البوح والكتمان قُتِلَ كثيرون، وجُنَّ عقلاء لا حصرَ لهم، قتلهم عشقهم، فاعرف متى تقول، ومتى تسكُت، ومارتن هيدجر (26 من سبتمبر 1889 - 26 من مايو 1976 ميلادية) يقول إن: "اللغة أخطر النعم".

والصمت ليس الطريق الأيسر للنجاة من الكلام، وليس البُعد عن الشر، ودرء الخطر، أو الابتعاد عن الموت المُحدِّق بك، والهروب من المواجهة، وليس هو السياحة القصيَّة في فيافي صحراء النفس الحيرى المُتعبة المثقلة بأوجاعها، وليس هو الخوف من سطوة الحُب، أو سلطة السياسة.

فعندما تكون مأسورًا أو مجذوبًا؛ وفي حال سُكْرِ وانتشاء وشطح؛ فالصمت أفيد وأكثر تعبيرًا عن حالك السرية في تجليات كتمانها، ولست في حاجة إلى كلام، ويتحول اللسان إلى فاعلٍ أو كذا تتحول الشفتان إلى جنة لا عرض لها ولا طولَ من فرط بلاغتها، وجاذبية مجازاتها، وتكون بابًا للمعراج، وفتحًا للبوح الصامت المتكلم، يقول السَّهروردي المقتول (545 - 586 هجرية / 1155-1191 ميلادية):

وَ رَحْمَةً لِلْعَاشِقِينَ تَكَلَّفُوا

سِتْرَ الْمَحَبَّةِ وَالْهَوَى فَضَاخُ

بِالسَّرِّ إِنْ بَاحُوا تُبَاخُ دِمَاؤُهُمْ

وَكَذَا دِمَاءُ الْعَاشِقِينَ تُبَاخُ

وَإِذَا هُمْ كَتَمُوا تَحَدَّثَ عَنْهُمْ

عِنْدَ الْوَشَاةِ الْمَدْمَعِ السَّقَاخُ

لَا ذَنْبَ لِلْعُشَّاقِ إِنْ غَلَبَ

الْهَوَى كِتْمَانُهُمْ فَنَمَا الْغَرَامُ فَبَاحُوا

مَنْ بَاحَ بَيْنَهُمْ بِذِكْرِ حَبِيبِهِ

دَمَهُ حَلَالٌ لِلسَّيُوفِ مُبَاخُ

و" طول الصمت " فضيلة لا يقدر عليها أغلب الخلائق، لأنها من أساس بنيان الإنسان، وقوة أركانه.

فالصمت يُوجي، ويجلُّ صدأ الرُّوح، ويلقِّح العقل، وانشغال واشتغال بذكر من تعشق؛ لأن الكلام يشغل قلب العارف المُحب عمَّن وعمَّا سوى محبَّوبه.

وفي العزلة والخلوَّة يسهُل الصمتُ.

وبالحُدُس يدرك الإنسان ما لا يُدرك، والصمت أداة الإدراك، فيمكن لي أن أجلس أمام امرأةٍ أعشقها، وأظلل ساعةً أو ساعات أو يومًا أو أيامًا في حضرتها، ومن دون أن يكون هناك كلامٌ فأبصر باطنها، وأقرأ كتابها، وأعرف مجهولها، وأفك أسر أسرارها، وهذا ما يمكن تسميته بالصمت الإيجابي الفاعل، أما الصمت السلبي فهو خوفٌ، وانسحابٌ، وجبنٌ، وارتعادٌ، واحترازٌ، وحرصٌ، ونفاقٌ خشيّة خسران المكاسب، والفهم بالحُدُس عند المُحبِّين العارفين يكون بالصمت الذي يتم به إدراكُ بحر الحقائق، والوصول إلى السواحل التي لا نهاية لها.

والصمت منحةٌ وليس محنةٌ.

وتعسُّ هو المثرثر، كثير الكلام، والناطق يخفي باطنه، بينما الصامت يكشف جوهره، يتكلم ويبوح بما أوتي من علاماتٍ وفيوضات.

والطريق إلى مشاهدة رُوح من تهوى؛ يكون بتكرار الصمت وعدده الذي يزيد على عدد أنفاسك، وبالصمت يستطيع المرء أن يرى بقلبه، ويعرف، ويُقرّر، ويُحلّل، ويُسائل، ويستجوب، ويُصغي إلى صوت نفسه السري، ويُنصت، ويستقرئ، ويتعمّق، ويزن الأمور وبعد ذلك يمكن له أن يأخذ خطوةً نحو المحبوب؛ ليدرك أين مكانه، هل هو في الزائد أم في الناقص، هل هو في الحُب أم في اللاحُب، في نار الوهج أم في رماد النهايات، في التأجج أم في الانطفاء؟

الصمت - الذي هو ابن الحكمة والعُمق - مرتبةٌ لا يصل إليها كل إنسان، إذ هو معرفةٌ، والمعرفة لسان الناطق صمتًا بالعشق، ومن يتكلم في حال كهذه يخرج من المقام، وهو سلطةٌ عندما لا يكون انسحابًا ومطًا وتملُّصًا من دَيْن أو حُب، لأن حظ النفس التي تنسحب من العشق يبقى قليلًا ولا يزيد أبدًا، بل ينقص إلى درجة الصفر أو العدم، كما أن النفس تعيش في تشوُّش وانقسامٍ وشعورٍ دائم بالذنب، خصوصًا إذا كانت النفس قد فارقت ما لا يمكن مفارقتَه لحسن صفاته، وعظيم سماته. والصمت هنا في هذه الحالة بدلا عن أن يخلق سكينَةً، ويبعث طمأنينةً وراحةً؛ نجده يؤرِّق، ويحرق، ويحرق الضمير، ويكوي النفس بنار الوجد والندم والتحسر، ويصيبها بأمراض لا أسماء لها، عدا عن الأحلام والكوابيس التي تلازم الصامت عن الحُبِّ، وهو عندي هاربٌ، ولا ديةً له في رقبة أحد، أو في عُرفٍ أو تشريعٍ.

والصامت عن الحُب مُتحوّل القلب، أو مُستغنٍ، أو هو لم يَكُن في الأساس في حالٍ عشقٍ، بل في حال احتياجٍ جسديٍّ لا أكثر، والذي سرعان ما يزول أو يخبو حتى مهما تكن المدة الزمنية، لأن ما هو جسديٌّ يفنى ويذهب سريعًا، بينما ما هو عشقيٌّ يبقى ويكتب له الخلود والديمومة، إذ الصمت محوٌ وحذفٌ وقطعٌ ما كان موصولًا.

فالصمت باطنٌ، ووصلٌ، ووصولٌ؛ لأنه يدخل بصاحبه إلى اللامحدود واللامنتهى ، بينما الكلام ظاهرٌ وحجابٌ وإخفاءٌ، وأعمق الكتابة عندي هي الكتابة الصامته التي تشي وترمز وتوحي دون ثرثرةٍ وشرحٍ وزوائد . وقديما قال النفري: "إذا تكلمت فتكلم، وإذا صمتت فاصمتت"، أي إن للكلام جماليات وأصولًا، والصمت أيضًا، وعلى المرء أن يكون نفسه لا غيره حين يصمت أو يتكلم فـ "أحمدُ البلاغةِ الصمتُ حين لا يُحسُنُ الكلام".

أنصت لتعرفك وتراك وتدرّك أيها الجاهل بأسرار رُوحك؛ لأن الأقوال في الأحوال أسرى، ورِدِّ مع أبي العباس بن عطاء من علماء القرن الرابع الهجري المتوفى سنة 309 هجرية قوله:

إذا أهل العبارة ساءلونا..

أجبناهم بأعلام الإشارة.

\* \* \*

## المحرّمون من حروف الجرّ

لو أن هناك صدقًا في الحُب، ما وقع فراقٌ، وما حدث خصامٌ، و ما جرى انفصالٌ، وما تمّ وداعٌ، و ما حصل هجرانٌ بين محب ومحبوب.

ومن الخصال الأساسية في معاملة المحبّوب الصدق معه، أقصد صدق القلب، قبل صدق اللسان .  
والعاشق الحق لا يسلك شيئاً  
لا يكونه، أو يعبر عن كُنه حاله.

ليس العشق جديرًا بأي إنسان يقف عاجزًا ضريراً أصم أمام بابه حينما يُفتح ويعرض كنوزَه وأسراره، ولا يدعي حائرٌ أحقّ عابر كنوب بائع للكلام معرفته به، والاتحاد معه، على الرغم من أنه مُتاحٌ ومُباح وموجود على عدد أنفاس البشر.

لكنني أحن عندما أجد من لا يحفظه، ولا يحافظ عليه بالرعاية والعناية والسقاية والرباية، إذ العشق كائنٌ حي، لا يدركه إلا الإنسان الكامل، المخلوق على صورة خالقه: (پ پ پ ث ث ذ) [سورة التين: آية 4] ، وليس موضوعًا معنويًا نرّده في مجالسنا وأحاديثنا، وإذا أُسيئت معاملته يمرض ويهرب ويختفي، ولا يموت، لكنه يحيا في مكانٍ آخر مع بيتٍ ثانٍ يستحقه ويستطيع إيواؤه وإكرامه وجبر خاطره والعلو به والارتفاع معه.

لو أن هناك صدقًا في الحُب، ما وقع فراقٌ، وما حدث خصامٌ، و ما جرى انفصالٌ، وما تمّ وداعٌ، و ما حصل هجرانٌ بين محب ومحبوب.

ومن الخصال الأساسية في معاملة المحبّوب الصدق معه، أقصد صدق القلب، قبل صدق اللسان .  
والعاشق الحق لا يسلك شيئاً  
لا يكونه، أو يعبر عن كُنه حاله، (فما تمّ إلا الصمت والعشق ناطق)، فأفة النفس الكذب، وهو آفة تدمُّها الأعرافُ والتقاليد والعادات والشرائع في كلّ الثقافات والحضارات والديانات؛ لأنها تؤدّي إلى المهالك والمهاوي.

وإذا افترضنا أن العشق عشرة أجزاء، فتسعة منها الفرار من الكذب، ويتبقى واحدٌ هو عندي الصدق الذي ينجي ويعلي المكانة، ويوسّع المكان .

حيث إنّ الصدق في العشق مفتاح القلب، وباب النفس، ومدخل الروح، وساحل الجسد.

وعندما يكذب المرء في العشق، ويقضي أيامه في مُراوغة من يحبُّه، والتملُّص منه بخلق الحُجج والأعدار الواهية والمختلقة يلجأ إلى الصمت، والصمت هنا ليس فضيلةً ولا فريضةً، بل هو هُرُوبُ العنكبوت من بيتٍ كانت قد نسجته بالحُب أو بادِّعائه.

وكان الأعمش وهو من الطبقة الخامسة من طبقات رُواة الحديث النبوي، ولد في عام 61 هجري وتوفي في عام 147 أو 148 هجري يقول: "من الكلام كلامٌ جوابه السُّكوت"، بمعنى أنه من غير المفيد السَّعي من جديدٍ وراء امرئ نأى وابتعد، حتى لو لم يعلن ذلك، ولكن سلوكه يقول ذلك وأكثر، والهارب يؤثِّر السُّكوت والصَّمت، لأنه حائرٌ وقَلِقٌ ومُراوِغٌ ومُؤدِّ دون أن يدرك فعلته أو غير مُراعٍ للآخر، وهو هنا – في الحقيقة – مغلوبٌ وليس غالبًا، لا أثر له ، ولا خبر عنه، لم يعش بوجوده، وكانت سرايين قلبه، وشُعَب رثتيه الهوائية مسدودة منذ البداية، لكنَّ سرايين جسده هي التي انفتحت؛ فلمَّا امتلأت وشبعت، ذهب ماضيًا نحو وجهةٍ أخرى لتشيعة، والموت في الحال هو مآل هذا الصنف من البشر، حتى لو عاش جسده عمرَ نوحٍ، لأنه سيعيش بلا قلبٍ أو رُوحٍ تشعُر وتحسُّ، ولم يكن هناك تماهٍ مع الحق والحقيقة، وقرر الخروج من دائرة الحُب التي نسجها، ثم قرَّر الانسحاب والخرس، والصمت هنا هو خرسٌ أكثر منه تأمُّلٌ وزُهْدٌ وعرفانية، وما الدواء لحالة كهذه إلا نسيان الأمر، والفرار من محيطه، والاحتراز منه بالابتعاد والاعتزال، ونفض اليدين من شخصٍ يأتي بأفاعيل كهذه، بل أرى أن صنيعًا كهذا كأنه "المنقذ من الضلال"، ضلال الكذب والمُراوغة، فلا إجبار لدى من يحب لأن يجاوز "حد الاختيار إلى الاضطرار"، الاضطرار إلى انتظار من لن يأتي، الذي صار في عداد من يتعمَّدون إيذاء الخلق، وضرب نفوسهم المُجِبة المانحة، إذ لا أمل في إصلاحه، وتعديل سلوكه، فمتلي لا يؤمن أبدًا بالوساطة والإقناع في الحُب، أو ادَّعاء الانشغال في الحياة، وضغط الظروف الاجتماعية؛ لأن من لا يرغب فيك، أو لا يريدك لن تنفع معه أحاديث أو أسئلةٌ وجدل دائر لا طائل من ورائه.

والعشق صفة أهل الكشف والوجد والشهود، وأصحاب المعارج العلوية المقدَّسة، الذين يُعوَّل عليهم في كلِّ ما هو تام وكامل، هؤلاء الصامتون عن سواه، المتكلمون بالإشارة :

## 1- إن الكلامَ عباراتٌ وألفاظٌ..

وقد تنوبُ إشاراتٌ وإيماءٌ.

## 2- اللهُ قالَ على لسانِ عبده..

# فَالصَّمْتُ فِي الْأَكْوَانِ نَعْتُ لَازِمٌ.

محي الدين بن عربي

والمنشغلون بذكر محبوبهم، والمؤثرون العزلة والصمت، ذلك الصمت الفاعل في باطن المُحب الذي يعيش في حالٍ من المشاهدة والتأمل بلا أستارٍ أو أقنعةٍ أو حُجب، ويرى محبوبه ويعتبره " المثال الأعلى " مأمورًا أمرًا وجويًّا بشكلٍ تلقائيٍّ وعفوي من داخله بذكر من يهوى، والذي تفتح له الأبواب ولا تغلق أبدًا، وهو مُصنَّع في أحواله مع من يحب ويهوى، إذ هو في حال من الوحدة "فوجود الشكل يأنس بالشكل" - ابن عربي، حيث:  
[سورة النور: آية 24].

أما الذي يصمت بلسانه ، ويصمت بقلبه، حيث وقعت فيه الجفوة أو الوحشة، فهو من الذين لا يُعوّل عليهم في الحُب، لأنه لم يعرفه حق المعرفة، أو شَبَّه له أنه في الحُب، وهو ليس من أهل الحُب، فلماذا يزاحم على الأحوال، وهو بعيدٌ عنها، ويمكن اعتباره أنه في مقام العبت، أو التسلي، أو تزجية الوقت ، أو شغل الفراغ في صحراء روحه، ومثل هؤلاء لا ينبغي انتظارهم، بل انقضاء شُرورهم؛ التي من شأنها أن تكسر النفوس، وهنا سأعود إلى الأمثال الشعبية وأقول إن : الحداية ما بترميش (أو ما بتحدفش) كتاكيت، والثور لا يُدرُّ لبنًا .

وهؤلاء مصيرهم الالتباس، والحيرة، والتهيه، والظلمة؛ حيث لا رحابة، ولا راحة، ولا ترحيب من كائنٍ، ويعيشون محزومين من حروف الجر، التي بها أو بأحدها يكونون في جِضْنٍ وكنفٍ آخرين، يمنحونهم الحُب، والحنو، والفرح، والطموح، والأمل، واللذة الرُّوحية والجسدية معا.

لأن الحروف "مجهولة المعنى إلا إن اقترنت مع غيرها من أقسام الكلم"، وعدد حروف الجر واحد وعشرون حرفًا، وقد جمعها ابن مالك (600 - 672 هجرية / 1206 - 1274 ميلادية) في بيتين من ألفيته الشهيرة : (هناك حروف الجر وهي: من، إلى، حتى، خلا، حاشا، عدا، في، عن، على، مذ، منذ، رُبَّ، اللام، كي، واو، وتا والكاف، والباء، ولعل، ومتى "، وكلها مختصة بالأسماء، وتعمل فيها الجر .

ومن يركب العشق، عليه أن يعلم أنه على حاشيتي النقيض، فلا يهمل الواجبات في أوقاتها، ثم يلتزم الصمت، وهنا قد استعرت جملة من ابن سبئين (614 - 669 هجرية / 1217 - 1269 ميلادية) ووضعتُ العشق مكان البحر، مع تصرُّفٍ محدودٍ في جملته الأسرة المأثورة.

\* \* \*

## تحصين القلب بالحب

العشق - الذي أعرفُ وأؤمنُ - هو الفعل المضارع المستمر في "نحو الحب"، حيث يكره أدوات النصب والجزم، التي تجعله ناقصًا أو عاريًا.

لا يعرف العشق زمانًا ولا مكانًا، ولا يعرف الفوارق الطبقيّة، ولا يعترف بها؛ فهو يزيح العقبات ويفل القيود والأغلال، ويعلو على أيّ اعتبارٍ قد يواجهه.

كما أنه يمحو ويحذف الزمن والأعمار، ويطوي صفحات الكراهية والانتقام والتحارب والتقاتل والصراع والانقسام والتمزق والتشتت والبغضاء والشُرور والأحقاد وحتى الجرائم، فلا بدء له ولا نهاية، إذ العشق - الذي أعرفُ وأؤمنُ - هو الفعل المضارع المستمر في "نحو الحب"، حيث يكره أدوات النصب والجزم، التي تجعله ناقصًا أو عاريًا.

ولقد تعوّدتُ في حياتي ألا أخذ آراء الشعراء والفلاسفة والمفكرين والكتّاب والعلماء مأخذ التسليم والقداسة، بل عليّ أن أغربلها، ثم أنخلها، ثم أفرزها، وأعرّضها لنار البحث، وشمس الحدس، وهواء الاستقراء والاستقصاء، وماء السؤال والجدل، وتراب الاستدلال والبحث، وهي العناصر الأساسية المكوّنة لأي كائن، ومن هنا أقف مُرتابًا أمام مقولات وآراء أفلاطون في الحب، لأنه قبل أن يكون فيلسوفًا فهو رجل عاش ثمانين عامًا (427 قبل الميلاد - 347 ميلادية) لم يعرف خلالها امرأة، ولم يتزوَّج، بل كانت نظرته إلى المرأة احتقارية، وهناك من رآه من علماء النفس في عصرنا الحديث مثليّ الجنس، ولذا علينا أن نفكر كثيرًا في مسألة "الحب الأفلاطوني"، أو الحب العذري أو الحب العفيف - أو أي مرادف آخر له في زماننا أو في أزمنة سابقة - الذي لا يحتفي بالجسد، ويتعامل مع موضوع العشق باعتباره من المكروهات والمُحرّمات والجرائم، والمثالية - التي أوّمنُ بها وأعتقد - لا تعني تنكّرًا للجسد أو إغفالًا له، لأن سماء الجسد عالية، وليس فيها هبوط أو سقوط.

وعلى الرغم من أن أفلاطون عاش في مصر بين عامي 398-390 قبل الميلاد، أي في نهاية الأسرة التاسعة والثلاثين، وقضى حوالي ثلاث عشرة سنة في أرضها وبين مفكرّيها وفلاسفتها وعلمائها وشعرائها وحكّائها، وعرف لغتها - كما تقول بعض المصادر - فإنّه تعلم أشياء أخرى كثيرة ليس من بينها الإدراك الحقيقي لماهية الحب، حيث نظر إلى المجتمع المصري وقتذاك على أنه مُجرّد نظامٍ وقياسٍ، فقد كان على أرضها يوم كان التعليم إجباريًا على كل أهل مصر، حيث يتعلّمون الفلك والهندسة والرياضيات، في حين كانت الأمية تلازم طبقاتٍ كثيرة في اليونان التي أتى منها أفلاطون، وخرج من مصر دون أن يستفيد ممّا هو إنساني يتعلّق بالقلب والرّوح، على الرغم من دراسته في مصر الترانيم والأناشيد والطقوس والمعتقدات والحياة الدينية لألهة مصر خصوصًا

توت أو تحوت (إله الحكمة عند الفراعنة، وقد اعتبره قدماء المصريين هو من علمهم الكتابة والحساب، وأسماء اليونانيون هرمس)، وإيزيس (ربة القمر والأمومة لدى قدماء المصريين، وكان يُرمز لها بامرأة على حاجب جبين قرص القمر، وقد عبدها المصريون القدماء والبطالمة والرومان واليونان).

إغفال أفلاطون لعمل الرُّوح والقلب في طبيعة أهل مصر، جعله بعيداً عن الحُب، مُتصوِّراً أن الجسد يشتغل وحده بمنأى عن العاطفة؛ ولذا قام بالفصل بين ما هو حسي وما هو روحي؛ ولهذا جاءت جمهوريته خالية من الحرية، على الرغم من أنه عاش الحرية الواسعة وأدركها في مصر، حيث كان يرى الحرية إنكاراً للفضيلة، مع أن من يعيش حُرّاً يبقى قلبه وجسده حُرَّين، ويعرفان كيف يبنيان لهما نظاماً إنسانياً عالياً في ارتقائه وتصوّره عن نفسه.

ولم يكن مُستغرباً لي أن يسنّ أفلاطون قانونه غير الإنساني في الحُب، وهو الذي حرّم الاستماع إلى الموسيقى غير المناسبة، وألا يقرأ الشباب والشيوخ كتباً لم تقرها الدولة، وألا ينقد الشباب الطالع نظام المدينة، بينما هو متاح للشيوخ؛ لأنهم أصحاب تجارب وخبرات في الحياة، وأن تكون هناك رقابة صارمة مفروضة على كل شيء خصوصاً في ميدان التربية، وهنا أراني أمام ديكتاتور مستبد لا يمكن أن يكون فقيهاً في الحُب بأي حال من الأحوال، وليس للأرواح والأجساد عنده أية قيمة، ولذا لم يضع الحُب دستوراً لمدينته الفاضلة، وعندي أنه لا يمكن إقامة نظام أو تأسيس جمهورية أو بعث مدينة من الخراب والفساد إلا على أسس الحب، ذلك الحُب المكتمل غير المنقوص على طريقة أفلاطون بل على طريقة ابن حزم وأئمة العشق في الثقافة العربية، أو في الثقافة المصرية القديمة التي درسها أفلاطون، ولكنه استبعد منها جانبها الأهم والأساسي وهو الحُب الذي يحلّ - دائماً - مكان الحقد.

وبدلاً عن أن يقول: " من لم يكن مهندساً فلا يدخل علينا "، كان عليه أن يقول: " من لم يكن عاشقاً فلا يدخل علينا"، كأن أفلاطون لم يكن مشغولاً بالحُب الإنساني في ظل الكراهية المريرة، والاحتراب والعراك والصراع والقتل والدمار الوحشي الذي عاصره . الأمر الذي جعله لا يُفكّر بتأنٍ وتأمّلٍ في موضوع الحُب كسلوكٍ وكفكرٍ فلسفيٍّ قادرٍ على تغيير الحياة، وخلق عالمٍ جديدٍ مثاليٍّ محمولٍ على الطمأنينة والسلام، يكون بديلاً للواقع المضطرب الملآن بالحقد والظلم والعدوان.

فالتناسل عنده فوق القلب وقبله، ومن ثمّ تصبح ممارسة العشق وسيلةً للإنجاب، وليس غاية لعلو الرُّوح وسموها، وتنقيف الحواس ومخاطبة المشاعر، إذن هو يبحث عن تحسين النسل وليس تحسين القلب بالحُب، وهذا ليس غريباً على رجل كان يحط من شأن النساء ولا يبجلهن أو يقدرهن ويعتبرهن أدوات لإنجاب الأطفال. ويطالب الرجال بكبت جموحهم الشهواني، حيث يرى الرغبة الجنسية ( أدنى صورة لميل البشر إلى الخلود ). فهو مع زيجات قصيرة تحقق الإنجاب وكفى، محمولاً على فكرة النزاع أو الصراع بين ما هو جسدي وما هو روحي، وعندما نلحظ رومانتيكية في الحُب سنفاجأ أن أفلاطون لا يراها متحققة إلا في المثلية الجنسية.

وإذا كان الحب كما تقول الأسطورة تابعًا لأفروديت وخادمًا لها، فإنه كان قصيًّا وبعيدًا عن أفلاطون الذي لا تلوح يده إلا إلى "فلسفة الإنجاب"، بمعنى صار الحُب عنده هو طلب الولد، وهذا أمر لا يدخل أبدًا في "باب الحُب"، وهنا أعود إلى تراث العشق العربي لنرى كيف أن أعرابيةً تفقه الحُب أكثر من أفلاطون:

فقد سألتها الأصمعي: ماذا تعدون العشق فيكم؟

قالت: الضمّة، و الغمزة، والقُبلة، ثم أنشدت تقول:

ما الحُب إلا قُبلة وغمز كف وعضد

ما الحُب إلا هكذا إن نكح الحُب فسد

ثم قالت: كيف تعدون أنتم العشق؟ قلت: نمسك بقرنيها، و نُفَرِّق بين رجليها . قالت : لست بعاشقٍ، أنت طالبٌ وليدٍ ، ثم أنشدت:

قد فسد العشق وهان الهوى..

وصار من يعشق مستعجلاً..

يريد أن ينكح أحبابه..

من قبل أن يشهد أو ينحلا.

(ينحلا: من النِحْلَة، وهي المهر) .

فأفلاطون الذي كان يضع المرأة في منزلة أدنى من الرجل، بل ويبغضها ويحتقرها، كان يعتقد أن الحُب يفقد الإنسان وجوده، ويجعله في فوضى ، الأمر الذي جعله يذكر في (المأدبة) : أن "الحب الصادق لا يتحقّق إلا عندما يحب الرجل غلامًا!"

\* \* \*

## إلهاتُ الحُب

ما يؤذي المرأة نفسيًا، أن تكون هامشًا لا متنًا، سطرًا في كتابٍ وليست الكتاب بكامله، تجربةً عابرةً لا كونًا مقيمًا؛ لأن المرأة ترى نفسها ربّة أو إلهةً ، تستحوذ، وتلهم، وتكره أن يكون لها شريك، وتتبع تقويم قلبها، ولا تلتفت إلى أي تقاويم أخرى، إذ هي محور الارتكاز، وعمود البيت، ورمانة الميزان، وأول الأبجدية، والصراط الحق المستقيم الذي ينبغي لمن يحبها أن يمشي عليه.

المرأة خلقت لتخلق وتبتكر وتضيف، وتسهم بما تحمل من سخاءٍ وسحر، وثناءٍ ونفسٍ، وغنى روح، ووصلٍ قلبيّ، وحُب لا ينفد، وأنوثة وجمال إلهي، ونقاء وحنان، وحكمة وإلهام، ومعرفة باطنية، وإشراق نورانيّ عالٍ في إعادة صياغة الحياة بتفاصيلها.

وتترك أثرًا فيمن يقترب منها، ومن لم ير ذلك في المرأة فهو مُجحف، ومُجذب، ومتجهم، ورجيم، وجلُمود "كجُلُمودِ صخرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عِلٍ" – كما قال امرؤ القيس، وجاحد جاهل، وجاف جامد لا حس لديه، ولا عقل به يفكر ويختبر ويرى.

فالمرأة لها بصرٌ حاد يشاهد، وبصيرة تتنبأ وتنبئ بالكثير، وترى بحدسها وغريزتها ما لا يراه الرجال من حولها.

وما يؤذي المرأة نفسيًا، أن تكون هامشًا لا متنًا، سطرًا في كتابٍ وليست الكتاب بكامله، تجربةً عابرةً لا كونًا مقيمًا؛ لأن المرأة ترى نفسها ربّة أو إلهةً ، تستحوذ، وتلهم، وتكره أن يكون لها شريك، وتتبع تقويم قلبها، ولا تلتفت إلى أي تقاويم أخرى، إذ هي محور الارتكاز، وعمود البيت، ورمانة الميزان، وأول الأبجدية، والصراط الحق المستقيم الذي ينبغي لمن يحبها أن يمشي عليه، وأنها - في مصر مثلاً - حفيذة إلهات كثيرات عشن على امتداد الأسرات، مثل: إيزيس، وحتحور، ونوت، وماعت، وسخمت، وباستيت، وأمنتنت، وباخت، وتاورت، وتفنوت، وخونسو أو خونس، وسشات، ومرت سجر أو مريت سجر، أي التي تحب الصمت، و نخبيت، وسرت، وغيرهن من الربّات، وما أكثرهن في مصر، ذلك البلد الذي عبد شعبه المرأة، وقدسها واتخذها إلهةً له راضيًا مرضيًا، بلد عرف تعدد الآلهة، ولذلك يتحلّى شعبه بالتسامح والعفو والرضا والقبول بالآخر، وما التشدّد والتزمت فيه بين بعض أفراده إلا ظاهرة صحراوية وافدة لا تنتمي إلى طبيعته المحبّة المسالمة الكريمة المعطاء.

وكان على المصري أن يحفظ أسماء آلهته (نساءً أو ذكورًا): لأنه سيُسأل عنها وقت الحساب، وخشية النسيان كان يُوضع كتابُ الخروج إلى النهار، المعروف بـ "كتاب الموتى" معه في القبر؛ ليعينه على التذكّر والاستعادة، والاستعداد ليوم البعث.

والمصري بفطرته اعتاد تأليه المرأة، وتمجيدها والصلاة في محرابها، والنظر إليها بتبجيل وإجلالٍ وقدايةٍ خصوصًا في صعيد مصر، لحضورها الباذخ، ومكانتها العالية؛ ولذا فهو يُقدِّم لها القرابين والهدايا؛ ليقترَب أكثر، ويستميلها نحوه، ويتبعها أينما وجَّهت وجهها.

وقد اتخذ الشاعرُ المرأةَ التي يحبُّ إلهةً وحيه، واعتمدها حلمه، ووعدَه، ومأواه، ولغته، وسماءه الأعلى، ولذةً وجُده، ومتنَّ نصِّه المُرتجى، وهو هنا إذ يسعى إلى تخليد نفسه، فهو يسعى إلى تخليد إلهته التي هو بدونها لن تتحقَّق كينونته ويصير الإنسان الكامل، حيث يكون معها في مرتبة الانتقال من الحسيِّ المُجرَّد إلى الرُّوحي العقلي؛ وإن افترضنا أنه عاش في الجسد، فإنها ستكون حياة رُوحية استلهامية؛ إذ سيستخرج من أرض الجسد معادن الروح النفيسة، بلا خجلٍ أو وجلٍ أو ريبٍ، مؤمنًا بأن شهوة الحُب تَعْلُو وتسمُو كلما كان جسد الإلهة سامقًا في بريته وتوحشه، حيث تفتح جنته، وتكون المتعة تجليًا للذوبان والاتحاد الحادئين والناجيين عن دخول الرُّوحي في الجسدي، وهنا للماء المقدس أو سائل الحب رحلةً معراجيةً تنتهي بالوصول إلى النقطة المُستَهة التي يرجوها المُحب العابد لإلهته.

فالشاعر لا يرضى من المرأة بالجسد، وإن رأيتم "شاعرًا" هكذا، فهو ليس منَّا، ذلك الذي يرضى بالعابر والمؤقت والمزوري.

ولا يستوي عندي الشاعر العاشق بمن يعشق فقط ولا يمارس كتابة الشِّعر؛ إذ مع الشاعر نجده يخلق هو الآخر امرأته إلهته مثلما هي تخلقه، يخلقها داخله وعلى الورق أيضًا، كما أن عبادته العشقية - حيث التوحيد في الحُب بلا شراكة - تكون مختلفة في طقوسها ومظاهرها، لأن "غرام الشعراء" دائمًا فريد وخاص وله سمات نادرة، فالشاعر ليس مجرد رجل حسيّ يلتذ بجسد من يحب، لكنه مخلوقٌ آخر في العشق.

إن الشاعر الذي لا يرى عشقه مروقًا أو خروجًا على الأعراف والتقاليد والعادات يظل مديئًا لامرأته بأنها منحه كتابًا أو أكثر؛ ولا يجد إلا نفسه قربانًا لها، وما استطاعت يداه أن تحملا من هدايا، وأعرف أن هناك مبدعين في العالم يدفعون إلى ملهاتهم، وهذا أمر لا أعده نوعًا من الامتنان، ولا ينتمي بأية حال إلى العشق وآدابه.

والمرأة تحبُّ أن تجد نفسها مُجسَّدةً في نصوص شِعْر عاشقها بشكلٍ فنيٍّ وجماليٍّ مباشرٍ أو غير مباشرٍ، وهذا سلوك يطمئنها ويرضيها نفسيًّا، ويريحها من الشكوك والريبة. فهي لا تقبل من شاعرٍ أن يُشرك غيرها فيما يكتب؛ لأنَّها إلهته وربَّته المُلهمة.

وكم من مرة أشرت إلى أن المرأة تكره أن تكون مجرد لعبة شعرية، يلعبها الشاعر كي يكتب نسا أو كتابا شعريا كاملا أو أكثر من كتاب، وأنها كانت جسرا يعبر عليه الشاعر لينجز قصيدة، ومثلي لا يؤمن بشعر كهذا، ولا بحب كهذا، لأن الصدق منتف وغائب عن كليهما.

فما أسوأ أن تكون المرأة وسيلة لغاية، بمعنى أنها كانت مجرد قصة حبٍ فيها من الزيف أكثر، وأن تحل الأهواء أو المغامرات أو الرغبات أو النزوات محل الحب.

وأعظم العشق لدى أيِّ شاعرٍ ما كان مُتجسِّدًا فيمن يحبُّ، وفي الوقت نفسه متحقِّقًا في نصوصه، والمرأة الإلهة في عشقها هي من تدعم، وتشجع عبر طرائق شتى، وتحفز، وتستنهض، وتشكل مثيرًا دائمًا ينتظر الاستجابة التي تتمثَّل في الكتابة دون إغفال أو إهمال ممارسة العشق.

وفي تاريخ الديانة المصرية القديمة، وجدتُ أن الإلهات المصريات كُنَّ إلهات السماء، والهواء، والقمر، والحب، والجمال، والحكمة، والمعرفة، والكتابة، والهندسة المعمارية، وعلم الفلك، وعلم التنجيم، والبناء، والرياضيات، وعلم المساحة، والأمومة البارّة، والسعادة، والموسيقى، والخُصوبة، والرطوبة، والمطر، والنار، والموتى، و الحق والعدل والنظام في الكون، و الخُلق الطيب، والحنان والوداعة، والولادة، والحمل.

فالربة إيزيس – مثلا- تقدِّم نفسها هكذا: "أنا أم الطبيعة كلها، وسيدة جميع العناصر، ومنشأ الزمن وأصله، والربة الأعلى، ملكة الأرواح، وأولى سكَّان السماء، والقُدوة النموذجية لجميع الآلهة والربَّات، أحكم ذرى السماء ونسمات البحر الخيرة وسكون الجحيم المُقفر".

ولا شك أنَّ كثيرًا من عمل هؤلاء الربَّات ما زالت الحفيدات يفعلنه، على الرغم من تغير الديانة، ولكن يحدث ذلك بحكم الفطرة والوراثة التي لا تنقطع ولا يمكن فقدها.

وإذا جاءك الحُبُّ ففُزْ به.

لأن الحب سلطانٌ ذو بأسٍ شديدٍ، وقوَّةٍ لا تهن، وبعثٌ من موتٍ، وسكنٌ في الجنة بعد طردٍ منها، وإقامة خصبة مشعة في النور بعد هجرانٍ في الظلمة، وغذاء لشمسك بعد طول كسوفٍ.

ولأنك عندما تحب فأنت تخلق صورةً مثلى لمن تعشق في دماغ رُوحك، ورأس قلبك، تمنح صفاتٍ وسماتٍ وأوصافًا تزيد من تحبُّ جمالا واتقادًا وفتنةً ونقاءً وإشراقًا فوق سحرها وجاذبيتها، ولا تعود هي مثلما كانت قبل الحب، وإذا كان المُحب ناثراً أو شاعرًا أو مُصوِّراً أو موسيقياً؛ فإنه يضيف إلى ملامحها ما يجعلها تتحوَّل من امرأة يراها أهلها وناسها مُجرَّد امرأة جميلة إلى إلهة أو ربة، إذ المرأة دوماً محل عبادةٍ، وموضع تقديسٍ، لا دنس فيها، خُصوِّصًا عند من يفقهونها، ويفقهون العشق.

الجسد يمرض، ويشيخ، ويولد، ويموت، ويفنى، ويُنتهك، لكنني مع ذلك لم أطلب منك أن تحبَّ الرُّوح فقط، وتتعبَّد في محرابها، ولكن امنح الجسد صلته وعبادته، ولكن لا تجعل عشقك له يتغلَّب على عشق الرُّوح أو يعلو عليها.

وإن كانت الرُّوح تكشف الجسد وأسراره وتمنحه درجاتٍ عليا ، غير المرئي منها ربما يكون أكثر من المرئي، فإن الجسد كذلك يكشفُ الرُّوح ويحفُّر في مساراتها نورًا وهاجًا.

أنا شخصيًا أفكّر فيمن أحب شعراً ورُوحًا وجسدًا، وكمصدرٍ مُحفِّزٍ وملهمٍ لا نضوب لماء بئرهِ، لكنني لا أستخدم من أحبُّ معبرًا أو جسرًا للكتابة، مثلما فعل شارل بودلير ( 1821-1867 ميلادية ) مع "أبولوني ساباتييه" حينما اعترف لها : "لستِ عندي أكثر النساءِ جاذبيَّةً وحسب، بل إنك أيضًا أعلى وساوسي وأثمنها. إنني أنانيُّ، وإنني أستخدّمك" لغرض كتابة الشِّعر؛ لأنه كان يراها مثل غيره "ديلاكروا، وجوستاف فلوبير، وسواهما" ممن كانوا يرتادون بيتها البرجوازي "مُلهمة بالإيجار" أو الغانية، وكانت تُعرَف في المجتمع الفرنسي باسم الرئيسة.

وأبولوني لا تدخل عندي في سياق المحبوبات من النساء، ولا يمكن منحها صفة ربة إلهام، أو إلهة جمال؛ لأن الغانية المؤجِّرة "حقيقةً أو مجازًا"، من المستحيل أن تُبارح مقامها أو رُتبتها، وتصير إلهة حُبِّ.

وأعرف كثيرين من الشعراء قد أصابهم الغلط، وأدركهم العمى وهم يختارون إلهات عشقهم، وقد عاشوا بسبب هذا الاختيار محنًا كثيرةً، أقلها الفراق والهجران.

وأعرف أن حُبَّ المرأة من حُبِّ الله؛ إذ هي إشراقه الأجل، وتجلّيه الأكمل، وشمسه الساطعة التي تشرق من روح وجهها ، ولذا نرى العاشق يصير في حالٍ إيمانيةٍ أخرى، وسلامٍ رُوحِيٍّ كلما اتحد بامرأة، و" اعلم أن المجانسة تكون بالمجانسة "كما يقول ابن عطاء الله السكندري (658 هجرية - 1260 ميلادية / 709 هجرية - 1309 ميلادية)، لأنك إذا مكثت في الحُب صرت مُحبًّا وتحققت لك السعادة واللذة القصوى.

الحُب منحٌ أبديٌّ لمن تحب - وأقصد بالمنح هنا منح النفس كاملة - وليس مؤقتًا أو موسميًا أو لبعض الوقت، أو لإفراغ الشهوة، أو للتسلية وقضاء الوقت، وقتل الفراغ.

الحب يضيف إلى الإنسان، وينشِّط خياله، ويذهب عنه الحزن، ويجعله في حالة منح ووهبٍ وبهجة مستمرتين، وهو يحل محل كل سوءٍ وشرٍّ في الإنسان، أو حُسران، بحيث إذا دخل لا يكون هناك تالفٌ في نفسه، لأنه يبني ويعمِّر، إذ هو صلب رغم رهافته، ولو نزلت صاعقةٌ ما أصابت العاشق أبدًا، كأنه صار مُحصنًا ضد الشرور، ومن يتوقف عن الحُب؛ فهو كهلٌ حتى ولو كان يبدأ العشرين من العمر، وكثرة العشق تُحيي الرُّوح، وتخلقها كل طلعة شمس جديدة حاملة بالوعود والكرامات والبشائر.

ومن يحب يعيش مدينًا لمحبوبه؛ لأنه كان باعثًا على الإثمار والإنجاب الرُوحِي، حيث يصير ملهمًا له في كل شيء.

أعرف أن هناك طوائف وجماعات تعبد فرج المرأة باعتباره سرّ الخلق وأصله، وهو باب جسدها، ولكنها تعبد من باب قداسة الرّوح بالأساس، ويتم ذلك في مناطق كثيرة من العالم منها سورية مثل (مصيف أو السلمية وحمص وشمال اللاذقية وحلب ودمشق) والهند، واليابان، وسواها، وهي من المعتقدات القديمة الراسخة، خصوصاً في بلاد فارس وآسيا الوسطى، وهذه "عبادة" سرية لا أنتقدتها، ولا أستهجنها أو أستغربها، لأن كل إنسان حرّ فيما يعتقد ويؤمن، وكذلك لأن جسد المرأة كائنٌ علويٌّ مُقدّسٌ، وهناك من يرى أن غير المُقبل من الطائفة على هذه العبادة هو في ضلالٍ مبين، وأنه ارتكب خطيئة.

وكان المصري القديم أول من قدّس ما يتجلى عن عضو المرأة باعتباره رمزاً للخصوبة من ولادةٍ وحياةٍ جديدةٍ تبدأ للإنسان، وهناك منحوتاتٌ وجداريات تثبت تقديس المصريين القدماء لفرج المرأة.

و يحتاج الإنسان إلى العشق ليرضى ويرتاح ويعلو ويسمق ويتحقّق ويسعد ويدرك ذاته، ويعرف باطنه، لا أن يكنز مالا من ورائه، أو يحقّق فوائد مادية، أو يقايض على شيء ما لا يعرفه المحبّوب، لأن أسوأ أنواع " الحب " ذلك الحب المشروط، حيث لا حب في وجود شرط، والشرط قيد، وعبودية مُختارة، واستغلال لضعف النفس وتهافتها.

كما أن الحب ليس مغامرةً يرتادها الإنسان ليتسلّى أو ليشغل وقته؛ لأنه أسمى من أن يكون محضّ لعبةٍ مُحدّدة بزمانٍ ، وما إن ينتهي الوقت المتنوع بالفوائد والمكاسب تنتهي المغامرة التي لم تكن قد ارتقت إلى أدنى درجة من درجات الحب.

ولكي يعشق لابد له أن يكون مؤمناً أو لا بالحب، وثانياً بمن يحب، وأن يكون أمر الحب واضحاً جلياً مكشوفاً للذات العاشقة؛ حتى لا يكون هناك خداعٌ أو كذب أو مساوفة؛ لأن " من استعمل التسويق طالت حسرته "، وهذا الثلاثي وسواه الكثير ألد أعداء الحب، حيث لا تتحقق الاستمرارية؛ لأنه لم يكن هناك حبٌ من الأساس، بل هو سوء الفهم بالحب، وسوء التقدير – أيضاً – للمحبوب، ومن هنا يقع الفراق، وتبقى المرارة كامنة في النفس.

وهنا عليّ أن أقول إن الحب ليس شفقة، بل هو اتحاد بمن تحب، وعبادة له، وليس عادة يومية ، بل هو إيمان واعتقاد بأن من تحب هو نقطة الدائرة من الكون، وليس امتناناً وإنما الحب هو صورة من تتجلى وتشرق فيك.

والحب ليس أن تكون إلى جوار من تحب فقط، بل أن يكون هو في قلبك ، وقديماً قال الجنيّد ( 221 - 297 هجرية / 830 – 910 ميلادية ): سمعت السريّ السقطي ( وهو خال الجنيّد وأستاذه 160 - 251 هجرية ) يقول: "لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا".

وما كل خطوة تخطوها نحوه إلا وهي صادرة من نفسك المؤمنة به، والمعتقدة بأنه لا أحد سواه في سمواتك . فالحب عبر محبوبك هو من يغفر أخطاءنا وخطايانا؛ لأنه يصدر عن نفسٍ محبةٍ مانحةٍ

عارفةٍ موجّدة، تسمو عبر جسدها، لا أن تُستعبد بشهواتها العابرة ونزواتها المؤقتة.

\* \* \*

## التوحيد في الحب

من يعشق تتكشف أمامه الأسرار، وتفتح له أبواب الكون المقفولة، وتتبدل حياته بالكلية، وبصير شخصاً آخر غير الذي كانه قبل الدخول إلى نار جنة العشق.

المغامر في (الحُب)، الذي ينتقل من علاقةٍ أو تجربةٍ إلى سواها، المتعبد في الاتصال بالنساء، لا يشبع من مغامراته، بينما الحُب يشبع المُحب ويرضيه ويجعله في نشوة وسعادةٍ دائمتين .

والمغامر أو صاحب المغامرات مُجرب، مؤقت، ينقصه الكثير من الطمأنينة والأمان، يغري النساء بما يمتلك من مالٍ أو مركزٍ أو عبر ممارسته الكذب والغش والخداع، غير مكتمل النمو العقلي والنفسي معاً، يغلي من الغريزة على المشاعر، ويخلط بين ممارسة الجنس، والعشق الذي يؤدي فيما بعد إلى اتحادٍ جسديٍّ (رُوحانٍ حللنا بدنًا - كما قال الحلاج )، متردد، لحوح، كذوب، متناقض، ظمآن

لا يرتوي، مضطرب نفسياً ومرتبك عاطفياً، هش، مهتز، غير ناضج أو لديه نقصٌ ما في الرجولة، ساديٌّ يحب قهر من يزعج حبه، ويسعد بإذلالها وتعذيب نفسها، مريضٌ وفي مسيس الحاجة إلى علاج روحه من الدنو والقسوة والشَّرَه، والخيبة الكامنة في قيعان ذاته، ناقض للعهود ، عجول لا يستقر على رأي، وذني "أي ينصت إلى كلام الغير طوال الوقت، وتحركه أذناه بما تسمعانه"، يبحث عن الجديد كلما لاحت أمامه امرأة، الحُب ليس دينه، لكنّه سيردّد مع ريتشارد فاجنر (1813)- (1883 ميلادية): "أنا عابدُ النساء"، وسيكون حفيداً لعمر بن أبي ربيعة (23 هجرية - 644 ميلادية / 93 هجرية - 711 ميلادية) بامتياز، ذلك الشاعر الذي لم يحب أحداً ، بل كان دائم التردد بين نساءٍ كثيرات، وقد حشا شعره، وحشده، ووشّحه بأسماء عديدات، كأنّ النساء كُنَّ له عباةٍ يغيّرُها كل يوم، دون أن يقيم وزناً لإحداهن ويقف أمامها عاشقاً متعبداً موجداً، فهو شاعرٌ لم يعرف التوحيد في الحُب، وهو القائل:

لَيْتَ ذَا الدَّهْرِ كَانَ حَتْمًا عَلَيْنَا

كُلُّ يَوْمَيْنِ حِجَّةٌ وَعَاطِمَارَا

متمنياً أن يكون الحجُّ طوال العام؛ لأنه فرصته للتحرشُ بالنساء الآتيات من الشام والعراق، ومن المدينة نفسها، وكان يتشبّب بالنساء في شعره، خصوصاً في مناسك العمرة أو الحج، وتروي المصادر أن " امرأةٌ دعت عليه لأنه ذكرها في شعره، وهي في الطواف حيث قال شعراً فيها:

الرَّيْحُ تَسْحَبُ أَذْيَالًا وَتَنْشُرُهَا

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مِمَّنْ تَسْحَبُ الرِّيحُ

فقلت: اللهم إن كان نوءه باسمي ظالمًا، فاجعله طعامًا للريح، فعدا يومًا على فرس، فهبت ريحٌ، ونزل، فاستتر بشجرةٍ، فعصفت الريح فخدشه غصنٌ منها فمات من ذلك، وقيل إنه خدشه الغصن فدمي وورم به ومات من ذلك".

وأرى أن الذي يرتبط بامرأةٍ كي يكون أسرةً، وتستقر حياته، وينجب أطفالًا، ويكمل نصف دينه، وتنتظم حياته كرب أسرةٍ، عادةً وفي الغالب لا نكون أمام محبٍ، بل مجرد زوجٍ عادي تقليدي السلوك، يعيش كبقية البشر في منظومة يظلمها المجتمع، وتحميها الأعراف، وتستسيغها التقاليد.

فالشاعر مثلاً يبحث عن امرأةٍ إلهةٍ تلهمه وتُخَصِّبُ خياله وتشحذه، أما الذي يبحث عن امرأةٍ تمول حرقه، فامرأة التمويل لا تدخل باب قلب المحب؛ لأنه خطَّ منذ البداية لأن تكون بنكًا لجيبه بدلا عن أن تكون بنكًا لقلبه وروحه، وهذا من الأمور التي تسبب آلاما وجروحا لا يمكن الشفاء منها، وهو عندي جريمة كبرى مثلها مثل أية جريمة أخرى يعاقب عليها الإنسان، بل أشد وأسوأ حالا، ولا شك أن من يفعل ذلك ستعاقبه الأيام، إن هو لم يعاقب نفسه بالاعتزال، حيث يعيش حياته في مقام الندم والحسرة والذناة جرّاء ما فعل (بشرط أن يكون إنسانا يشعر ويحس)، لأن عديمي القلوب والأحاسيس والضمان لا بيت لهم في كون الحب.

فجبران خليل جبران ( 6 من يناير 1883- 10 من أبريل 1931 ميلادية ) مثلا لم يحب الأمريكية ماري هاكسل (18 مايو 1869 -

6 ديسمبر 1953). لم تكن جميلة أو مغرية أو جاذبة أو أنيقة، وصفها ميخائيل نعيمة في كتابه بأنها " امرأة مشوهة الخلق، لا حواجب

ولا أهداب لها، مستطيلة الأنف، فلجاء، صدرها ضيق ، وكتفاها عاليتان ، تمتد منهما ذراعان طويلتان تنتهيان بكتفين طولهما ضعف عرضهما، ركبت فيهما أنامل عظمها أوفر من لحمها ". ويقول ميخائيل نعيمة أيضا: إن جبران كان في علاقته مع ماري يرغب في استمرار الضمان المالي لا الحب الصحيح، بل اعتبرها منذ البداية مُمَوِّلة أو محسنة تعين شاعرا وناثرا ورساما، وجسرا ومعينا وسندا للوصول إلى ما أراد، والوقائع معروفة ومتداولة ، كأنه يردد ما سبق أن قاله فاجنر عن "ماتيلد" بأنها كانت تمده "بإحسان لا نهائي" (لقد عاش جبران ثمانية وأربعين عاما عرف فيها نساء كثيرات )، كما أنني لم أومن يوما بأنه أحبّ مي زيادة (1886 – 1941 ميلادية ) وهو لم يرها يوما حتى وفاته، بل كان كذوبا كبيرا معها، وتعامل معها على أنها "وهم نافع" - وهو الوصف الذي وصفه منتفع قبله في التجربة هو فاجنر لـ "ماتيلد" -؛ مما دفعها إلى الجنون في أخريات حياتها، إذ كانت تهيم في شوارع القاهرة، والوقائع أيضا معروفة، ولكن يبدو أن التاريخ الأدبي يخجل من ذكرها.

وهناك كثيرون من الشعراء يحتاجون النساء لحثهم على فعل الكتابة، التي ما إن تتم وتنجز، يغادر الشاعر امرأته، التي كانت لديه مجرد معبر أو وسيلة لغاية وهي الكتابة ، وهي قسوة ما بعدها قسوة

أن "أحب" امرأة لأكتب ، بمعنى أن ولادة القصيدة عنده يعني موت المحبوب الذي ارتجاه وذهب إليه وادعى محبته، وحتى إذا أراد العودة تكون قد أدركته شيخوخة القلب والعمر، وتغيرت حال من منحته وأحسنت إليه، ويحترق هو بالنار التي لعب بها، إذ إن نار الحب تُفني وتميت.

العاشق لا يستطيع أن يعيش لنفسه فقط، لا بد له أن يمنح ويُضجّي لأجل المعشوق، لأنّ الحب ليس كفةً واحدةً في ميزان، وليس قدمًا واحدة أو عينًا واحدةً أو أذنًا واحدةً في جسد إنسانٍ، أو وترًا واحدًا في عودٍ أو في كمان أو....

ولا يستقيم حبٌّ من دون التضحية، ومن دون قناعة من يحب بأن ما يفعله هو عين صواب القلب، ويكون في حال أن ما يقوم به هو لصالح ذاته، هذا إذا أراد لها أن تكون سالحةً وكاملةً ونقيةً وعفيةً لا اضطراب فيها . والذي لا يفعل ذلك، فلا عُفْرانَ لما ارتكب من ذنوبٍ في حق الهوى، قبل أن تكون ذنوبًا في حق من يعشق ؛ لأن حاله سنصفُها - هنا - بأنها في تواجدٍ وليس وجدًا، وادّعاءً للعشق وليس عشقًا، وعندها لا ينفع الاعتذار ولا الوساطة، وكثير من "تجارب" العشق عُمرها قصيرٌ بسبب الأنانية، وعدم نضج العشق داخل من في الحال.

إذ من يأخذ عليه بالحتم والضرورة والحب أن يُعطي؛ ولا ينقذ الحب من الافتراق سوى الاتحاد بالمحُوب؛ لأن العشق يوقظ الرُوح من رقدتها، ويذهب بالمرء إلى جنان من يحب، ويُعوّده عبادة الجمال.

فمن يعشق تتكشف أمامه الأسرار، وتفتح له أبواب الكون المقفولة، وتتبدل حياته بالكلية، ويصير شخصًا آخر غير الذي كانه قبل الدخول إلى نار جنة العشق.

ومن لم يحب فهو في قفرٍ؛ لأن الحب ينير الزوايا النائية في نفس المحبوب، ويعتق القلوب من عيها، ويجعل ألسنتها أبجديات جديدة للغة.

فلا رُوح يمكن سجنها، إذا كان الحب هو حريتك غير المحدودة، وغير النهائية.

ومن لم يكن حقيقياً في حبه، فهو من أتعس البشر، وحياته ميّنة، والمعرفة لديه غائبة، والحدس بعيدٌ عن عيني بصيرته، حيث تنمو شجرة جهله سريعًا، بل وتلد أشجارًا تجاوزها، إذ الجاهل بالحب منقبض القلب لا انبساط في رُوحه.



# الحُبُّ فرضٌ عينٍ وليس من النوافل

الحُبُّ – كما أعرف، وكمخلوق يحيا فينا وبيننا - ليس مهنةً بأجرٍ أو من دون، إذ هو هبةٌ تُمنحُ لمن يستحقونها، باعتبارهم سيعيشون حياةً واحدةً فقط، وهو ثروةٌ لا تنفدُ مهما أنفق المُحبُّ منها .

وكلما سئلت: هل العشق رُوحِي أم جسدي؟

أجبت: لا فصل في الوصل..

إذا كان قلبك شاغراً، ينتظر أو يسعى نحو الحُب، أو ملآن بمن يهوى، ففي الحالين لا بد أن يكون فَيَاضًا شفيقًا في نقائه.

والقلب الشاغر لا أحد يحميه أو يضبط إيقاعه، فهو يتيمٌ في عزلته، ووحيدٌ في صحرائه القاحلة، بينما المحبوب يحمي القلب الممتلئ به.

والقلب الفارغ عندي ميت، يحتاج إلى حركتي بعث وإحياء؛ لأن " القلب الفارغ موكل بالشهوات و الأمانى"، وفي الحب الصحيح، القلب يذهب إلى شبيهه ويألفه، مثلما " كل شيء يألف جنسه".

وأنا مع فكرة السَّعي في الحُب؛ لأن في السَّعي رزقًا، والعشق رزق، وفي السَّعي تأتي المصادفات التي ينتظرها الإنسان، وأجملها مصادفات الحُب، وفعل السَّعي هو الجدُّ والنشاط، والمحاوَلَة، والعمل، والذي يسعى يكون سببًا في قضاء حاجته، لا أن يلتزم مكانه، وينأى عن الناس، ويهجرهم أو لا يختلط بهم: ﴿ تَدْتَفِ فِ﴾ [سورة طه: آية 15]. وفي القرآن أيضًا: ﴿ كَرِ سَ نَ نَ نَ تَ﴾ [سورة يس: آية 20]. ﴿ □ □ □ □ □ □ ﴾ [سورة النجم: آية 39]. وها هو المتنبي يقول الأمر شعراً:

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مَمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا بِأَنْنِي خَيْرٌ مَنْ تَسَعَى بِهِ قَدَمٌ

وهناك من لا يسعى، إذ يؤخّر قدما ولا يقَدِّمُ أخرى، جامد، "كجلمود صخر حطه السيل من علي" فيخفي قلبه؛ كي لا يحب . أو كي لا يقع ثانيةً في الحُب، وتتكسر رأس نفسه ، ويذبل قلبه من جديد، ويجرّب الفراق والتعاسة.

وهناك من يخفي قلبه جهلا وعدم فهم واستيعاب. وهناك من يحب ذاته أكثر من حبه لذات من يعشق. والحب فرضٌ عينٍ، لا بد من تعيين فاعله، وليس نافلةً أو فرض الكفاية، الذي إذا قام به البعض سقط عن الباقيين . ففرض العين لا يسقط عن أحد، بينما يسقط فرض الكفاية عن الفرد لو قام

به سواه، أمّا فرض العين فهو أمر مهمّ متحتّم، مقصود حصوله، منظور بالذات إلى فاعله، يرتبط فعله وأداؤه بذات الفاعل وعينه، حسبما نجد في كتب الفقه.

وأنا أعرف أن النافلة مُستحبة، لكنّ الفرض واجب مُلزم لمن يعي ويعرف ويرى، فالحب كالصلاة كتابٌ موقوتٌ على كلّ إنسانٍ يتنفس أو كل نفسٍ تحيا . لأنّ الحُبّ ليس هو "الفرض الذي إذا قام به فردٌ واحدٌ كفى عن الآخرين وسدّ عنهم، ولكن إذا لم يقم به أحدٌ أثموا جميعاً"، فالنافلة هي "العطيّة التي تعطى طواعيّة وليست بواجبة"، وجاء في "لسان العرب" " أنّ : "النَّفْلُ بتسكين الفاء الزيادة؛ لذا سُميت النوافل بذلك؛ لأنّها زائدةٌ على الفرائض".

## ف: الحبُّ فرضٌ وعند البعضِ نافلةٌ..

### وعند الجاهلين لجهلهم عيبٌ..

كما يذكر صديقي الشيخ عبدالقادر أبو قرون، وزير الأوقاف السوداني الأسبق، الذي صدر حكم بإعدامه بسبب آرائه وكتبه.

ومن يمتلك قلباً نقيّاً يعرف كيف يحب؛ لأن القلب المترب والمغبر المملآن بالشوائب التي غيرت وبدلت ملامحه لا يستطيع أن يكمل الطريق نحو ذروة الحُب.

وسلوك المحب نابغٌ أولاً من حُسن تربية قلبه، وقدرته على النبض بشكلٍ طبيعي؛ فالقلب السليم لا يعرف الزيف ولا الازدواج، لا يتقلب ولا يتغير؛ لأنه في الأساس نظيف، ولا يشوبه عيبٌ، ومن كان قلبه مُلوئاً عليه أن ينقيه؛ حتى يصير "خالصاً وأزليّاً منهُ كلّ الأجسام العريبيّة عليّه"، وخالياً ممّا يشين.

والذي يحمل قلباً نقيّاً نظيفاً صافياً، ليس استثنائياً أو نادراً، لأن الإنسان – بطبيعة الحال - خُلِق بقلبٍ نقيٍّ (قبل أن يتلقّى آثار ما يكسبه من خبرات) وتجارب وممارسات ومشاهدات، يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته: "لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده"، وكذلك قال امرؤ القيس لفاطمته في المعلقة الشهيرة:

أغرّك مني أن حُبكِ قاتلي

وأنك مهما تأمري القلبَ يفعل

وفي القرآن: ﴿ذٰث ٲ ٲٲٲ ٲ ٲ﴾ [سورة ق: آية 37].

وعشقُ النساءِ ذهابٌ إلى أصلِ الدين، لأنَّ المرأةَ - التي يأتي منها الجمال والعاطفة والشعور والأمومة والبتولة معًا، وهي الحياة الثانية الجديدة، أو الأبجدية الثانية في لغة المحب - دينٌ يعتنقه من يتحدُّ به.

ومن هنا نشأت وتأصلت عبادة المرأة في الحب، عبادة (ولا أعني هنا أن المرأة ستحل محل الإله) لها كتابٌ أعلى في تعاليمه ومنهجه، وناموس، وقاموس، وطقوس شتى مقدَّسة تُؤدَّى يوميًا، وعُباد يؤمنون بالهوى، سلطانها الكلمة والأداء العاطفي معًا، الحلم والسلوك، الاتحاد والحلول، والتلاوة بلسان القلب، نور الروح فيها هو الإمام الحاضر وليس المنتظر أو المرتجى أو المجهول، حيث السيادة للقلب. فالحب مطلق وليس نسبيًا لا يخضع لقانون أو يمكن وضعه ضمن أطر وأسيجة تسجنه، إذ هو من فصيلة الكائنات التامة والكاملة، لأن الحب هو ما يصوغ أي نظام كوني لا يخضع لمرتكزات أو دوائر الشروط والاستجابات.

والحبُّ - كما أعرف، وكمخلوق يحيا فينا وبيننا - ليس مهنةً بأجرٍ أو من دون، إذ هو هبةٌ تُمنح لمن يستحقونها، باعتبارهم سيعيشون حياةً واحدةً فقط، وهو ثروةٌ لا تنفدُ مهما أنفق المُحبُّ منها.

وكلما سئلت: هل العشق روعي أم جسدي؟

أجبت: لا فصل في الوصل.

إذ للروح جسد، وللجسد روح، ولا عشق يتم من دون طرق باب الروح، وما عداه له أسماء أخرى ليس من بينها الحب أو العشق.

لكن ما زال الكثيرون منا يرون ويعتقدون بأن المرأة كما هي في تراثنا وثقافتنا العربية صدى لا صوت، مطلوبة لا طالبة، محبوبة لا محبة، مرغوبة لا راغبة، مستقبلة لا مرسلّة، ولذا نرى العشق - دائما - منقوصًا لا كمال فيه بين اثنين.

ولذا كان الأقدمون من أسلافنا يعتقدون أن العشق مرضٌ نفسيٌّ؛ لفرط ما يعيشه العاشقُ من مكابدةٍ ومجاهدةٍ ووجعٍ وألمٍ وهمٍّ وحرقةٍ وحزنٍ وتوترٍ وتدميرٍ...، بل رآه الجاحظ (أكبر أسباب الشر). فهل تغير العشقُ وأهله؟



## التعدُّدُ ضدَّ الحُبِّ

لأنني أرى المرأة كيانًا خاصًا ومختلفًا، فأجد الحُبَّ عاطفةً نادرةً، لا نجدُها كُلَّ ليلةٍ، ولا تقدم لنا مع وجبات الإفطار كُلَّ صباحٍ، إن السَّمَاءَ تقودها إلينا، فمننا من يعلو بها عاشقًا، ومننا من يُضَيِّعُها بسبب فهمه الخاطيء للمرأة والحُبِّ معًا.

"أنا" لا أحبُّ التعدُّدَ، كثيرٌ في داخلي، لكنني في النهاية فرد، يعوّل على ما هو جواني، وباطني، وخاص. أوزع نفسي فيمن أحبُّ، وإذا كُنْتُ أبحث عن التعدُّدِ والغنى والتنوّع والاختلاف والمغايرة في القصيدة، فأنا لا أفعل ذلك في الحُبِّ، الذي أراه اتحادًا بين اثنين سيصيران واحدًا بعد ذلك.

الحُبُّ الذي هو تجلٌّ بادخٍ وبازغٍ، ونورٌ سماويٌّ يهّل في أقلِّ من ثانيةٍ. إنه الضوء الذي لا نحسبه بحساب الزمن، لا وقت له أو تاريخ، أو عُمر.

والقصيدة امرأة، والمرأة قصيدة، ولكن هذا التشابه، أو التماثل أو التطابق بينهما، لا يعني ولعًا بالتبديل والتغيير خصوصًا فيما يتعلّق بعشق الشّاعر للمرأة، هُنَا سأستثني "العلاقات"، و"المغامرات" وما هو غايرٌ وهذا كثيرٌ في تاريخ الشعراء، وأنا لا أعوّل عليه بتاتًا، لأنه سلوك مؤقتٌ لا ينتمي إلى العشق، ولكن - للأسف - بات ينسحب على "الشّعراء" بإطلاقهم.

التنوّع أو التعدُّد أراه فقط في "النّظر" إلى "زوايا" المرأة، بحيث ينبغي أن تكون ألف امرأة في امرأة، مثلما سينظر إليها الشّاعر - العاشق.

فهي واحدةٌ وكثيرةٌ بتعدُّدها. أنا أنفي التعدُّدَ لأنه ضدُّ الحُبِّ، وذلك التعدُّدُ له مسميات أخرى عديدة تشاركت فيها كل الحضارات الإنسانية. ولعلّ احتفائي بالمرأة، واعتباري إياها مقدّسة، صاجبة المتن وليست هامشية جعلني أخصّص كتاب "الوصايا في عشق النساء" بجزئيه - حتى الآن - على المستوى الشعري والإنساني - وأنا لا أفصل بينهما - أسعى إلى الديمومة والخلود في العشق الذي هو ليس تجربةً وليس علاقةً، لأننا لو اعتبرناه كذلك، لاختزلنا أبرز القيم الإنسانية في مُسمّى محدود يتسم بتوقيفٍ محدّد هكذا أرى المرأة، وهكذا أرى العشق. وكُلُّ شاعرٍ له رؤيته الخاصة في الحُبِّ، التي تختلف تبعًا لتربيته وبيئته وثقافته ونظريته إلى المرأة، وهذا ينعكس في الكتابة، وتجد أصداءه بارزةً في النصوص.

ويمكن اعتبارُ العشق "موضوعًا" أساسيًا فيما أكتب. وأعتذر عن كلمة "موضوعًا". لأن العشق أكبر وأعمق وأخلد وأبقى من أن يكون موضوعًا، فقط أردت أن أستعير في هذه اللحظة كلام النقاد والدارسين لشعري، ربما لأنني وهبْتُ العشق طفلاً، واستمر معي، وتابَّدَ خالداً. إذ كُنْتُ - ومازلتُ -

أعوّل على ما هو رُوحِي وِقدسي وإنساني وَحَدسي قِبَل الحِسيّ والأيروتيكي (الشبقي) والجسداني، الشهواني، فليس لي في ذلك من اسمي (الشهاوي) نصيبٌ فأنا أعوّل على شهوة روح الجسد، وشهوة جسد الرُوح أنا شاعرٌ يحلم بالحبّ، حتّى لو لم أمارسه، أعيش به، حتّى وإن لم يكن موجودًا، عِشْتُ الذهاب إلى العشق، مثلما عِشْتُ تحولات العشق، تربيتُ تربيةً عاطِفيّةً، هل ربيّت نفسي؟ أتساءلُ؟

فنوال عيسى أمّي عندما ماتت عام 1965 ميلادية كان عمري وقتذاك دون الخامسة، وكان عمرها - أيضًا - دون السادسة والعشرين.

أظن أنه على الرغم من أنّي عِشْتُ في قرية لها تقاليدُها وعاداتها وأعرافها، فقد عِشْتُ في الحُبّ، وجاء ذلك متواشجًا ومتزامنًا مع العشق الصوفي، حيثُ انخرطتُ مبكرًا في الطريقة الشاذلية، وَعِشْتُ زمن التصوف والشعر والعِشْق في الوقت نفسه.

ومن هنا مَنَحْتُ (أو مُنَحْتُ) نوال عيسى وكذا المرأة التي أَعَشَقْتُ قداسةً وعلوًا شفيقًا إلهيًّا.

وَكُلُّ النساءِ رَفَدَنِي روحًا وجسدًا، خِبرةً وسلوكًا، ثقافةً وَمَعْنَى، أنا ابنهن بمعنى أو آخر، هُنَّ فِيّ يسعين، يحيين، ولا يمتن أبدًا، قد يتوارين، لكنهن تحت جلدي، وفي قاع روحي موجودات.

وَالعِشْقُ الرُّوحِي لا يعني أَنَّهُ خالٍ مِنَ الحِسيّةِ أو الايروسية، لأنَّ الشهوانية ليست مرادفًا للحيوانية، إنها "حاجة" إنسانية، لكنني لا أحب لها أن تكونَ عابرةً، مؤقتةً، لا اسم لها، والدخول في جسد من نُحِبُّ إِيْتِمَامًا لِلعِشْقِ، ووصولٌ للرُّوح، إِنَّهُ "الأورجازم"، الذروة، النقطة الأعلى، اللقطة السماوية، النار الأولى أو الأخيرة، التي لم يستطع عاشقٌ أو شاعرٌ أن يكتبها، أو ينجح في التعبير عنها، نحن - فقط - نقارب حالاتنا، ونحاول كتابتها، ونفشل، ثم نعيدُ الكتابةَ عَلْنَا نصل إلى المبتغى. عمومًا، أنا لم "يخب أمني" في العِشْقِ أبدًا، بمعنى أنني لم أفقد الثِّقَةَ، وخيبة الأمل لا أقصد بها هُنا الفقدان، فقدان من نحب، لأن لكل مَحَبَّةٍ ظروفًا إنسانية واجتماعية وشخصية تحيط بها قد تعوق نمو العشق وتطوره واستمراره. ومن ثمّ أنا لا "أعرفُ الرّاحة" في العشق، لأنه أبقى وأعز وأجمل وأبهى ما في الحياة، والعشق الذي أقصده هُنا ليس مرادفًا للجنس. لأنني لم أعرف الجنسَ أبدًا دُونَ حُبِّ، ولا أراه على خريطتي الإنسانية، ومسيرتي الشعرية.

فالحبُّ إنساني، أما الجنس فهو سلوك احتياجي بشري. فكم رأيتُ بشرًا يمارسون الجنس مع نساء لم يعرفوا - حتّى - أسماءهنَّ (!).

وربّما لنشأتني الدينية، ووجودي في بيتٍ أزهرِيّ، ودخولي في التصوف مبكرًا، وانشغالي بالموالد والحضرات جعل نصّي الشعري في العِشْقِ مُشْبَعًا بالقداسة للمرأة، واستخدام مفردات علوية وإلهية ونبوية وقدسية تناسب "إيماني" بالمرأة ونظرتي إليها، حيث إن المرأة ليست مُزَيَّنًا للنصّ، بل هي عَصْبُهُ، وَأَسَاسُهُ، وَاسْتُحْتَاجَ إلى كتابةِ عملٍ جديدٍ كي أرّم أعمالاً سابقة بسبب "النظر إلى

المرأة"، فقط أحتاج أعمالاً أُخرى لأتمم النَّاقص، وأكمل اللوحة، وأصل إلى النصِّ المبتغى، المرجو، المأمول، النص المستحيل، المنشود، الذي أطلب وأرغب وأحلم.

هل أذيع سرًّا إذا قلت إنني تخفيتُ وراء " نوال عيسى " كثيرًا. وقد بلع كثيرٌ من نُفاد شعري الطعم. لم تكن قناعاً، بل ستاراً جمالياً . فأنا بطبعي لا أحب الأقنعة، ولا أحب المباشرة، أو التقريرية في الكتابة. وأوتيت من "الشجاعة" و"الحرية"، و"الجرأة" أن أكتب أو "أقول" ما أراه مفيداً لنصِّي فنياً.

أحاول أن يكون كُلُّ نصِّ لي "أورجازم" روحي وجسدي، لأن "الأورجازم" تنويجٌ، ووصولٌ، وكمال، وتمام الجحيم، ونسيانٌ للذات، وانتلاف المختلف.

و"الأورجازم"، عموماً، لا يتحقّق لعابرٍ، أو مُتسلِّ، أو لاهٍ، أو عابرٍ أُسرّةٍ، لأنه لا يتحقّق إلا في الاتحاد، والانتشاء، والعلو، وشجرة الذروة، وبلوغ المنتهى.

وهذا لا يتحقّق - أيضاً - إلا مع امرأةٍ أصل، وليست ظليلاً، فالمرأة عاشت وما تزال تعيش في مجتمعاتنا وحتى في "المجتمعات المتقدمة" في الظلِّ، وأنا نقلتُ المرأة إلى المتن، وصارت فاعلاً في "الوصايا في عشق النساء" على غير ما فعلت العرب، وما وضع أئمة فقه العشق من كتب.

وهذا انتهاك للسائد، ومخالفة للمألوف، وذلك عن قناعةٍ مني وإيمان بطاقات المرأة، أنا لا أنظر قط إلى المرأة باعتبارها طاقةً جنسية جسيّة، وإلا أين تذهب الطاقات الإنسانية والفكرية والإبداعية والثقافية والروحية، للأسف صفوة النخبة يتعاملون معها كجسد فقط، وهذه الازدواجية هي أحد أبرز أسرار تأخرنا اجتماعياً ونفسياً.

ولأنني أرى المرأة كياناً خاصاً ومختلفاً، فأجد الحبَّ عاطفةً نادرةً، لا نجدها كُلَّ ليلة، ولا تقدم لنا مع وجبات الإفطار كُلَّ صباح، إن السَّماء تقودها إلينا، فمننا من يعلو بها عاشقاً، ومننا من يُضَيِّعُها بسبب فهمه الخاطيء للمرأة والحب معاً.

ولأن الحبَّ "نشاط" فردي كالشعر تماماً، عرفت منذ البداية، كيف أحتمي به وأنميّه وأطوره وأسعى إليه، بحيث نلتقي في نقطة نادرة - أيضاً- ننطلق منها، ونذهب إلى الأفاصي، وإلى البعيد من بلاد الرُّوح، وأقاليم الجسد.

وأنصوّر أن أهمَّ بَيانٍ لي في العشق هو ما جاء في كتابي "الوصايا في عشق النساء" فدون تعمّد أو تقصّد كتبت بياني، أو أتممتُ رسالتي في العشق، هذه الرسالة ستظل ناقصةً بالتأكيد، ما دمت حيّاً، إذ إنني - حنّماً - سأضيف إليها ما يُعمِّقها. فَجَسَدُ المرأة بالنسبة لي ليس وسيلة إمتاع وإشباع وتلذذ فقط، إنه يتحول معي إلى "عقل" ناضج يقول ويكتب ويفكّر ويحاور ويناقش ويسأل ويدخل في جدلٍ دائم حول الأشياء والعالم والموجودات. وكذا روح المرأة أستطيع لمسّها، إذ تصيرُ هي الأخرى جسداً. هذا المزج أو الاتحاد " العجيب " المدهش بين الرُّوح والجسد، إذ يتبادل كُلُّ منهما "عمله" أو "وظيفته" بعد أن يؤدي كُلُّ منهما " دوره " منفرداً، ثم متحدًا، متبادلاً.

هذا هو العشق الذي أبتغيه، وأحاول تحقيقه في النصّ الشعري. لأنّ الحُبَّ مَا هُوَ إِلَّا اكْتِمَالٌ نَسَعَى إِلَى تَحْقِيقِهِ، وَإِدْرَاكِهِ، وَهُوَ سِرٌّ مُغْلَقٌ وَمَفْضُوضٌ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ، وَمَا بَيْنَ الْكَمَالِ وَالْاِكْتِمَالِ وَالْكَشْفِ وَالْكَتْمَانِ وَالْأَسْرَارِ تَكُونُ الْمَرْأَةُ. وَأَكُونُ أَنَا الَّذِي أَسْعَى إِلَى الدِيمُومَةِ فِي الْعَشْقِ. حَيْثُ لَا دِيمُومَةَ دُونَ بَدَلٍ، وَمَنْحٍ، وَوَفَاءٍ، وَعَطَاءٍ، وَسَخَاءٍ.

\* \* \*

## مُداواةُ النفوسِ بالحُبِّ

البيوت لا تتأسَّس، ولا تقوى أعمدتها على الحمل والتحمُّل إلاَّ بالحُبِّ، وإذا خربت النفوس، وقحلت القلوب وتكسَّرت، فلا يمكن أن نكون بشرًا أسوياء.

إذا كنتَ في عشقٍ؛ فأنت لا محالة خاضعٌ لحُكمِهِ، وحكمتِهِ، وحميميتِهِ، وحميته، وحرارته، وحاله، وحربه، وحرثه، وحدثه، وحلولة فيك، وحُرِيته، وحركيته، وحملِهِ، وجذبه، ووجوده، وتمكُّنه منك، وسيطرته على جوارحك؛ لأنه ببساطةٍ ويُسرٍ ودون تعقيدٍ يمنحك فردوسك المفقود، ويحل لك كلَّ العُقد، ويفكُّ لك معضلاتك، ومشكلاتك في الحياة، وما أكثرها في حياة كلِّ إنسانٍ مَنًا.

ولو أن كلَّ عاشقٍ فينا تناول القلم، وكتب سيرته في الحُبِّ؛ لعمَّ العشق بين الناس، وأدركوا قيمته في حياة القادة، وأهل الفكر، والفقهِ، والسياسة الذي سجَّل سيرته العشقية في كتابه العمدية، الأشهر إنسانيًا بين العالم "طوق الحمامة في الألفة والألاف"، حيث كان هاديًا "إلى الحياة العاطفية لعددٍ من معاصريه، ورفاقه، الذين شغلوا مناصب رفيعة في الإدارة، والقضاء، والجيش على أيامه"، كما يذكر الطاهر مكي في مقدمة تحقيقه لكتاب ابن حزم (384 - 456 هجرية / 995 - 1063 ميلادية).

هل يقدر- في زماننا - فقيهٌ أو شيخٌ أو قاضٍ أو عالمٌ أو صاحب مركزٍ أو منصبٍ في الشرطة أو الجيش أن يكتب سيرة عشقه؟

الإجابة بالطبع هي: لا؛ لأننا صرنا أكثر تراجعًا وتخلُّفًا ممَّا كان يحدث في زمن ابن حزم، وهو الفقيه الظاهري والعالم الأشهر في زمانه.

وقد يقول أحدهم إنني أخجل من الحُبِّ وأراه من التوافه أو من النوافل في الحياة، ومن ينادي به يستحق الرجم، فنحن مشغولون بما هو أجدى من الحُبِّ، وهو لا يعي ولا يدرك أن البيوت لا تتأسَّس، ولا تقوى أعمدتها على الحمل والتحمُّل إلاَّ بالحُبِّ، وإذا خربت النفوس، وقحلت القلوب وتكسَّرت، فلا يمكن أن نكون بشرًا أسوياء، فمثل هذا يُرد عليه بقول الصحابي أبي الدرداء: "إنني لأستجم نفسي بشيءٍ من اللهو"، وفي نص آخر: من الباطل "لأتقوى بذلك فيما بعدُ على الحق"، ويرد عليه أيضًا بمئات الأسانيد والنصوص، ولعل من أشهرها: "إنَّ هَذِهِ الْقُلُوبُ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ".

ومن المفترض أن زماننا قد ارتقى وازدهر وتحضَّر، لكنَّ الكثيرين من أهله يرون أن الحُبِّ عورة، ومرض، ومحظور، وحرام، وممنوع، ومُنكر، وفاحشة، ومعصية، ورديلة، وباطل، وغريزة دنيئة،

ومذمّة، وعيب، ومبعث الضرر، وقلة تربية وأدب، وجنون وذل، ولا يفقهون أن الحُب يحوّل الإنسان من جبانٍ إلى شجاع، ومن بخيلٍ إلى كريمٍ سخي، ومن غليظ الطبع إلى ظريفٍ باسمٍ ضاحكٍ، ومن جاهلٍ إلى متسامٍ مدركٍ وعارفٍ طبائع النفوس، ويجعل الغافل فطنًا، والغبي ذكيًا، والعشق يجدد الحياة، ويجلو العقل ويهذب، ويحسن الخلق، ويصفي الذهن والفهم، ويبعث على السُرور، والسعادة، ورضا النفس، والرحمة، ويحمل الإنسان إلى مرتبة النقاء، ومقام الصفاء والألفة.

يقول الفضل بن سهل راويًا عن ذي الرياستين عن فضل العشق بأنه: "يطلق اللسان العبي، ويرفع التبدل، ويسخي كف البخيل، ويبعث على النظافة، ويدعو إلى الذكاء".

ونحن نعيش بالحُب، ولا نتحلّى به أو نتزيّن، ونجعله شارةً فوق رؤوسنا للمباهاة والامتياز عن أقراننا، نزيد به وصلنا، كي يزداد اتصالنا بالمحبوب، بلا مُفارقة، أو مُباعدة، أو نأي، أو ملل، أو سأم.

الحُب هو الأوّل والأنجع لمداواة النفوس من أكارها، وأمراضها، وهواجسها، وشكوكها، وآلمها، ووساوسها.

ألم نر الخليفة العباسي عبد الله المأمون (170 هجرية - 786 ميلادية / 218 هجرية - 833 ميلادية) - وهو سابع خلفاء بني العباس، وكان أميرًا للمؤمنين - يطلب من ثمامة بن أشرس أن يعرّف له العشق؟ فقال ثمامة: "العشق جليسٌ ممتع، وأليفٌ مؤنس، وصاحبٌ مُلكٍ، مسالكة لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائزة، ملكٌ الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها، وأعطي عنان طاعتها، وقود تصرفها، توارى عن الأبصار مدخله، وعمي في القلوب مسلكه"، فقال له المأمون: أحسنت والله يا ثمامة، وأمر له بألف دينار.

وعن الأصمعيّ، قال: دَخَلْتُ عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ (149 - 193 هجرية / 763 - 809 ميلادية)، فَقَالَ لِي : يَا أَصْمَعِيُّ إِنِّي أَرَقْتُ لَيْلَتِي هَذِهِ، فَقُلْتُ : مِمَّ ؟ أَنَا لَمْ أَعِيْنُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ : فَكَّرْتُ فِي الْعِشْقِ، مِمَّ هُوَ ؟ فَلَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ، فَصِفْهُ لِي حَتَّى أَخَالَهُ جِسْمًا مَجَسَّمًا، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ عِنْدِي قَبْلَ ذَلِكَ فِيهِ شَيْءٌ، فَأَطْرَقْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قُلْتُ : نَعَمْ يَا سَيِّدِي، إِذَا تَقَادَحَتِ الْأَخْلَاقُ الْمُتَشَاكِلَةُ، وَتَمَارَجَتِ الْأَرْوَاحُ الْمُتَشَابِهَةُ أُلْهَبَتْ لَمَحَ نُورٍ سَاطِعٍ يَسْتَضِيءُ بِهِ الْعَقْلُ، وَتَهْتَرُ لِإِشْرَاقِهِ طِبَاغُ الْحَيَاةِ، وَيُتَصَوَّرُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ خَلْقٌ خَاصٌّ بِالنَّفْسِ مُتَّصِلٌ بِجَوْهَرِيَّتِهَا يُسَمَّى الْعِشْقُ، فَقَالَ : أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ، يَا غُلَامُ، أَعْطِهِ وَأَعْطِهِ وَأَعْطِهِ، فَأَعْطَيْتُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ".

وقال ابن القيم الجوزية (691 - 751 هجرية / 1292 - 1350 ميلادية) وهو فقيه حنبلي في القرن الثامن للهجرة: "بالمحبة وللمحبة وُجدت الأرض والسموات، وعليها فُطرت المخلوقات، ولها تحركت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها، واتصلت بداياتها بنهاياتها، وبها ظفرت النفوس بمطالبها، وحصلت على نيل مآربها، وتخلصت من معاطبها، واتخذت إلى ربها سبيلًا".

أما يحيى بن معاذ ( 830 - 871 ميلادية )، وهو أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، فيقول: "لو كان إليّ من الأمر شيء ما عدّبتُ العشّاق، لأن ذنوبهم ذنوبُ اضطرارٍ لا ذنوب اختيار".

ومن قبله قال علي بن أبي طالب (23 قبل الهجرة - 599 ميلادية / 40 هجرية - 661 ميلادية): ( ... الحب أساسي، والشوق مركبي).

وقال المتنبي:

وعذلتُ أهلَ العشق حتى ذقته..

فعجبتُ كيف يموتُ من لا يعشّقُ..

وقال المرزباني، سئل أبو نوفل: هل سلم أحد من العشق؟ فقال: "نعم الجلف الجافي الذي ليس له فضل ولا عنده فهم".

نحن العرب سلالة حضارةٍ عشقيّ، عُرف شعراؤها العشّاق الأساسيون في الشّعْر والعشق، وهم من أهل الطبقة الأولى في الغزل بأسماء معشوقاتهم مثل : قيس ليلي، قيس لبنى، جميل بثينة، عروة عفراء، عنتره عبلة، وكثير عزة، ... وسواهم ممن حملوا أسماء حبيباتهم، وحفظهم وعرفهم التاريخ بذلك.

لا يعرف عشق المرأة إلا أرياب البصيرة، بينما أرياب البصر – فقط – يحسنون النظر إلى جسدها، وحسنها، وزينتها، وهذا البصر لا أنفيه عن أهل البصيرة، ولكنني أردت أن أؤكد أهمية البصيرة أولاً عند النظر إلى المرأة، ومن بعدها البصر.

فإذا كانت البصيرة فريضة، فإن البصر نافلة . لأنها تكشف وتبصر ما هو محتجب، ولا يدرك ذلك إلا العارفون:

وأما الذي أنتَ أهلٌ له..

فكشّفكُ لي الحُجبَ حتى أراك.

\* \* \*

# العشقُ اختيارٌ لا اضطرار

إذا توافقَ نجمُك كعاشقٍ مع نجمِ معشوقك، فيحدث العشقُ، بعد توافقِ الرُّوحينِ، وتقاربِ طبائعهما وامتزاجهما وتآلفهما واتحادهما.

"إنما يملك المولى من عبده بدنه،

فأمَّا قلبه فليس له عليه سلطان" - الجاحظ

العشقُ الذي يتربَّى في حاضنة القلب اختيارٌ لا اضطرار، لأن أساسه الدهشة والمتعة والسؤال، إذ يرتقي بالحياة، ويجعل المرء مقبلاً عليها، راغباً فيها أكثر من أي وقتٍ مضى عليه، أو مرّاً به، أو عاش في ظلاله.

ومن دخلَ العشقَ - الذي هو شريعةٌ من شرائع الوجود - شفقةً أو مُجاملةً أو منفعةً أو مصلحةً، أو لغايةٍ من الغايات فشل، وخسر نفسه، هذا إذا كانت له نفسٌ من الأصل .

فمُت من أجل عشقك، بدلاً عن أن تعيش مستنفعًا مستفيدًا منه.

فمن طلب اللذةَ القصوى، أو العظمى في العشق، عليه أن يمنح نفسه كاملةً، وألاً يُبقي لنفسه شيئاً منها، إذ يُعطي الكلَّ للمعشوق؛ لأنَّ أية بقيةٍ تعني أنَّ الحُبَّ ناقصٌ، ولا كمال فيه.

فما إن يُسلِّط المرءُ فكره كلياً على امرأةٍ، حيثُ تحتلُّ خياله، وتملأ رُوحه، مُستعرضاً زينتها وحُسنها، وثمارَ جسدها، حتى يقع العشقُ الذي هو بالأساس ألفةٌ وإلهامٌ.

فإذا توافقَ نجمُك كعاشقٍ مع نجمِ معشوقك، يحدث العشقُ، بعد توافقِ الرُّوحينِ ، وتقاربِ طبائعهما وامتزاجهما وتآلفهما واتحادهما، إذ إنَّ كوكبَ رُحلٍ لديك " يُهيئُ الفكرة، والتمني، والهيجان، ... " بينما عطارٌ لديك يُهيئُ التلطفَ والخلاعة، في حين أنَّ كوكبَ الزُّهرة يُهيئُ العشقَ والولءَ والهيمنان، والرِّقة، ويبعث في النفس التلذُّذَ بالنظر، والمؤانسة بالحديث، والمُغازلة، ويدعو إلى الطرب وسماع الأغاني"، وهذا ما قال به أرسطو ( 384 ق.م - 322 ق.م ) ونقلته عنه العرب، وجاء في كتبهم من بعد.

وإن كنت ذا حظٍّ، فسيشملك كوكب الزُّهرة، وسيحملك إلى داره؛ وستصير من " أشد الناس غراماً، وأعظمهم هياماً "؛ ولأنه كوكبُ العشق؛ فقد أطلق الفقيه الإمام محمد بن داود الأصبهاني (255 - 297 هجرية / 869 - 910 ميلادية) صاحب المذهب الظاهري "الزُّهرة" على أول كتابٍ عربيٍّ

في العشق، وهو الكتاب الذي ألهم ابن حزم الأندلسي في كتابه الشهير "طوق الحمامة في الألفة والألاف".

وأقول مع ما جاء في ديوان الصبابة لأبي حجلة التلمساني (725 - 776 هجرية / 1325 - 1375 ميلادية): "إنَّ المرءَ يُوزنُ بعشقه، (ولولا العشقُ لم يُذكر له اسمٌ، ولا جرى له رسمٌ، ولا رُفِعَ له رأسٌ، ولا ذُكِرَ مع الناس)".

وأنت لا ترتقي إلا بالحب، ولا تصل إلى معارج السعادة إلا به، ذلك القديم قَدَم الأزل، والذي يستمر جديداً حاملاً تاريخه وسيرته التي تورّعت على بني البشر، الذين يستحقون أن يرفعوا رايته عنواً لهم، وعلى مجتمعاتهم المبنية عليه، وذلك الحب هو الذي رآه لسان الدين بن الخطيب (713 هجرية - 1313 ميلادية / 776 هجرية - 1374 ميلادية): "غايته نعيمٌ لا ينقضي أبده، ولا ينفد مدده، ولا يفصل وصله، ولا يفارق الفرع أصله".

ورآه الجاحظ: "... من أكبر أسباب جماع الخير"، ولما تأمل الجاحظ شأن الدنيا وجد الحب ( أكبر نعيمها، وأكمل لذاتها، ظفر المُحب بحبيبه".

وأنا من الذين يدعون إلى العشق ويرغبون فيه؛ لأنه يجعلك تكشف أصل الأشياء بسهولة ويسر، ودون تعقيدات، ليس لأنني خبرته، أو خبيرٌ به، بل لأنني أدرك ماذا يفعل في النفوس التي تفتح أبوابها له، والنفوس العاشقة عندي هي نفسٌ قدسية، تصل بصاحبها إلى مرتبة "الإنسان الكامل"، حيث يصدر عنها نورٌ خاصٌ ساطعٌ ظاهرياً وباطنيّاً، يتصل بجواهرها؛ لأن العشق كما يذكر داوود الأنطاكي "أطف موجودٍ نشأ في الوجود"، حيث المعاني واضحة، والتعبيرات مُلقاة على قارعة طريق العاشق أو المعشوق، وحيث ينتصر المرء لما هو سامٍ وراقٍ ونقيٍّ وعالٍ في سموقه وخصوصيته، كما أنه يكفل للمرء الطمأنينة والأمن والأمان دون أن يصيبه خوفٌ، أو ينتابه قلقٌ، أو يقابله شكٌ أو ريبَةٌ مهما تكُن صورته.

عندما تتعارف رُوحان، وتأتلفان وتأتلفان، يذهب بدنُ العاشق نحو بدنِ المعشوق؛ لأنه وقع اتفاقٌ، ولم يحدث تنافرٌ أو تناكرٌ أو اختلافٌ؛ حيث إن الإنسان في الأساس مُكوّن من روحٍ وبدنٍ، وعندما تظهر إشارةُ الاتحاد بين العاشق والمعشوق، يفرح البدن - الجسد، ويبدأ هو الآخر في طلب الامتزاج والحلول، والدخول إلى الفردوس، حيث تكون الأبدية بلا مُفارقة، وحيث يكون صونُ الحب من التعدّد والتغيير؛ بغية البقاء والخلود والديمومة، والإيمان بامرأةٍ واحدةٍ حتى؛ أو حد؛ الموت، اعتماداً على ربّانية جوهر الإنسان، ذلك المخلوق من نفسِ الرحمن: ﴿ تَو تَو تَو تَو ﴾ [سورة الحجر: آية 29]، وهو عندي حُبٌ مُطلقٌ لا نهائيٌّ، بلا أسقفٍ ولا حدود، وهنا الحب لا يعني امتلاكاً دائماً، بقدر ما هو امتلاك للنور والخير الذي يحققه العشق، ذلك الحب الذي يقول عنه الجاحظ: " الحب الذي هو أصلُ الهوى، والهوى الذي يتفرّع منه العشق، والعشق الذي يهيمُ له الإنسان على وجهه أو يموت كمدًا على فراشه".

والذين يرون أنّ العشقَ "تعطيل للإرادة" أو "ضعف وشنوذ" كعبّاس محمود العقاد (أسوان 1889- القاهرة 1964 ميلادية)؛

ما هو إلا نتاج عُقدة نقص العشق عنده، وعند غيره ممن تبثُّوا مبدأ "ذم الهوى"، ومنهم في زماننا وأزمنة سابقة من طعن على كُتب الأسبقين من الأسلاف في علوم العشق.

وهؤلاء حُرِّموا من نعمة العشق، ولذا رأوا غيرهم من القدامى والمحدثين من أهل الدنس، والإثم، والرذيلة، والرجس، والخبيل، وإلا ماذا أقول عن العرب من الفقهاء والفلاسفة والأئمة والقضاة الشرعيين، والأطباء والعلماء والنحاة واللغويين الذين تركوا تراثاً عشقياً مُهمّاً ومؤثراً في الإنسانية، إذ لا يمكن وصفهم بالفجرة الفسقة الفسدة، والأسماء أكثر من أن تُحصى أو تُحصَر، كأنهم لا يعرفون أن الحب أسمى حضارة بين البشر، وأرقى فضيلة على الأرض، من قبل أن تنزل الديانات السماوية، ومن يتبع قلبه ينهض ويتقدم.

ولأن المرأة هي (التي تُخطب وتُراد، وتُعشق وتُطلب، وهي التي تُفدى وتُحمى) كما جاء عند الجاحظ (159- 255 هجرية / 776 - 868 ميلادية)، فنحن من المفترض أن نعيش الحياة نسعى إليها، ونحج إلى كعبتها.

\* \* \*

# امرأة بصيغة مُنتهى الجموع

المرأة في عين العاشق كثيرةٌ ومُتعدِّدةٌ ومتنوعةٌ، وكل يومٍ هي في شأن، أي هي نساءٌ كثيراتٌ في امرأةٍ واحدةٍ.

عندما تحب تصغي الأرضُ لك، وتمنحك السمواتُ آذانها من دون أن تطلب، ويصير كل ما على الأرض مشحودًا متعالياً مرتفعًا، ومُستنفرًا ومتوهجًا ومتوجًا وحرًا وحرًا وفي دهشةٍ.

مهجوسٌ أنا منذ طفولتي المبكرة، وأنا في قرينتي "كفر المياسرة" بفكرة ترسيخ الحُب في قلوب البشر وعقولهم معًا، إيمانًا مني بأن الحُب هو الباب الأول والأساسي للدخول إلى كل شيء وأي شيء، وتزداد حماستي شخصيًا وموضوعيًا يومًا بعد يومٍ في الكتابة عن وفي وحول الحُب شعرًا ونثرًا، للوصول إلى الارتقاء والتسامي بالذات، والذهاب نحو النور الكامن في النفوس، وغسل الروح من أدرانها، وعلاجها من أمراضها المتوطنة والمزمنة، والقضاء عليها نهائيًا بدواء الحُب، بحيث يكون هذا الحُب دون غرضٍ أو غايةٍ سوى الحُب للحُب.

وكم حلمتُ أن يُدرّس "فن الحُب The art of love"، (ألم يترجم المستشرق البريطاني آرثر آربري (1905 – 1969 ميلادية)، كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم الأندلسي إلى الإنجليزية واضعًا عنوانًا آخر من عنده، وهو "The art and Practice of Arab Love"، و"علم نفس الحُب Psychology of love" في المدارس والجامعات، مع مقررات من كتب الحُب الأساسية التي أنجزها الأسلاف في تراثنا العشقي العربي وما أوفرها وأكثرها وتنوعها.

وقد لاحظتُ أن عقود الأربعينيات والخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، قد شهدت صدورَ كُتب ودراسات علمية ناقشت ودرست ظاهرة الحُب في تاريخ العرب، بينما بدأت التأليف تفلُّ أو تتراجعُ أو تختفي بعد ذلك؛ كأن الأكاديميين في الجامعات رأوا أن الحُب عيبٌ، وهو غير جديرٍ بالدراسة والبحث والتحقيق والتقديم داخل أروقة الجامعة (ورُبَّما من أبرز الأسباب تشدُّد بعض الأساتذة وتزمتهم، خصوصًا الذين أعيروا لسنواتٍ طويلةٍ إلى جامعاتٍ عربيةٍ تعتبر الوهابية هي الدين الحق، وما سواها الباطل بألفٍ لام التعريف)، مع أن أساتذتهم قد خصَّصوا سنواتٍ ليست قليلةً من أعمارهم لدراسة تاريخ الحُب وتطوره عند العرب، كأننا نعيش زمن الجاحظ، عندما وصفه الأفظاظ - وليس الأفضاذ من المشتغلين بالدين - بالفاسق والآثم؛ إثر كتابته رسالتين في العشق هما: "رسالة في العشق والنساء" و"رسالة القيان"، وهناك كثيرون من فقهاء ذلك الزمان، قد أدانوا الهوى واتباعه، حتى أننا نجد الخرائطي (238-327 هجرية/ 853-939 ميلادية) يُخصِّص فصلًا في كتابه "اعتلال القلوب" ويسميه: "في إدانة الهوى واتباعه"، وسيأتي ابن الجوزي (510-597 هجرية/ 1116 ميلادية) بعده بأربعة قرون؛ ليؤلف كتابًا شبيهًا لهذا الفصل عنوانه "ذم الهوى".

والعاشق الحق ليس قانصًا أو صائدًا؛ لأن العاشق أسمى من أن يبحث عن طريدة أو فريسة، ولا بد له من أن يتسم بالكرم والفروسية والتحابب، وأسوأ الرجال هم المُطارِدُون؛ لأن القنص فيه توحشٌ وفُحشٌ وتهجُّمٌ وافتراسٌ وغدرٌ وقتلٌ وذبح. ومثل هذا الصنف من الرجال هم حمقى، والعشيق أصلاً لا يكون إلا بين اثنين لهما عقلان وقلبان ورُوحان تفقهان، ونفسان ماؤهما النور والمحبة - كما جاء في الأثر - لا تقع بين أحمقين.

ومثلي لا يرى المرأة كائنًا مفردًا ذا دلالة واحدة، بل أنظر إليه باعتباره مفردًا له صيغة الجمع، بل صيغة منتهى الجموع التي تدلُّ على الكثرة، ولا أبالغ إذا قلت إن المرأة اسم جمع لا واحد له من لفظه، مع أن ذلك ضد أعراف وقواعد اللغة، لكن المرأة بكل ما فيها هي ضد أي قانون، ونقيض أي عُرف، إذ المرأة في عين العاشق كثيرةٌ ومُتَعَدِّدةٌ ومتنوعةٌ وكل يومٍ هي في شأن، أي هي نساءٌ كثيراتٌ في امرأةٍ واحدةٍ، وهذه ليست من قبيل مبالغات الشعراء، ولكن واقع الحال يقول ذلك، وعلى المرأة أن تدرك كُنْهها، وتعرف حالها، وتفقه طاقاتها الروحية والنفسية والجسدية، وما تحمله من إعجازٍ وإيجازٍ، وقديمًا قال قيس بن ذريح، الملقَّب بقيس لُبنى (625 - 680 ميلادية) مخاطبًا لُبناه:

أُحِبُّكَ أَصْنَافًا مِنَ الْحُبِّ لَمْ أَجِدْ

لَهَا مَثَلًا فِي سَائِرِ النَّاسِ يُوصَفُ

فَمِنْهُنَّ حُبٌّ لِلْحَبِيبِ وَرَحْمَةٌ

بِمَعْرِفَتِي مِنْهُ بِمَا يَتَكَلَّفُ

وَمِنْهُنَّ أَلَّا يَعْرِضَ الدَّهْرَ ذِكْرُهَا

عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا كَادَتِ النَّفْسُ تَتَلَفُ

وَحُبُّ بَدَا بِالْجِسْمِ وَاللَّوْنِ ظَاهِرٌ  
وَحُبُّ لَدَى نَفْسِي مِنَ الرُّوحِ الْطَفُّ  
وَحُبُّ هُوَ الدَّاءُ الْعِيَاءُ بِعَيْنِهِ  
لَهُ ذِكْرٌ تَعْدُو عَلَيَّ فَأَدْنِفُ  
فَلَا أَنَا مِنْهُ مُسْتَرِيحٌ فَمَيِّتٌ  
وَلَا هُوَ عَلَيَّ مَا قَدْ حَيِّبْتُ مُخَفِّفٌ  
فِيَا حُبَّهَا، مَا زِلْتُ حَتَّى قَتَلْتَنِي  
وَلَا أَنْتَ، إِنْ طَالَ الْبَلَاءُ لِيَّ مُنْصِيفٌ.

فالعاشق يفضل امرأته على نساء العالمين، وفي هذه المفاضلة، قال قيس لبني:

لقد فضلتُ لُبْنَى على الناسِ مثلما..

على ألف شهرٍ فضلتُ ليلةَ القدرِ

وينبغي أن يكون قوله هذا هو البيان العشقي الذي يلتزم به المحب في علاقته بمحبوبه.

وهنا أعود إلى تعلق رُوحيهما ببعضهما من قبل أن يُخلقا: (تَعَلَّقَ رُوحِي رُوحَهَا قَبْلَ خَلْقِنَا).

وعامةً دون الحُب لن يستطيع العاشق أن يحقّق أمنه النفسي، وأمانه الاجتماعي وسط المُحيطين به ، أو لو كان بمعزل عن الناس.

فالحب شيخٌ وأنت مريدٌ له، وعندما يطلبك فلا بد من التلبية، لأن غيرك يرجوه وقد لا يأتي له، أو يتأبى ويرفض، إذ يراه ليس جديرًا بالحُب، ولا يستحقه، أو هو غير مُؤهل لحمله جُواه.

وربما أبرز حاجة للإنسان العائش على هذه الأرض هي الحُب، وبدونه سيكون هناك ظلمة، وظلم، وافتراق، وحقد، وحسد، وبغضاء، ومشاحنات، واقتتال، واحتراب، وبؤس، وإفكار للأرواح، وخراب.

والشاعر العربي - الذي يرى في المرأة التي يُحبُّ غير ما تراه العيون - كان من تمنياته وهو ابن البادية أن يلتقي كل عاشق معشوقه سواء كان من البشر أو من الأنعام، كي يسود الحب في الأرض ، فيقول عروة بن حزام (... - 30 هجرية/ ... - 650 ميلادية):

فيا ليتَ كلَّ اثنين بينهما هوى

من النَّاسِ والأنعامِ يلتقيان

أمامي هوى لا نومَ دونَ لِقائِهِ

وَخَلْفِي هوى قد شَفَنِي وبَرَاني

وإني لأهوى الحشرَ إذ قيلَ إنني

وعفراءِ يَوْمَ الحشرِ مُلتَقِيان.

المنح الكامل غير المنقوص لمن تعشق، وهو ما يمكن تسميته بـ"الاستشهاد عشقاً"، بمعنى أن يعيش المحب حياته كلها لمن سكن بحر رُوحه الواسع، واستقر في قلبه الفسيح، بحيث يصير الحُب المضطرم إقامة لها صفة الديمومة، تمتد بجذورها عميقاً في أرض من يحب، وليس زيارة لها صفة القطع، والتقلب، والمزاجية (والعشق الحق امتزاجٌ لا مزاج)، وعدم الانتظام.

والعاشق - صاحب التجربة والخبرة الواسعة والنضج الإنساني في الحياة - من المفترض ألا يعطي أولويةً لأحدٍ أو لشيء سوى لامراته التي تنير شعوره، وتشعل إحساسه، وتهيج ما كُمّن فيه.

\* \* \*

## مآثر أهل العشق

والحُب في الأصل انحياز تام، لا يمكنُ إمساكُ العصا فيه من المنتصف، أو الترضية، أو المُجاملة، أو تسديد دينٍ أخلاقيٍّ أو اجتماعيٍّ أو أسريٍّ، أو مُمارسة شفقة، أو توجيه شكر، أو صدقة جارية، أو واجب نفسي، أو رغبة في المُجامة سرعان ما ستنتهي، أو نزوة حيال جسدٍ فاتنٍ باذخٍ سرعان ما سيتغير ويتحوّل ويذبل، كأبي كائنٍ حيٍّ له دورة حياةٍ معروفة ومُتوقّعة.

" أشدُّهم حبًّا..

أعظُمهم أجرًا".

عبد الله بن عباس (3 قبل الهجرة - 619 ميلادية / 68 هجرية - 688 ميلادية).

"كُلُّ عَشِقٍ يُسَمَّى حَبًّا..

وليس كُلُّ حُبٍّ يُسَمَّى عَشَقًا".

الجاحظ (159 - 255 هجرية / 776 - 868 ميلادية).

كنتُ أطمحُ أن أكتبَ رسالةً في فضل العشق على خلق الله، لا تطولُ في غير طائلٍ؛ هادفًا جلبَ الراحةِ إلى النفس . ولإيماني بأنه الموضوع "الذاتي والمادي معًا" الأكثر كونيّةً بين سائر الأمم، إذ هو وحده اللغة الأشهر والأشيع بين الناس، وهو العبادة " تصوف العشق"، التي يمارسها الناس جميعًا على اختلاف دياناتهم وقومياتهم وأجناسهم.

فما أكثر الكلمات الدالة على العشق في اللغة العربية، وهي كلمات ليست مترادفة، بل كل كلمة لها ظلالٌ من المعاني الدقيقة.

وما كتابتي المتصلة في الحُب منذ سنواتٍ بعيدةٍ إلا محاولةٌ للسَّير في هذا السَّعي الذي أبتغيه، كأبني كاتبٌ وكاتمُ السرِّ، وكأنما استعبد العشق قلبي، وأنا الذي دائمًا ما أقرأ في كُتب وتآليف أهل العشق لأسلافي الأولين عبارات من نوع: "استعبد العشق"، و"كأنَّ العشق داءٌ مستعبد للعاشق".

وهذه التآليف - التي امتدت إلى ما يزيد على ألف عامٍ من الزمان - لم يكن لها أصداء واسعةٌ فقط في بيئتها التي كُتبت فيها بالعربية، ولكن صداها امتد إلى كل أوروبا، وكان لها تأثيرٌ واسعٌ في تغيير شكل الحُب الذي كان موجودًا بين الأوروبيين، خصوصًا الكُتب التي تتناول نظرية العشق وأثره في

النفوس، مثل كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم الأندلسي، وقد حقنت كتابتي ببعض منها استشهاداً وتمثيلاً ومقارنةً ومعارضةً.

فمن المعروف أن الكاتب الروائي الفرنسي ستندال (1783- 1842 ميلادية) صاحب الرواية الأشهر في الأدب العالمي (الأحمر والأسود: وقائع من القرن التاسع عشر) قد قرأ كتاب "ديوان الصبابة" لابن ججلة التلمساني (725 هجرية - 1325 ميلادية / 776 هجرية - 1375 ميلادية).

وفي هذا السعي أدعو إلى التعويل على محبة الروح لا محبة العقل، التي تتراوَحُ بين العلو والهبوط والحيادية، والحب في الأصل انحياز تام، لا يمكن إمساك العصا فيه من المنتصف، أو الترضية، أو المُجاملة، أو تسديد دين أخلاقي أو اجتماعي أو أسري، أو مُمارسة شفقة، أو توجيه شكر، أو صدقة جارية، أو واجب نفسي، أو رغبة في المُجاعة سرعان ما ستنتهي، أو نزوة حيال جسد فاتنٍ باذخ سرعان ما سيتغير ويتحوّل ويذبل، كأبي كائنٍ حيٍّ له دورة حياةٍ معروفة ومُتوقّعة - كما قلت قبل ذلك -.

محبة القلب، وليست محبة اللسان، ذلك اللسان الذي يخدع ويكذب، ويتملق وينافق، ويؤلم ويكرب ولا يُقرّب، ويجامل، ويتعس ولا يسعد، ويؤسي ولا يؤوي، ويحرق ولا يحوي، ويتلهف صاحبه إلى القنص والصيد والمواقعة، وتلك محبة زائفة لا يُعوّل عليها في عُرفنا وكتابنا وحقيقتنا، بل إنها حقيقة الحب نفسه.

أعرف أن العشق (الذي لا يطوله شك) يصرع، ويُعدّب، ويُميث ببطءٍ أو بسرعةٍ، فهو فنٌّ من فنون الجنون، وأنَّ العُشّاق هم "عُقلاء المجانين"، لكنني لست ممّن يذمونه، بل ممّن يمدحونه، ولست ألوم عاشقاً على عشقه، بل أغبطه وأدعوه إلى الاستمرار والمداومة؛ لأنَّ العشق يثبّت بتركيز النفس على المعشوق، ومُمارسة العشق كما حدث مع سائر الخلق من قبل؛ حيث إنَّ قلب "المُحب ليس فيه سعة لغير محبوبه" كما جاء في "روضة المحبين ونزهة المشتاقين" لابن قيم الجوزية (691 - 751 هجرية / 1292 - 1350 ميلادية).

وإذا كان هناك "علاج" للعشق يُباع، أو يصفه الأطباء، كما كان يفعل الأسلاف في أزمنة سابقة، فأنا مع رمي هذا العلاج في قاع النهر، وإلقاء نصائح ووصايا هؤلاء الأسلاف قصد مُجابهة ومُكافحة الحب في النار؛ لأن ماثر أهل العشق خالدة، والقيم الجمالية الناتجة عن قصصهم مُمتدة الأثر، وباقية في النفوس.

فأنا من مُحبّدي العشق، وضد دأميهِ، حيث يعيبونه، ويهجونه، ويعتبرونه مرضاً، وينتقصون العاشق ويلومونه ويستحقرونه، إذ كيف لا نعشقُ ومن حولنا الكائنات جميعها تمارسُ العشق: الطيور، النباتات، المعادن، الأحجار الكريمة، ... ، فالعشق - عندي - يحظى بقبولٍ غير منقوصٍ، ويدخل طوال الوقت في نطاق الممدوح والمحمود، وليس المذموم والملعون، إذ نحن أمةٌ تمتلك ذخيرةً ثريةً ونادرةً من شعر الحب - في كلِّ العصور - لا تماثلها ذخائر أخرى بين الأمم، ولذا دائماً ما أعودُ مستنداً إلى نصوص شعر الحب

التي كتبها أسلافي الشعراء، الذين طَوَّرُوا فكرة العشق ونظريته بكتاباتهم المتتابعة، والتي تكشف نفس العربي واستعداده لتلقّي الحب، وتضحيته حد الموت في سبيل من يُحِبُّ.

فلا أحد يسأل: لماذا وُجِدَتْ المحبة؟ ولا لماذا تعلّق فلانٌ بفلانة، على الرغم من أنها لا تستأهل؟

وهنا أسوقُ مثلاً من تاريخ الحب العربي، حيث: يُحكى أن عرّة دخلت على الحجاج بن يوسف الثقفي (40 - 95 هجرية / 660 - 714 ميلادية) فقال لها: يا "عرّة والله ما أنتِ كما قال فيك كُنْئير، فقالت: أيها الأمير إنه لم يرني بالعين التي رأيتني بها). والحديثُ يقول: " ...، حُبُّكَ الشيء يُعْمِي وَيُصِمُّ".

ويقال إن الشاعر كُنْئير عرّة دخل على عبد الملك بن مروان الخليفة الخامس من خلفاء بني أمية، والمؤسس الثاني للدولة الأموية، وكان كُنْئير قصير القامة، نحيل الجسم، فقال عبد الملك بن مروان (26 - 86 هجرية / 646 - 705 ميلادية): أنتِ كُنْئير عرّة؟ قال: نعم؛ قال: إن تسمع بالمُعَيْدي خيرٌ من أن تراه، قال: يا أمير المؤمنين، كلُّ عند محله ربح الفناء، شامخ البناء، عالي السناء.

(وعرّة عاشت في العصر الأموي ضمن بلاد بني غفار من قبيلة كنانة، وقد سكنت مصر، و تزوجت بها، وماتت ولم تتزوج عاشقها كُنْئير).

\* \* \*

## طَبَقُهَا دَائِمًا مَلَان

أنت أرقى من الحيوان لأنك تحبُّ، أما إذا كنت لا تحب أو لا تعرف ما الحُب، أو تعرف الجنس فقط، فأنت والحيوان سواء بسواء، أو يمكن القول إنك حيوانٌ بدائيٌّ راقٍ، خصوصًا إذا كنت جاهلًا بعوالم الملامسة والمحاضنة والبؤس والملاطفة والمُداعبة والملاعبة.

وأنت تخطو في الحياة، تذكّر دائمًا أن وجود امرأةٍ في قلبك يُحصنك ضد الشرِّ، ويصدُّه عنك، حتى ولو لم تحرق البخور تحت قدميها في خشوع، فهي النقطة الحاسمة التي تفصل في حياتك، وهي الجالبة لك الخير والرضا والمتعة الروحية والجسدية برحمتها ورعايتها وحنوها، والجابية لك ثمار الحياة الشهية، حيث إن طبقها دائمًا ملآن، ولا يخلو من فواكه شتّى، كما أنها فالٌ للسعادة والسرور، وتدرأ عنك الشؤم والحظ العائر، وتقي روحك فقدان شهيتها لأي شيء، وتُخضع المرّدة والشياطين الهائمة، والجن السائبة أو المحبوسة، بما تمتاز به من قدرةٍ وقوةٍ وسيطرةٍ، تفوق أية قدرةٍ خارقةٍ عندك أنت، إذ هي ذات سطوةٍ جامحةٍ وسلطةٍ جامعةٍ.

واعلم أن المرأة طقسٌ عبادة لا حفل إبادة، وتذكّر أيضًا أن المرأة (وهي الباب الذي يُفتح لك على الدنيا، وهي الجوهر الأزلي) تضيف لك، ولا تنقص منك، وستشعر معها بالفخر لا بالخزي، وبالانتصار  
لا بالعار، وبالجلال لا بالفحش، وبالقداسة العالية لا بالغواية الرخيصة، وبالدهشة لا بالاعتیاد، وبالاقتراب لا بالاغتراب، وبالسعادة لا بالبلادة .

وتذكّر أنها كأسُ زهرةٍ، مهما ملأتها فلن تمانع أو تقول اكتفيت، ولذا قدّس الناس زهرة اللوتس في مصر والصين والهند، لأنها الأقدس والأعظم.

فأنت أرقى من الحيوان لأنك تحبُّ، أما إذا كنت لا تحب أو لا تعرف ما الحُب، أو تعرف الجنس فقط، فأنت والحيوان سواء بسواء، أو يمكن القول إنك حيوانٌ بدائيٌّ راقٍ، خصوصًا إذا كنت جاهلًا بعوالم الملامسة والمحاضنة والبؤس والملاطفة والمُداعبة والملاعبة، بمعنى أن تقدّم لنفسك: ﴿وَوُوْهُ كَالْحَمَائِمِ وَلَا تَقْعُوا عَلَيْهِنَّ كَالْبِهَائِمِ﴾، وقال أيضًا: "لا يَقَعَنَّ أَحَدُكُمْ عَلَى امْرَأَتِهِ كَمَا تَقَعُ الْبَهِيمَةُ وَلِيَكُنْ بَيْنَهُمَا رَسُولٌ" قيل: وما الرسول؟ قال: "الْقُبْلَةُ وَالْكَلامُ".

" أَنْ يُقَارِبَ الرَّجُلُ جَارِيَّتَهُ أَوْ زَوْجَتَهُ فَيُصِيبُهَا قَبْلَ أَنْ يُحَدِّثَهَا وَيُؤَانِسَهَا، وَيُضَاجِعَهَا فَيَقْضِي حَاجَتَهُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ تَقْضِيَ حَاجَتَهَا مِنْهُ".

فالإنسان يرى ويحس ويتأمل، ويتذوق ويتوهج، وينبض ويفكر، ويسأل ويشعر، ويكشف ويبحث، ويختار ويدرك، ويفقه ويفهم، ويستمتع ويلتذ، ويعبد ومن ضمن ما كان يعبد في الزمن القديم: المرأة، تلك المملأى بالقدرة اللانهائية على المنح، وبالطاقة المُخَصِّبة السحرية المُبْهَمة والغامضة، والجاذبة والنادرة الوجود في كائناتٍ أخرى تشاركها العيش على الأرض، حتى وصلت العبادة إلى حد القداسة، ربما لأن أعضاء المرأة الجنسية مقدّسة وفي أعلى عليين، من حيث الطهر والنقاء والشكل الجمالي الفاتن والمبهر، وهذا طقس أو عُرف أو تقليد أو اعتياد موجود في دياناتٍ كثيرة حول العالم، وهناك من لا يزال يمارس هذه العبادة، عابداً متقرباً، داعياً، مُصلياً، مقدِّماً القرابين، مُشعلاً اللهب، مُتبركاً بجلبها، فالمرأة عند شعوبٍ كثيرة رمزٌ تعظّمه وتوقره وتبجله، و تتقرب إليه وتبتهل ساعيةً حاجّةً، وهذا أمرٌ معروفٌ وشائعٌ خصوصاً في بلدان مثل الصين والهند وما يتصل بهما ويحيط.

ولا يصل الإنسان في الحُب إلى مرحلة أو مرتبة أو درجة أو حد العبادة، إلا إذا كان قد امتلأ بالمعشوق حتى النهاية، وصار له الدنيا والدين، ويعرف الكثيرون من أهل الوجد أن مظاهر وطقوس عبادة المرأة وتقديم القرابين لها موجودة منذ ما قبل الميلاد بألفي سنة على الأقل، ربما لأن المرء كان ينتسب إلى أمه، أو لأن المرأة لم تحمل إلا بسبب اتصالها بالسماء " إله التناسل، أو إله الخصوبة " كما هو مُعتقد في الحضارة الصينية القديمة، وهناك شواهد تشير إلى ما هو أكثر عمقاً في الحضارة والتاريخ الإنساني، وما يهمني هنا هي فكرة العبادة والقداسة في الحُب، وعدم التشريك بمن تحب، إذ لا حُب مع شراكةٍ، بمعنى حدوث الاندماج والامتزاج والاتحاد والحلول؛ بما يحقّق الوصول إلى جوهر الأشياء، وإلى ما وراء الكشف، وكذا الفرح السّماوي، والمُتعة الغُليا، والسّعادة اللا محدودة، والبهجة الغامرة؛ لأن الحُب نظامٌ فطريٌّ أحاديٌّ، حيث الديمومة أو الاستدامة، وليس تعددًا أو جماعيًا، حيث اقتران "العاشق المُدّعي" بنساءٍ كثيراتٍ في الوقت نفسه.

وإذا كانت المجتمعات قد انتقلت من الزواج الجماعي إلى الزواج الفردي؛ فكان من المتوقع أن تسود الفردية في الحُب، لكن ما حدث كان عكس ذلك، إذ استمر الزواج الفردي كأساسٍ اجتماعيٍّ، واستمر الرجل في تعددته، حيث يجمع بين كثيراتٍ خارج زواجه الفردي، وهو الكُفر أو عدم الإيمان أو عدم الاكتفاء بمن معه.

وتلك العبادة المتوارثة عن الأسلاف في حضاراتٍ شتى والتي ما تزال موجودةً بين البشر على استحياء، كأنَّ الحُب لا يمارسه إلا المتلفون الواقعون في التسفّل والانحطاط، لا المتيمنون الذاهبون نحو العلوّ والعروج، تتراوح بين العادة حيث تأدية الواجب المُقدّس، والعبادة الناتجة عن إيمانٍ لا باطل فيه ولا ادعاء، وهي عبادة مارسها العاشق القديم ويمارسها العاشق الحديث أو المعاصر في زماننا؛ كي تحميه ومن معه من الأهل من "شر الكوارث والمصائب".

وأذكر أنني كنتُ أسمع في طفولتي وأنا في قريتي كفر المياسرة، أنّ فلانًا متلوف أو تلفان أو متلاف؛ لأن الغرام قد ضربه، وصار عاشقًا، والذاكرة الشعبية أو الجمعية قد استعارت هذه الصفة من قواميس اللغة العربية، إذ التلفان هو الهالك الفاسد المعطوب، الذي يصرف وقته، ويهدر طاقته، وينشغل بمن يحب.

وإذا كان الأهل يصفون الابن العاشق بالمتلوف؛ وقد يُرجم بالحجارة، أو يتم تجريسه وفضحه، والتشهير به، فكيف ستتغير النظرة بعدما ينضج ويصير رجلًا؟ بمعنى أن المجتمع – عبر عاداته وأعرافه وتقاليده المتوارثة – ينظر وسيظل ينظر نظرةً أدنى إلى أهل العشق.

وفي المصادر القديمة دائمًا ما أقرأ هذه المقولة: "سئل بعض الحكماء عن الحُب ما هو؟ فقال : نورٌ في القلب، بدايته شغف، ونهايته تلف، من ذاقه عرفه، ومن عرفه أَلَفَ تَلَفَهُ".

والمعشوق (المرأة) صارت في مجتمعاتنا متلقيّةً غير فاعلة، مُستلبة، ومُستسلمة، وتابعة ، وخاضعة، لا حول لها ولا قوة، بلا رأي ، كأنها ملكيةٌ خاصة لرجلها، في مجتمع عبوديّ، في مقابل تسلُّط العاشق وسيطرته ، وهيمنته، وسلطته الذكرية المُستمدة من النظام المجتمعي الذي رسَّخ ذلك زمنًا إثر زمنٍ، بعدما كانت المرأة جوهرَ الحياة، ورُمانة ميزانها، وصاحبة مكانة ومكان خصوصًا في المجتمعات البدائية والقبلية والأمومية.

\* \* \*

## قمع الذات يكبح اللذات

كلما زاد حظُّ التعبير عن التجلّي العشقي، قلَّت المُتعة المقدسة، ونقص الفرح بالحُب؛ لأنَّ الحُب يحتاج إلى نور القمر الذي لا يحجب فيوضات النفس، وإشراقات الذات، وتجليات الرُّوح، إذ يحدث الاتحاد بين المُحب والمُحَبوب ما دام هناك سعي متواصل.

إن لم تكن عائشًا في العشق الذي أقيمت لأجله المعابد، وتمت التضحية بأي عرش؛ كي يحيا العشق، ويصير مضرِبًا للأمثال، ومحمُولًا على التلاقي والتطابق والتوافق والتواءم والتآلف، فأنت لا تحيا حياةً طبيعيَّةً، ولديك من المشكلات والأزمات ما يملأ محيطًا وبحرين، وأنت بدون العشق ناقصٌ ومعنئٌ ومحدوفٌ من جُملة الحياة الاسمية أو الفعلية أو حتى شبه الجملة، ومجروءٌ من رقيبتك لتسكن النسيان، ومريضٌ فارقه نبضٌ قلبه؛ بينما في العشق يعيش المرء طويلا، حيث يتحصَّن بالأحلام والأمل والتوهج.

في الحُب إن لم يكن هناك ذكاءً، وتوقدٌ ذهنٍ؛ فمن المؤكد أن الغباء يقصم ظهر العلاقة العشقية، ويطوي صفحة أرضها، ويجعلها مُعلقةً على حبلٍ ذائبٍ تحته نارٌ مشتعلة، تنتظر رمادها يدُ الضياع، ومن ثمَّ لا يصل إلى مرتبة الولع بتفاصيل من يعشق، مباهيا ذاته بأنه العاشق، أو بأنها المعشوق.

وأیضا إن لم يكن هناك خيالٌ لدى المحبين، يُخصِّب ويُعمِّق ويُجِدِّد ويُزهر، فسيكون مصير الحُب التجدُّ والتواري والاندثار ثم الموت؛ لأن قمع الذات وقهرها يكبح اللذات، ويجعلها تختفي في متاهات كهوفٍ هدَّتْها العتمة، وحظُر كشف النفس وتجليها يُقَيِّد الشُّعور والتعبير عنه بطلاقةٍ وانطلاقٍ وحريةٍ، ومن ثمَّ الكبت - حتمًا - يؤدي إلى الموت.

وكلما زاد حظُّ التعبير عن التجلّي العشقي، قلَّت المُتعة المقدسة، ونقص الفرح بالحُب؛ لأنَّ الحُب يحتاج إلى نور القمر الذي لا يحجب فيوضات النفس، وإشراقات الذات، وتجليات الرُّوح، إذ يحدث الاتحاد بين المُحب والمُحَبوب ما دام هناك سعي متواصل، وحركية دائمة نحو التحقُّق المُرضي عن قناعةٍ وإيمانٍ، حيث يطلُّ القلب على ساحل النور مُغتسلا في ماء الوضوح، وتشرق شمس النفس من جهة روح صاحبها، المملآن الذي لا يحبُّ الأُقول مهما تكُن المغريات؛ فالعشق لا يعرف الظلَّ أو الستر، وأي خفاءٍ في مُمارسته لا يمنح المُحب ذا الطبع الناري أو المحبوب ذا الطبع المائي العلو والغروج. وتكف السماء عن إنزال مطرها على الأرض.

ولنفترض أن محبًا ذكرًا اسمه أحمد، فحرف الألف طبعه ناري وخادمه إسرافيل، وبقية الحُرُوف النارية هي الهاء، والطاء، والميم، والفاء، والشين، والذال.

أما المحبوب المرأة ابنة الحروف المائية وهي الدال، والحاء، واللام، والعين، والراء، والحاء، والغين.

لقد خُلِقَ العاشق ليتوسّد وسادة الألفة والحميمية ، دون أن يكون هناك تابع ومتبوع، ولا يهم إن كانت الوسادة جانبيةً أو رئيسيةً، بل المهم أن يكون حقيقياً في وصله، بحيث تكون الأواصر قائمة على القرب واللقاء والاتصال ، ومن ثمّ يكون هناك شفاءً للنفس، وغسل لروحها.

وفي العشق مغالبةٌ للعزلة، وانتصارٌ على الوحشة، ودخْرٌ للملل والكسل والاكتئاب والقلق والأرق وصعوبة النوم، والنظر إلى الماضي البعيد، والبكاء على مشاعر سكب لبنها على أرض المغامرات والتجارب المتنوعة أو المتعددة، وإبعاد لأي كبتٍ جنسيّ يمكن أن يصيب الإنسان خصوصاً المرأة، التي لا يجوز تكبيل قدميها، أو قمعها؛ كي لا تنطلق دون مواردٍ أو مداراةٍ للتعبير عن العشق، حيث إنه لا يوجد حُب من دون حرية، لتمنح المرأة أسلوباً أو أساليب متنوعة للتعبير عن الحُب بطرائق شتى، وكل استلابٍ لحرية المرأة هو انتقاصٌ من تمام العشق واكتماله، ما يعني أننا أمام حال لا ذروة فيها ولا وصول. لأنّ الحرية تعني الوصل، بينما الأسر يعني تلبية الغريزة أو إفراغ طاقة جنسية زائدة.



## عش على مآدبة الحب

وكثير منا يعيش ولا يعرف ما الحب، ولا مكانته، مع أننا لو أدركنا جوهر الحب لأقمنا في تمجيده "المعابد والهيكل" مثلما كان الأمر متعارفًا عليه وموجودًا في الحضارات القديمة التي قدّست المرأة، ومجّدت الحب.

"كلما كثرت الأشباه..

زادت المُجانسة وتأكّدت المودّة".

ابن حزم الأندلسي

لماذا نطرق باب البُغض، ونلوح براية الحسد والحقد والكُره، ونترك الحب بعيدًا؛ لنعيش من دونه، فبدلاً من أن نربّي الأمل، نعلف اليأس والقنوط برسيم الباطل.

فلماذا لا نعيش في حِصْن الائتلاف، ونلفظ الخلاف الذي يزرع الشُّرور في أرضه إذا ضاقت مساحتها أو اتسعت.

نعم يمكن للمرء أن يعيش خاليًا من الكُره، ولكن لن يحدث ذلك إلا إذا عاش للحب وبالحب وفي الحب مقيمًا على مآدبته، ومتأدّبًا وعارفًا به، وخالقًا وداعيًا له، فقد "جُلبتِ القلوبُ على حبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وبُغِضَ من أساءَ إِلَيْهَا" كما جاء في الحديث.

وكثير منا يعيش ولا يعرف ما الحب، ولا مكانته، مع أننا لو أدركنا جوهر الحب لأقمنا في تمجيده "المعابد والهيكل" مثلما كان الأمر متعارفًا عليه وموجودًا في الحضارات القديمة التي قدّست المرأة، ومجّدت الحب.

لأن الحب يجعل الإنسان في حال من الترفُّع والاستغناء والاكتفاء والامتلاء والتحقُّق والسُّمو والعلو، إذ هو في مقام النقاء حيث لا شوائب تعلق بجمال النفس، ومن ثمّ يعيش التمتع واللذة، والعشق. الحق لا يعرف التغيُّر أو التحوُّل، ولا يفنى إلا بالموت؛ لأنه خالٍ من الأسباب والأغراض.

وإذا اتفقت شمسك مع قمر الآخر، فستأثلف الروحان، ويبقيان في برج واحد، ومن ثمّ يحدث الحب، و "لا يقع العشق إلا لمجانس، وأنه يضعف ويقوى على قدر التشاكل"، أي التشابه والتماثل والتقارب والتلاؤم والتمازج والتانس والميل، حيث لا ملل أو سأم، ولا نفور أو إعراض أو تباين،

والنفس مُركَّبة طبقة فوق أخرى، وليست سهلة كما تتراءى لنا منذ النظرة الأولى، وهي ملأى بالكنوز، وعلينا البحث والتنقيب واستخراج الغالي منها والنفيس والتركيز عليه وتنميته وتربيته وعزل الشوائب منه، الكامنة في "أغوار اللاشعور"، ونحفر عميقاً في باطن النفس.

وقد "زعم بعض المتفلسفين أن الله تعالى خلق الأرواح كلها كهيئة كُرّة، ثم قطعها أنصافاً فجعل في كل جسدٍ نصفاً، فكل جسد لقي الجسد الذي فيه نصفه حصل بينهما عشق، وتفاوت حالهما في القوة والضعف على حسب رقة الطبايع" كما يذكر الراغب الأصبهاني (توفي 502 هجرية / 1108 ميلادية) في كتابه العُمدة "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء".

والنفس بطبيعتها تتوق إلى الجميل، وتُولع بما هو فاتن وحسن، ونحن نردّد في اليوم الواحد الحديث النبوي: " إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ". عشرات أو مئات أو آلاف المرات بين كل جُملة وجُملة، ومع ذلك عند التطبيق نبتعد عن الجمال وننأى، بل نفر منه كأنّ الجمال مفسدةٌ لنا.

وتصح المحبة بين اثنين بعد لقاءٍ وكلامٍ وحوارٍ وجدالٍ ومعرفة وإدراك، وإحسان؛ لأن الإنسان يحب من أحسن إليه، وتلك طبيعة البشر، أما ما دون ذلك، فهم ليسوا من بني الإنسان، ومن ثمّ وجبت مقاطعتهم، والبعد عنهم، وتجذّبهم، لأنهم من منكري المعروف والجميل والإحسان، ولعلّ القلب هو أعظم إحسان يمكن أن يبذله بنو آدم، ولا يمكن لمحبة أن تصح على البعد والصمت والمجافة والتناسي، فالإنسان لا ينجذب إلا لمن يعرف ويرى ويرتاح ويُعابن ويلمس ويحس ويحقّق الوصل معه، بحيث تكون هناك موافقة في الطبايع، ومن ثمّ يحدث الكمال في الحب، ويصير في تمامه.

يميلُ قلب المرء إلى من يراعاه نفسياً، ويحرّره عشقياً من قيوده، ويعتني به عاطفياً، ويهتم بتفاصيل شؤونه، تماماً كالوليد الذي يذهب نحو أمّه دون أن يدرك الكثير من الأمور، لكنّه يوقن أنها تشمله بحبّها كاملاً لا نقصان فيه، إضافةً إلى المُلاعبة والمُلاطفة، ومن هنا يتولّد الحب ويعمّق ويتعمّق ولا يعتريه ذبول التبدّل، ولا يصيبه عطبُ التغيّر. ولعلّ الحبّ هو الشيء الوحيد في الحياة الذي يقوى بالعلو والإسراف، مقارنةً بمفردات الإنسان الأخرى، إذ يأتي الحبّ في أولها.

ولو كان الحبّ متمكّناً من رُوح المرء فإنه لا يعرف الفُقدان أو الخُسران، ولا يدركه تلفٌ من أي نوع، ولست ممن يؤمنون بأن الحب يحمل داخله بذرة الكره، لأن من يحب لا يكره، لكنه يرحل في صمتٍ مع كثيرٍ من العتاب للآخر، والندم للذات على ما قدمت يداها وفعلت.

لكن يمكن للكره أن يحمل بذرة الحب، ونحن نقول في المثل الشعبي المصري: "ما محبة إلا بعد عداوة".

والحبّ الذي أقصده ليس هو الإعجاب العارض أو الطارئ أو المؤقت، وليس هو الرغبة الجنسية التي إذا تحققت لا تشبع الرغبة النفسية؛ لأن الحبّ العارض صلة مؤقتة لا دوام فيها، كما أنها ليست وصلاً لا ينقطع، فلا يملأ النفس ويقنعها سوى الحب، وشتان بين المقيم والعابر.

ويستطيع المرء بحسبه وفطرته أن يدرك حال الآخر الذي يرتبط به قلبياً، هل هو في حُبٍ مقيم أم عارضٍ، ولا يحتاج الأمر إلى جهدٍ مُضاعفٍ ليعرف ذلك، لأن إدراك ذلك من أعمال النفس، كما أن العقل يشتغل ليجمع الشواهد ويحللها، بعد أن تكون النفس قد أدركت أنها لم تعد في مجرّة الآخر الذي فارقها حتى لو كان يقول غير ذلك، ويمكن لذلك الآخر الذي يستمسك بك شفهيّاً فقط، كنوع من الاستحواذ والاحتفاظ بك، من باب الوفاء الخجل أو من أشياء الماضي، كأنما قد تأصلت فيه غريزة الاقتناء.

فأنت تجود، والآخر يبخل، وأنت تعرف أن الحُب تضحيةٌ، وفناءٌ فيمن تحب، وإيثار المُحب على نفسه، وعندما ترى غير ذلك، فعليك أن تذهب في هدوءٍ لا بُكاء فيه، إلى حيث يقودك قلبك، وتذكر بيت الشاعر :

"أضنُّ بليلى وهي غيرُ سخيّةٍ

وتبخلُ ليلي بالهوى فأجودُ".

وإن كنت مستمسكاً بالوهم، أو معتقداً بأن عودةً تنتظرُك يتحد فيها الطالب و المطلوب، ويحل فيها المحب في المحبوب، ويفنيان معاً، بحيث لا يكون هناك أنا، ولا أنت، بل نحن فقط فاذا شعر العباس ابن الأحنف :

"تحملَ عظيم الذنب ممن تحبّه

وإن كنت مظلوماً فقل أنا ظالمٌ

فإنك إلا تغفر الذنب في الهوى

يفارقك من تهوى وأنفك راغمٌ".

وإن كان مثلي سيطمسك بالذهاب بلا أدنى عتاب.

أعرف أن النفس تبقى فارغةً دون حُب، وستظل ناقصةً وفقيرةً ومحزومةً على الدوام إن لم تصادف هوىً يتمكّن منها، فهي تحتاج إلى أن تشبع، إذ يضربها الجوع كلما مرت ثانيةً على حديقتها البائرة والجرداء إلا من أشجار لا تسر الناظرين، والنفس في حال كهذه تكون غريبةً في الحياة التي تعيشها في الدنيا الواسعة.

\* \* \*

## الحُبُّ المُعطلُّ

الحُبُّ لا يُتوقَّع ولا يُرتَقَّب أو يُنتظَر، إنه يأتي كسيلٍ من علٍ، وعندما يأتي فإنه يغمرُ ويجرفُ، ولوعلم الإنسان ماذا يفعل الحُبُّ في النفوس ما بات رجلٌ أو امرأةٌ على هذه الأرض إلا وكان – كانت في حال العشق ومقامه.

أنت لا تختار من تحب، وليس في الأمر تعمُّد أو تقصُّد أو تكلف، ولو حدث ذلك فلن يكون ذلك حُبًّا، ولكن الإنسان يدخل الحُبُّ بعد أن يكون مهينًا نفسيًّا له، وفاتحًا أبواب رُوحه لاستقبال المحبُّوب المُنتظَر، وتأتي المُصادفة - والتي تأخذ تسمياتٍ أخرى مثل الحظ، والنصيب، والقدر وسواها - في مقدمة حدوث الحُبِّ، ولا شك أن الحُبُّ سيقوى بعد المُؤالفة والمُواعدة واللقيا.

فقد يكون المحبُّوب معك أو حولك، أو في مكانٍ ما أنت تتردَّد عليه، ولكن لم تنتبه إلى ذلك، ولكن جاء يوم بعد شهرٍ أو ربما سنوات لتكتشف أنك مع شخصٍ أنت تعرفه، أو رأيته من ذي قبل.

المسألة – فعلا - تخالف التوقعات والمعقول؛ لأن الحُبُّ يأتي بلاموعِدٍ ولا ترتيبٍ، والعين عندما تبصر الهوى، تعمى عن الاختيار. ولا أحد بإمكانه أن يخلق أو يصنع أو يخترع الحُبِّ، إذ إنه يأتي بلا أسبابٍ منطقيةٍ متراتيةٍ أو متتابعةٍ أو متراميةٍ يؤدي بعضها إلى الآخر.

فالحُبُّ لا يُتوقَّع ولا يُرتَقَّب أو يُنتظَر، إنه يأتي كسيلٍ من علٍ، وعندما يأتي فإنه يغمرُ ويجرفُ، ولو علم الإنسان ماذا يفعل الحُبُّ في النفوس ما بات رجلٌ أو امرأةٌ على هذه الأرض إلا وكان – كانت في حال العشق ومقامه، وقد قيل : "لو لم يكن في العشق إلا أنه يُشجِّع قلب الجبان، ويسخي كف البخيل، ويصقِّي ذهن الغبي، ويبعث حزم العاقل، ويخضع له عزُّ المُلوك، وتصرع له صولة الشجاع، وينقاد له كلُّ ممتنعٍ لكفى به شرفًا".

أنت تؤثر فيمن تُحبُّ بسلوكك الإنساني إزاءه، قيل سلوكك الجنسي؛ لأن اتحاد الجسدين لا يأتي إلا بعد اتحاد النفسين، فأنت تتصل بمن تحب عبر قناة نفسك أولاً، حتى تحلَّ من قلبك بكل مكانٍ، ولا يمكن لامرأةٍ أن تستجيب لمن يحبها، إلا إذا أعطت رُوحها الأوامر لها؛ كي تفتح أبواب مسام باطنها، ولا عيش يطيب بين مُحبِّ ومحبُّوب إلا بوصلٍ يكون عمودُه الفقريُّ مُكوَّنًا من ماء الرُوح الذي لا يشبهه سواه، وهذا لا يعني أنني أنكر اعتقادي وإيماني بأن الوصل الجنسي يؤدي إلى كمال الحُبِّ وتمامه، وبلوغ ذروته، وذلك الوصل وحده لا يسوق المرء إلى الحُبِّ.

لأنَّ لا حُبَّ يبقى، إن لم تكُنْ هناك مُبادلةً بين اثنين يتحدان في واحدٍ بفضل الحُبِّ، ولا يمكن التعويل على حُبِّ يكون كل طرف فيه يغني منفردًا؛ لأن المُحب يريد أن يكون له عند المحبُّوب مثل ما عنده

من حُبِّ يملأ القلب، أي لابد من التوازن الذي هو الغاية والمُنْتَهَى لكلِّ طرفٍ في العلاقة، التي يَرْجُوها المُحِبُّ أن تكون أبدية، أي تكون القسمة مُتساويةً بين اثْنَيْنِ يستظلان تحت شجرة حُبِّ واحدة ، بحيث يُكْمِلُ كُلُّ منهما الآخر حتى بلوغ مرتبة الإِشْرَاق والتجَلِّي.

فلا حُب - يمكن أخذه مأخذ الجد - مع صُدُودٍ أو إِعْرَاضٍ أو إِحْجَامٍ أو تَجَافٍ.

والحُبُّ الذي لا تشعر معه بالتحقُّق الكامل، والحرية المُطلقة غير المشروطة لا لزوم له؛ وزواله أفيد من وجوده؛ لأنه سيجلب التعاسة يوماً إثر يوم، بدلا من أن يأتي بالسعادة الدائمة لصاحبه.

وأي قيدٍ أو أسرٍ في الحُبِّ هو عنصرٌ نقصٍ، وهذا النوع من الحُبِّ يمكن أن أطلق عليه الحُبُّ المُعْطَلُّ، الذي يستجلب معه نفورًا وتهرُّبًا وتحجُّبًا، حتى يصبح الوصلُ الجسدي مُنْعَمًا، وإذا وقع يكون أشبه بنوع نادرٍ من العذاب والألم . وهي الحال التي تسبق القطيعة النهائية - الفراق، وطبي صفحة لطالما كانت مفتوحةً تستقبل الكثير من الجبر والكتابة، صفحة تنتظر قلمها أن يدخل عميقًا في دواته.

والمرأة السوية، الحقّة، الطبيعية في مشاعرها، والعفوية في أحاسيسها، والتلقائية في سلوكها مثل الفراشة في استقبالها الحُبِّ، وانتظارها المحبُّوب، إذ لا همَّ لها سوى العشق، وذَكَرَ الفراش يستطيع تمييز الأنثى عبر حاسة الشم ، حتى لو كانت تبتعد عنه كيلو مترات، تزيد على العشر في اتجاه الريح، وهذا عندي إعجازٌ إلهيٌّ نادرٌ الحدوث، ويُعتبر مثالاً مدهشاً غير مسبوقٍ في الوصول إلى الأنثى، التي تفرز مواد كيميائية في الجو، هي التي تجذب الذكر نحوها، إذ يسعى الذكر طائرًا في المُدن أو الحُقُول أو المزارع أو الحدائق أو على الشواطئ؛ أو الغابات، أو البساتين، أو المرتفعات الجبلية الباردة، أو المناطق الصحراوية الحارة، أو المناطق المدارية؛ كي يصل إلى الأنثى ومعه عددٌ آخر من الذكور، و"تصل سرعة بعض أنواع الفراشات أثناء الطيران إلى حوالي ثمانٍ وأربعين ساعة لكل كيلومتر"، ومن يصل أولاً له الفوز بالعشق، ويظل ساعاتٍ معها مُمارسًا العشق في نشوةٍ لا نظير لها بين الكائنات، بعد أن يكون قد طاف حولها وعانقها، وبعد قضاء لذته، يموت من فورهِ إثر ما بذله من "عملٍ عشقيٍّ مُضاعفٍ واستثنائيٍّ"، كما يموت بجواره كُلُّ الذكور الذين سعوا معه للوصول إلى الأنثى، وأصابهم الفشل لعدم بلوغهم إليها، وهذا الموت جاء إثر الإخفاق، وطول مسافة الطيران إلى الأنثى، والامتناع عن الأكل، لكنَّ الأنثى الفراشة بعد وصولها إلى اللذة الفُصوى، تختار مكانًا آمنًا لتضع بيضها ابن علاقة العشق تلك ، ثم تقرّر بإرادتها الموت، ليبدأ بعدها حُبٌّ جديدٌ بين ذكورٍ وإناثٍ ينتمون إلى مملكة عشقها.

وسواء قصرت مدة الوصل أو طالَت، هي عند الذكر تساوي العمر كله، لأنَّ ثابثةً عشقيةً واحدةً محمولةً على الحقيقة تعدل حياةً بأكملها، إذ هي ثابثةٌ علويةٌ فردوسيةٌ أبديةٌ خالدة من حيث النشوة والسعادة، زمنها ممتدٌ وبعيدٌ؛ لذا لا يهم بعدها أن يحيا الكائن أو يموت.

والمرأة أكثر رُقيًا من الرُّجُل في مسألة الحُبِّ الصحيح، إذ إن الحُبَّ هدفها الأول، ومُبْتَغَاها الأسمى، وغايتها الأهم، وهو الأصل وليس الصورة أو الظل، هو الواحد الصحيح، وليس سواه من كسورٍ،

وإذا ما غاب الحُبُّ عنها، تعيش حياةً صعبةً، معقّدةً، ويصيبها الكثيرُ من عدم السّواء، والفقد في كلّ شيء.

وليت الرجل يعرف أنّ المرأة تحتاجُ إلى العشق أولاً، ثم الوصل الجسدي، أو الاتصال الجنسي يأتي في مرتبةٍ تاليةٍ، ولذا تعيش أغلبُ النساء ويمتنن من دون أن يبلغن النشوة، أو يحقّقن الرّغبة التامة.

\* \* \*

## الحُبُّ شريعةٌ وعقيدةٌ<sup>28</sup>

الحبُّ يُحيي، بقدر ما يُميتُ أيضاً، والموتُ هنا - عادة - يأتي بسبب الفراق والنأي، لأن القربَ بابٌ للتجلّي والإشراق.

الحبُّ الذي فيه شريكٌ لا يمكنُ اعتباره حُبًّا، لأن الحبَّ عندي شريعةٌ وعقيدةٌ، وقد سبقنا إلى وصفه بأنه "دين" الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي (558 هجرية - 1164 ميلادية / 638 هجرية - 1240 ميلادية).

حين قال:

"أدينُ بدينِ الحبِّ أتى توجَّهتُ

رَكَائِبُهُ فالحُبُّ ديني وإيماني".

وأنا من أهل التوحيد أو الوجدانية، بمعنى أن يمنح العاشق نفسه كاملةً غير منقوصةٍ لمن يعشق، حيث لا يرى العاشق سوى من يُحبُّ، وهذا أمرٌ خاص، لا يمنح إلا لأهل العشق الذين يحملون قلوباً نادرةً وكبيرةً في سعتها وتكوينها.

ولست معنياً فيما أكتب بـ "العاشق الملول" الذي ينتقل من دارٍ إلى أخرى، والذي يذكّرني بالشاعر عمر بن أبي ربيعة ( 23- 93 هجرية/ 644 / 711 ميلادية)، والذي هو نقيض لقيس ابن الملوح (24 - 68 هجرية/ 645 - 688 ميلادية) الذي عاش ومات على دين محبوبه "إلى".

و"الحُبُّ رزقٌ من الله" لا يتم إلا إذا كانت هناك مُشاكلَة (مُطابِقة، مُماتِلَة) بين اثنين، حيث يتأسَّس على المُشابهة الروحية بين العاشق والمعشوق، لأن "الأرواح جنودٌ مُجنَّدةٌ ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"، والمحب لا يقترب إلا ممن يفتح له باب روحه؛ كي يشرب نوره الذي لا ينفد.

والعاشق - بطبيعة حاله - ذو رُوحٍ شَبَعِيٍّ، منذورٌ إلى الأعلى، حواسه شتّى، وقد خُلق ليكشف الأسرار، وكلما كان هناك عشقٌ بين اثنين تحقَّقاً وصلحاً وأنتجا وعلا شأنهما، إذ الحبُّ يُحيي، بقدر ما يُميتُ أيضاً، والموتُ هنا - عادة - يأتي بسبب الفراق والنأي، لأن القربَ بابٌ للتجلّي والإشراق.

ولعلنا لا نجدُ العشقَ في أية ديانةٍ أخرى له مرتبةُ الجهاد المقدَّس، مثلما هو في أدبياتنا ومدوناتنا، وأن قَتيلَ العشقِ فيه شهيدٌ: "مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ".

و"يقولون:

جاهد يا جميل، بغزوة،

وأيّ جهادٍ، غيرهنّ، أريدُ

لكلّ حديثٍ بينهنّ بشاشةُ

وكلّ قتيلٍ عندهنّ شهيدُ.

ويقول محمد بن سيرين:

"ضمّةٌ في الهوى لحبِّ ألوفٍ

هي خيرٌ من حجةٍ كل عامٍ".

وإن لم يكن الحبُّ مقدّساً ما ورد جذرُهُ ثمانين مرّةً في القرآن.

فالحبُّ هو أقصى تجليات الروح، ليس له سواحل، يمتد بطول مساحات القلب، يرسم له جغرافيته، ويُحدّد لصاحبه مجاله المغناطيسي الذي يتحرّك فيه، وهو غالباً مجالٌ لا شاطئ له ولا تخومٌ، لأنّ الحبَّ فوق العقل الواعي، بما يحمل من سُموٍ وسُموٍ في الجنون، حيث تكون نفسُ المحبِّ في أعلى درجات الإشراق والسُّمو، وتكون في حالٍ حميمةٍ لا معتادة ولا مألوفة، لا تعرف إلا المرتبة العُلّيا من الشُّعور، حيث يتجرّدُ العاشقُ ويتخلّصُ من شوائب النفس، ويشفّ، ومن ثمّ يُدخله الحبُّ في ميلادٍ روحيٍّ جديدٍ له، ويصيرُ في شوقٍ دائمٍ لمحبيه، حيث ينقل المحبُّ من حالٍ إلى حالٍ أخرى قد تكون هي النقيضُ تماماً لما هو عليه، حيث يعيشُ في مقاماتِ البسطِ والفرح والرجاء، وتتكشف له أحوالٌ كانت غائبةً عنه، تخصُّ فقط المُحبين، ويطمئن بعد حيرةٍ، ويأنسُ بعد أرقٍ وقلقٍ، إذ قلبُ المحبِّ مغمورٌ في ماء الوصل، يعرّج بروحه كل ليلةٍ، يفيض بالاسم الأعظم للمحبوب، ويترقّى من حالٍ إلى أخرى، هي عندنا الحياة الأخرى للمحبِّ، لأنه يخرجُ من حجابِ النفسِ "الأنا"، ممزقاً الأستارَ والحُجبَ، ليصيرَ معدنَ المعادنِ النفيسة، ومحل جميع الأحوال، وفي ترقٍّ مستمرٍ، سره صافٍ، سائح في المكان، نفسه مصفّاة.

والحبُّ كائنٌ مقدّسٌ وله من صفات الإله الكثير، وفي كل الكتب المقدسة سنجد أن كلمة الحبِّ وحقول دلالاتها تتكرّر بشكلٍ لافتٍ مما يشيرُ إلى قداسته، ولذا لا أومن أبداً بموتِ الحبِّ.

ومن ينفي الحب ويقصيه ويكفر بوجوده، ويراه هو والعدم سواء، هو عندي لا يحب نفسه، وتنتفي عنه سمات وصفات إنسانية كثيرة، فالعاشقُ كائنٌ طينته الحب، وماؤه الهوى، وهواؤه العشق، وترابه الغرام.

فمن يحب يرى محبوبه في كل شيء، ومن المعروف أن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد.

وقد علمتنا الحياة أن العشقَ فيه شركٌ ووحداً، وطوبى لأهل التوحيد في العشق، ولعل كتبي النثرية المنشورة التي كتبتها فيما أسميه " أدب العشق " - وهي خمسة حتى 2017 ميلادية - منذ العام 1991 ميلادية، تشير إلى فعل القداسة في العشق، وأن الحب فرضٌ عينٍ على كل إنسانٍ يعي ويعرف ويعلم ويعمل ويعاني ويعقل.

وما رأيتُ أحدًا يعشُقُ قد خاب مسعاه أو رجاؤه، وإنما من يخيبُ هو الخالي من العشق، حيث تنصَّرُ رُوحه، ويجفُّ نهرها.

ودوماً أقول إننا أمةٌ فُطرتْ على العشق، إذا ما فُورنتْ بأممٍ أخرى، فالعاشق الحق يؤثرُ من يعشُقُ على نفسه، فنحن ربما الأمة الوحيدة التي يمكن أن نجد رموزاً استثنائيةً من فقهاءها وعلمائها وقضاتها الشرعيين وأئمتها من الأسلاف قد تركوا تراثاً لافتاً من كُتب العشق الذي عدُّوه علماً، فليس من العسير أن نجد فقهاء في العشق، وأئمةً في الحُبِّ، ومن يقرأ التراث العشقي عند العرب، سيطالع كثيراً تعبير "أراه أهل زمانه إمام المحبين"، فلو ذهبنا إلى صاحب المذهب الظاهري أبي بكر محمد بن داود الأصبهاني (255-297 هجرية / 868-909 ميلادية)، ومن بعده ابن حزم الأندلسي (384 هجرية - 994 ميلادية / 456 هجرية - 1064 ميلادية) لوجدنا الأول قد ترك كتاب "الزُهرة"، والثاني قد ترك كتاباً صار شهيراً في الدنيا هو "طوق الحمامة في الألف والألف"، الذي عبره قد تعيَّرت عقيدة الحُبِّ عند الأوروبيين، حيث انتقل فكر الحب وفقهه من الأندلس إلى فرنسا، ومنها إلى بقية البلدان الأوروبية، وهناك كتاب "عطف الألف المألوف على اللام المعطوف" لأبي الحسن علي بن محمد الديلمي (المتوفى 371 هجرية / 980 ميلادية)، وقد عدَّه أهل الاختصاص في فن الهوى أول كتابات المتصوفة في العشق، ومما وقفت عنده بعد قراءتي لهذا الكتاب، ما يخص الذين تبدأ أسماؤهم مثلي بحرف الألف:

"تأمل هجاء الألف التي هي صورتها "ألف" فإذا قسمتها قلت أَلِفَ أي أحب وهو المحب، ثم قلت أَلِفَ وهو المحبوب، ثم قلت أَلَفَ وهو فعل الله عز وجل بينهما وهي المحبة. فقد أعطاك صورة الألف في حد المعروف وموضع الانقسام وهو الحد الثالث معنى المحب فالمحبيب والحب في الصورة الواحدة، والصورة الواحدة أعطتك في المعقول معنى الثلاثة".

ويستطيع المرء أن يحصي عدداً من فقهاء العشق المسلمين، الذين خاضوا ضرباً من التأليف، لا نجد له مثيلاً بين من يشتغلون بالدين، بل صرنا نرى فقهاء زماننا يرفضون ما تركه أسلافهم حتى لو كانوا من الأعمدة الأساسية في التاريخ الإسلامي كالإمام جلال الدين السيوطي.

وَمِنْهُمْ : الخرائطي (327 هجرية) صاحب " اغتلال القلوب في أخبار العشاق والمُحِبِّين "، والسري الرقاع (366 هجرية) صاحب "المُحِبِّ والمُحْبُوب"، والشيخ الرئيس ابن سينا (428 هجرية ) صاحب "رسالة في العشق"، والحصري القيرواني (453 هجرية) صاحب "المصون في سر الهوى المكنون"، وابن السراج (500 هجرية) صاحب مصارع العشاق"، وابن الجوزي (597 هجرية)

صاحب "أخبار النساء"، وابن قيم الجوزية (751 هجرية) صاحب "روضة المحبين"، والشهاب محمود الحلبي (725 هجرية) صاحب "منازل الأحاب ومنازه الألباب"، والحافظ المحدث مغلطاي (762 هجرية) صاحب "الواضح المبين في ذكر من استشهد من المحبين"، وابن أبي حجلة (776 هجرية) صاحب "ديوان الصبابة"، ولسان الدين بن الخطيب (776 هجرية) صاحب "روضة التعريف بالحب الشريف"، والبقاعي إبراهيم بن عمر (885 هجرية) صاحب "أسواق الأشواق"، والأنطاكي داود (1008 هجرية) صاحب "تزيين الأسواق بتفصيل أسواق العشاق".

وعموماً "الحب ليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة".

\* \* \*

## الحُب طائر عجيب يجِدُّ نفسه ذاتيا

والحُب يُزَيِّن القلب، وليس له أفولٌ إلا عند نوي الجهل ممن جمُدَّت قلوبهم، إذ هؤلاء ومن سار في معيَّتهم لا يعرفون ما الحب، وبسلوكهم هذا يعتدون على أرواحهم، التي من الطبيعي أنها فُطِرَت على الحُب، الذي هو "شيء به الروح تكَلَّف".

الحُب – الذي يُبْصِرُ - يُخْضِعُ من يشاء لسلطانته القادر، لأنه من العجائب، ويملك مقومات لا محدودة في تغيير الأرواح وصياغتها، إذ له " آياتٌ تُرَى ومعارفٌ "، ولا يستطيع أحدٌ مهما أوتي من قوةٍ مقاومته أو صدّه، فهو الأسمى الذي يُحرِّك سهامه نحو من يشاء، وفي الوقت الذي يرغب، فلا قانون في الحُبِّ، إذ كل حالٍ لها قانونها وطقسها ولغتها.

فالمحب الحق يذهب إلى إلفه، يفنى في محبوبه ويتحد به، بعد أن شغفه حُبًا. والحُب يُزَيِّن القلب، وليس له أفولٌ إلا عند نوي الجهل ممن جمُدَّت قلوبهم، إذ هؤلاء ومن سار في معيَّتهم لا يعرفون ما الحب، وبسلوكهم هذا يعتدون على أرواحهم، التي من الطبيعي أنها فُطِرَت على الحُب، الذي هو " شيء به الروح تكَلَّف "فالحب كما قال قيس بن ذريح (625 – 680 ميلادية):

"... لَيْسَ يُفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ

وَإِنَّمَا يُصْرَعُ المَجْنُونُ فِي الحَيْنِ " .

فالمحب بقدر ما يفرح ويتنفَّس صُبْح قلبه، بقدر ما تشقى نفسه من فرط العذابات التي يلاقيها، من هجرانٍ ونأيٍ وبُعْدٍ وفراقٍ، وجفاءٍ وصدودٍ وحرمانٍ من المشاهدة واللقاء، خُصوصًا إذا كان قد وصل إلى أعلى المراتب والدرجات فيه من التعلُّق والتتيمُّ (ذهاب العقل من الهوى) والتدلُّه (ذهاب القلب من فرط الهوى والعشق) والهيام بمن يحبُّ، بحيث صار كالأصابع التي في راحة اليد، وفي حال كهذه يقول كبيرُ عُشَّاق العرب قيس بن المُلوِّح الملقَّب بمجنون ليلي (24 هجرية- 645 ميلادية / 68 هجرية - 688 ميلادية):

لَقَدْ تَبَنَّتْ فِي القَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةٌ

كَمَا تَبَنَّتْ فِي الرَاحَتَيْنِ الأَصَابِعُ

وهناك من يخلُق لنفسه سببًا ليتحجَّج بأن الإنسانَ يكفيه أن يحب من بُعِد، حتَّى ولو كان المحب والمحبوب قريبيْن في المسكن، مع التأجيل والتسويق والمُماظلة في اللقيا، كأنه لا يدرك أن "الاشتياقَ يهيجُ باللقاء"، وأنه "كلما ازدادت المشاهدة ازداد الحُب" بحسب ما رأى الشيخ الأكبر

محي الدين بن عربي (558 هجرية - 1164 ميلادية/638 هجرية - 1240 ميلادية) في كتابه الأكبر والأشهر "الفتوحات المكية"، على الرغم من أنني أومن بأن النأي لا يُغيّر المحبين؛ لأن الحُبَّ (الذي هو لباب الشيء وخالصة وأصله) من وجهة نظر ابن حزم الأندلسي (384 - 456 هجرية/995 - 1063 ميلادية) في كتابه الأشهر "طوق الحمامة في الألفة والألاف": "اتصال النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصلها الرفيع"، أي إنَّ الإنسان يظلُّ - حتى الموت - يبحث عن نصفه المقسوم؛ كي يتحد به، ويحلَّ فيه (نحنُ رُوحانِ حللنا بدنًا).

أو كما قال محي الدين بن عربي:

إذا ما التقينا للوداعِ حسبتنا

لدى الضمِّ والتعنيقِ حرِّفاً مشدداً

فنحنُ، وإن كُنَّا مثني شخوصنا

فما تنظرُ الأبصارُ إلاَّ مُوحداً

وما ذاك إلاَّ من نُحولي ونُوره

فلولا أنيني ما رأتُ لي مَشهدا

وإذا كان أبو منصور الثعالبي (350 - 429 هجرية/691 - 1038 ميلادية) قد رتَّب الحُبَّ وفصله في كتابه الأشهر "فقه اللغة وسر العربية"، فالقصد عندي هو ما شاع ووصل إلينا من المراتب والدرجات، وهي الحب والعشق، وإن كانت مُفردة الحب الأكثر شيوعاً في اللغة لأسبابٍ كثيرة، أبرزها أنها وردت في ست وسبعين آيةً في القرآن.

ويستخدم الفرس والأتراك وأهل آسيا الوسطى مفردة العشق أكثر، وإن كنت ممن يفضلون استخدامها.

والحبُّ ليس داءً لنبراً منه، أو فعلاً يعقبه ندمٌ، حيث الهوى لا يتحوّل إلى هوانٍ، إلا إذا كان القلبُ في عماءٍ، والرُّوح في غفلةٍ من أمرها، وعقل النفس لم يستطع التمييزَ بين الشغفِ والشهوةِ، أو بين الحبِّ والرغبةِ، أو بين الوله و النزوة؛ لأن من يعشقُ يرى الناسَ جميعاً في حالٍ، وهو في حالٍ وحده، أو كما قال الشاعرُ: "وللناسِ أشجانٌ ولي شجنٌ وحدي"؛ فالروح ترى، والعقل يُدركُ بها ويترجمُ، وما أنا إلا إنسانٌ يحاولُ أن يرى الجمالَ الأسرَّعبر رُوحه، ويحاولُ أن ينفخَ فيه بعضاً من كثيره، لأنَّ النفوسَ كما قال الإمام علي بن أبي طالب: "...ببُوت أصحابها، فإذا طرقتُموها، فأطرقوها برفقٍ".

الحبُّ بقوته ودهشته وسحره وتأثيره في تغيير النفس قادرٌ على معالجة الرُّوح، وتذليل كل عقبةٍ تُواجه الذات، وتعبيد الطريق إلى أية وجهةٍ يمكنُ للمرء أن يذهب إليها، بمعنى أنه السلطانُ الذي يملك كل طاقات وأدوات التحوُّل والصياعة والخلق، بل والبعث من جديدٍ، كأنه طائرُ الرماد (طائر الفينيق أو طائر العنقاء)، الدال على التحدي والتجدد والولادة الثانية، وهو يمتازُ بالجمال والقوَّة، وعندما يموت يحترقُ ويصيرُ رماداً، ويخرج من الرماد طائراً مرَّةً ثانيةً جديداً؛ مما يعني عندي أن الحب لا يموت، بل دائم الولادة، شرط أن يكون المُحبُّ مُوجِّداً بمحبوبه، أي لا يشركُ معه أحداً، وما قالته العرب:

أَيَقْنَتْ أَنَّ الْمُسْتَجِيلَ ثَلَاثَةٌ

الغُولُ وَالْعَنْقَاءُ وَالْخِلُّ الْوَفِيُّ

أو ثلاثة ليس لها وجود، الغول والعنقاء والخل الودود. مثال لا أو من به، إذا الحب موجودٌ يصادفك أو يأتي إليك، أو تذهبُ إليه، أو تلتقيان في منتصف الطريق، أو تمنحه السماء لك بعد طول انتظارٍ وسعي.

لكننا صرنا – في مجتمع – صار يسترُ مفردة العشق ويخفيها، ويراهها من الخبائث، ويُكني عنها بسواها، كأنها عيبٌ أو عارٌ، أو رذيلةٌ أو خطيئةٌ:

"وزادني كلفاً في الحبِّ أن مُنِعَتْ

أحبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعاً"

قيس بن الملوح (مجنون ليلي)

وأرى أن المحبة هي "ما تهوى الأنفس"، وهي ريشة في جناح طائر أسطوري اسمهُ العشق، وهناك من سبقني من الفلاسفة، وعدَّ العشق آخر مراتب المحبة، وأن المحبة أول درجة في العروج إلى العشق، وهو آخر مقام في الوصل والوصول، وسواء قرن بالشهوة أو دونها، فهو التجلي الأخير للروح حين تعرج، وللجسد حين يشطح، منشداً أغنيته الأبدية في بدنها البكر، وبدائها برية الفطرة، كأنَّ جسداً فاتناً ألقى على كرسي العاشق، إذ هو في ذوبٍ من جنون فتننة المعشوق، حيث العشق هو الجنة المأوى، فما العاشق إلا رجلٌ جمع في مخيلة رُوحه النساء فاختر أحسنهن وأتمهن وأكثرهن فرادة، فالعاشق في عُرفي لا يفضل عليه أحد، إذ هو منّاخ عطاءً يهب بلا حدٍ: "خير ما يوهب مالا يُسترد" – العباس بن الأحنف.





الشَّمَامَاتِ وَالْأَحْرَازِ، وَالْحَوَاتِمِ وَخَزَائِمِ الْأَنْفِ، وَالنِّيَابِ الْمُرْخَرَفَةِ وَالْعُطْفِ وَالْأَرْدِيَةِ وَالْأَكْيَاسِ،  
وَالْمَرَائِي وَالْفُمْصَانَ وَالْعَمَائِمِ وَالْأُرْرَ، فَيَكُونُ عَوْضَ الطَّيِّبِ عَفْوَةً، وَعَوْضَ الْمِنْطَقَةِ حَبْلًا، وَعَوْضَ  
الْجَدَائِلِ قَرَعَةً، وَعَوْضَ الدِّيَابِجِ زُنَّارُ مَسْحٍ، وَعَوْضَ الْجَمَالِ كَيْ، رَجَالِكِ يَسْفُطُونَ بِالسَّيْفِ، وَأَبْطَالِكِ  
فِي الْحَرْبِ. فَتَنْتِنُ وَتَنْوُحُ أَبْوَابُهَا، وَهِيَ قَارِعَةٌ تَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ".

وتعمل الجواهرُ عملها مع عطر المرأة، دون أن ننسى أو نغضَّ الطرفَ عن رائحة جسدها، إذُ  
للجسد رائحةً يدركها العاشقُ البصيرُ العارفُ، وهي أبهى وأفتنُّ وأحدُّ وأكثرُ سلطةً وسطوةً من  
العطور المُخَلَّقة أو المُصنَّعة، إنها الرائحة الإلهية التي لا تتشابه أبدًا مع رائحةٍ أخرى لامرأةٍ ثانية،  
ومنذ قديم الزمان والمرأة تمزجُ بين طيب جسدها وطيب العطر الذي تستخدمه، لأنها تعرفُ عمقَ  
العلاقة بين الأنف والكهف، فالرائحة توقظُ وتحضُّ وتذكِّرُ.

ونقرأ في الحديث النبوي: "خير نسائكم العَطْرَةُ الْمَطْرَةُ"، وقال عليُّ بن أبي طالب: "خير نسائكم  
الطَّيِّبَةُ الرَّائِحَةُ...".

وذكر الإمام جلال الدين السيوطي في إحدى رسائله عن العشق أن أبا ياسر البغدادي قد ذكر في -  
رسالة الطيب- : أن "الطيب أعظمُ لذات البشر، وأقواها لدواعي الوطء، وقضاء الوطر، فإن المرأة  
إذا شمتَ الطيبَ ذكرتِ الباه".

والمرأة المُستحَبَّة من بين النساء من لها رائحةٌ، حتَّى ولو لم تضع عطرًا، وأذكر هنا بيت امرؤ  
القيس (130- 80 قبل الهجرة / 496 - 544 ميلادية) في وصف زوجه أم جندب:

ألم ترياني كُلمًا جئتُ طارقًا

وجدتُ بها طيبًا وإن لم تطيب

والمرأة (التي هي عندي المعنى) إذا تجرّدت ممّا تلبسُ، معناه أنها عادت إلى الأصل، أي تحرّرت  
من القيود والسواتر ماديًا ونفسيًا، وتركت العلائق والعوائق حرّة طائفةً، وتخلّت عمّا يسدُّ أبوابها ،  
مُقتنعةً وليس إثر عواملٍ أخرى، وانتزعت المغاليق عارفةً ومُدركةً فعلها، والتفتت إلى العاشق (   
الذي هو عندي اللفظ ) وحده دون غيره أو "استخرجت ذهنيًا الماهية بقطع النَّظَر عن تشخُّصها  
الخارجي" - كما يشير تعريف معنى تجرّد في معجم المعاني الجامع - وخرجت من لفائفها، كأنها  
سُنْبُلَةٌ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مَائَةٌ حَبَّةٌ، وفي العودة معناه العفوية والتلقائية، ومواجهة الذات في مراتها، أو  
مرأة من تعشقُ، والذهاب نحو اللحظة الأولى لحواء، حيث الفطرة والغريزة، والبكورة والصدق  
والصفاء والشفافية والتجرّد مما يزيد المرء ثقلًا، فالصدق رديفُ التجرّد مثله مثل العشق تمامًا، لأن  
" الحُبُّ أعظمُ شهوةٍ وأكملها" كما يذكر محي الدين بن عربي (558 هجرية - 1164 ميلادية /  
638 هجرية - 1240 ميلادية).

ومن تجرّد فقد تجدد، وعاد إلى سيرته الأولى، وتخفّف من أحماله، وقشّر جسده مما علق به في مسيرة الحياة الشّاقة الشّائقة من أعراف ومحرمات وتقاليد تُمثّل شواغل وزوائد، والتجرّد هو ذهاب المعشوق مع العاشق إلى أبعد نقطة من الجذر الأوّل.

ولا أحد ينسى قصيدة " المُتجرّدة " – هند بنت عامر بن صعصعة " للنايعة الذبياني (ولد سنة 230 قبل الهجرة)، التي يصف فيها زوجة النعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة (582- 609 ميلادية )، والتي كانت عاشقة لـ "رقاش بنت الحسن اليمانية"، وهي أوّل امرأة سنّت السحاق عند العرب:

سقط النصيف ولم تُرد إسقاطه

فتناولته واتقتنا باليد

ففي التجرّد تعبد، حيث يطوف العاشق والمعشوق حول أماكنهما المقدّسة، وهما مُجرّدان من الملابس؛ خشية أن يكون عالقًا بها شوائب، تفسد ما هو شفيف ونقيّ.

مشكلة الرجل في العشق أنه يتعامل مع امرأته على أنها دونه بكثيرٍ في كلّ شيء، عقلها ناقص، ودينها أيضًا ناقص، حيث حُشيت رأسه منذ طفولته في المدارس والبيوت والمساجد والكنائس والمعابد بأنّ الأنثى نجسةٌ وليست طاهرة، ومدنّسةٌ وليست مقدّسة، وغاويةٌ وليست مُحويةً أو مُرشدةً أو عارفةً أو حكيمةً، وأنها عوجاء وليست مستقيمةً الرّوح والنفس والجسد، وتابعةٌ وليست قائدةً، وسفيهةٌ وليست أصيلةً، ومُخرّبةٌ وليست مُعمّرةً.

ومن يتأمّل اللغة العربية سيدرك منذ الوهلة الأولى أنها لغةٌ أموميةٌ بامتياز، حيث تنحاز إلى المؤنث، وهذا أمرٌ لافتٌ وجليٌّ وقديمٌ قبل ظهور الديانة الإسلامية بكثير، إذ كانت المرأة تُعبدُ كونها إلهةً لها قداسُها، كما أنّ عددًا كبيرًا من شعراء العربية نُسبوا إلى أمهاتهم، مثلما نُسبت قبائل عربية إلى أسماء أمهات، وهذا ينسحب إلى القرى والمدن والدول العربية، حيث سجدت النسبة الغالبة منها مؤنّثة، وقليلها هو المذكّر، ومن ثمّ لم يأت قول ابن عربي: "المكان الذي لا يُؤنّث لا يُعوّل عليه" اعتبارًا أو مُصادفةً أو خبط عشواء.

والمرأة "المعشوق" – كما أرى – أصلٌ وليست فرعًا، وإذا كان اللغويون يرون المذكّر أصلًا والمؤنث فرعًا، فلا يمكن أن ينسحب ذلك على المرأة، حتى لو أراد " فرض" المجتمع ذلك قسرًا وعنوةً.

المرأة حضارةٌ وحدها، لكننا نرفض التسليم بتلك الحقيقة التي تؤكد كل الشواهد صدقها، وليست مُجرّد فرضية معنوية أو مسألة لغوية، في مجتمعٍ يغلب ما هو مُذكّر على ما هو مؤنّث.

\* \* \*

# العشقُ يحذفُ "الواو"

## بين العاشقِ والمعشوق

معظم كُتب العشق العربية – وهي كثيرةٌ وأغلبها مطبوعٌ ومتاحٌ، وقليلها مخطوطٌ أو يُباع سرًّا - كتبها فقهاء وأئمةٌ وأصحابُ مذاهب، وعلماء وقضاةٌ شرعيون، ومفسِّرون عظامٌ للقرآن، ربما لأن هؤلاء كانوا يدركون أن الكونَ خُلِقَ من نسيج غزَلتُه أيدي العشق، وما الطين الذي ينتمي إليه الإنسانُ إلا نَفخةٌ من فم العشق، وكأنَّ المواد الأولية التي أسَّست هذا الكون وصاغته، وخلقته على النحو الذي نعرفه عليه الآن، هي موادٌ مُستقاةٌ من بئر العشق الأبدية، والتي قَدِّر لها ألا تنفد.

كثيرٌ من الفقهاء والعلماء والمفكرين في زماننا، لا يكتبون في موضوع مهم وأساسيٍّ، وهو العشق، الذي هو مُجازة الحدِّ في الحب، والإفراط فيه، والوصول به إلى شجرة مُنتهاه ، كأنهم يرون الخوض فيه عارًا يُخجلُ، أو رذيلةً، أو جريمةً لا تُعْتَفَرُ في حق تاريخهم، وصورهم في المجتمع، وأمام من يعرفونهم، ناسين أنَّ معظم كُتب العشق العربية – وهي كثيرةٌ وأغلبها مطبوعٌ ومتاحٌ، وقليلها مخطوطٌ أو يُباع سرًّا - كتبها فقهاء وأئمةٌ وأصحابُ مذاهب، وعلماء وقضاةٌ شرعيون، ومفسِّرون عظامٌ للقرآن، ربما لأن هؤلاء كانوا يدركون أن الكونَ خُلِقَ من نسيج غزَلتُه أيدي العشق، وما الطين الذي ينتمي إليه الإنسانُ إلا نَفخةٌ من فم العشق، وكأنَّ المواد الأولية التي أسَّست هذا الكون وصاغته، وخلقته على النحو الذي نعرفه عليه الآن، هي موادٌ مُستقاةٌ من بئر العشق الأبدية، والتي قَدِّر لها ألا تنفد؛ ولذا فإنَّ العاشقَ الأسمى هو من لم يشغله أحدٌ عن محبَّة من غرق في بحر عشقه ، حيث العاشق يبتغي المتعة الرُّوحية والحسيَّة، مؤسسًا عشقه على النقاء وصفاء الجوهر، بحيث لا تكون هناك منافع أو مكاسب أو فوائد أو مصالح حياتية دنيوية مادية، لأنَّ أيَّ شيءٍ يقوم على الفائدة لا تتحقَّق له الحياة، ويزول سريعًا، ولا يشتعل له ضوء.

والعشقُ ليس مرضًا نفسيًّا أو جنونًا إلهيًّا أو ابتلاءً عظيمًا كما زعم كثيرون من أهل الجهل بالعشق.

ويبدو أن هؤلاء لم يعرفوا العشق، ولم يذوقوا الوصلَ، لأن تجربة الكتابة فيه أو عنه، لا تحتاجُ باحثًا دارسًا بقدر ما تحتاجُ عاشقًا عارفًا، يكتبُ بيانَ عشقه من داخله، كما فعل ابن حزم الأندلسي نفسه، أو سجَّل شعراء في حجم قيس بن الملوح، وقيس بن ذريح، والعباس بن الأحنف، وعمر بن أبي ربيعة، وكثير عزة، وجميل بثينة تجاربهم في شعرٍ ما زال حيًّا مُتداولًا كأنه كُتِب أمس، وينتقل من عصرٍ إلى عصرٍ:

"لا يَعْرِفُ الشَّوْقَ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ

ولا الصَّبَابَةَ إِلَّا مَنْ يُعَانِيهَا

لايسهرُ الليلَ إلا من به ألمٌ

ولا تحرقُ النارُ إلا رجلَ واطيها".

والحُبُّ الذي أعني هنا هو الحُبُّ الذي لا سواحلَ له، مفتوحُ الأفاق، بلا حُدُودٍ ولا جُدُران تعزلُ وتصمُّ، هو الأعمقُ العظيمُ الذي يُحيي ويُشفي، ويُصفي القلب، ويُقي الرُّوح، وينخلُ من نفس الإنسان كلَّ شائبةٍ، ويجعله في حال فرحٍ دائمٍ، ومن ثمَّ يطولُ عمرُ المحب، والحُبُّ الذي لا شراكةَ فيه ولا تعدُّد، يعفي من الموت، و"يجاوز شطآن الموت" كما يذكر الشاعر الروماني بروبينوس، أو كما يقول الشاعر العربي:

"أحبُّ حبيبًا واحدًا لستُ أبتغي

مدى الدهرِ عنه ما حبيثُ بديلا

فإن ظفرتُ كفى به فهو بُغيّتي

وإن فات ما أبغي سواه بديلا".

لأن النفس التي تعشقُ مزيجٌ من النفس النباتية، والنفس الناطقة، حيث ترتبطُ - بحكم مولدها - بحركة القمر والزهرة وزُحل، والشَّمس والمريخ وعطارد والمشتري، وهذا من شأنه أن يجعل المحب سائرًا في فلك نجمه، ومن ثمَّ يتحقَّق الخلود في العشق، إذا ما خلا من المُماطلة والمُساوفة والممانعة والمُتاجرة والمُداورة والمُناورة والمُغالبة والمُراوغة والمُخادعة.

ففي حال الحبِّ، كلُّ شيء يتحوَّل ويتغيَّر، ليس فقط في سلوك المحب والمحبوب، ولكن في سلوك الكائنات والموجودات جميعها التي تحيطُ بهما، إذ هي مثلما تمارسُ عشقها، تطربُ وتفرحُ وتسعد إذا تحاب البشر الذين يشاركون الكائنات الأخرى حياتها، والتي تعمُر وتستمر بالحُب، فالطبيعة تشاركنا عشقنا، حيث تتبعنا الأشجارُ أينما كنَّا، كأنها تشهد على عشقنا، وتلتحق بنا النجومُ أينما سرنا أو جلسنا، وقديماً قيل "الحُب إلهٌ له شهرته بين البشر". فالحُب - دومًا - ينتصرُ، ويهزمُ المشكلات والعقبات التي تواجههُ، وإن لم يكن مُنتصرًا، ما كانت هناك زهورٌ بيضاء تنبتُ في

حدائق جمال الدنيا، إذ هو يتحدّى الخريف في إصرارٍ، حيث تعيشُ الرُّوح بلا آلامٍ أو أحزانٍ تُعرق صاحبها في بحرِ الكآبة.

إنَّ كارهي الحُب لهم قلوبٌ من حديدٍ، وأحشاء من بُرادةِ النحاسِ المخلُوطِ بِبُرادةِ معادن كثيرةٍ مجهولةِ النسب، ومن ثمَّ لأرواحهم لون السواد.

إنَّ أجمل ما في العشق، أنه يحذفُ حرفَ الواو بين العاشقِ والمعشوقِ، حيث الواو يُمكن أن تكون ستارًا أو حاجزًا أو حتى ملابس، ومن ثمَّ بعد زوال الواو (الواو من حروف العطف تجمع الشيين) يحدث الحلولُ والاتحادُ، بحيث يصيران كأنهما حرفٌ مُشدَّدٌ من فرط الضمِّ والعناقِ وتداخلِ الجسدين والتحامهما.

والنكاح ( وهو نفسه الجَماع أو الجَمع أو السِر ): ( ڤچ چ چڤڤ ) [سورة البقرة: آية 235]، في أصل اللغة العربية، هو اسمٌ للجَمع بين الشيين ( المرأة والرجل )، ليس بينهما هذه "الواو" الظاهرة، التي قد تحجُبُ رغم شفافيتها وعطفها، وقد وردت هذه المُفردة بعائلتها في أربعةٍ وعشرين موضعًا في القرآن.

والعشق فيه فناءٌ ومَنحٌ وهبةٌ، فما جسدا العاشقِ والمعشوقِ إلا جمعٌ من الحركات والسكنات التي تتحرَّكُ مع بدء فعلِ العشق حين الوصل والاتصال، حيث يُجامع كلُّ حرفٍ في جسد العاشق حرفة في جسدِ المعشوقِ، وتكون النتيجة بعد التناغم ووحدة وجود الحرفين أن يصير كلُّ حرفين حرفًا واحدًا مُشدَّدًا إثر المغازلة والبوح والمعانقة والملامسة والمباشرة والمخالطة والمواقعة والملاصقة بين ضديين أو نقيضين، والدخول والجهد والحلج والدَّوس والدَّفْع والضرب والرَّدع والطَّعن والقطع والشَّقِّ والنحت؛ من فرط وصولة إلى سدرة مُنتهى العلو والعُروج، أي بلوغ الغاية القصوى، فالمرأة بمنزلة الثمرة على الشجرة إذا نضجت ولم يدركها طالبها أو مريدُها أو راغبها من العشاق أسدتها الشمسُ أو أعطبتها الرياحُ بما تحملُ، أو أكلتها الطيرُ الشاردةُ أو المقيمةُ في محيط المكان.

ففي الخلوة يصنع العاشقُ والمعشوقُ ما يشاءان، لأنَّ من عملِ العشق "تأليف المتفرِّق من الأمور"، وفتح كعبة المعشوقِ، يقول سعدي الشيرازي ( شاعر فارسي عاش في القرن السابع للهجرة - توفي 690 أو 694 هجرية):

قال لي المحبوبُ لمَّا زرتُه:

مَنْ يبابي؟ قلتُ بالباب أنا

قال لي:

أخطأت تعريفَ الهوى حينما فرقتَ فيه بيننا

ومضى عامً فلَمَّا جَنَّتْهُ أَطْرُقُ البَابَ عَلَيْهِ مُوهِنًا

قال لي: مَنْ أَنْتَ؟

قلتُ: انظُرْ فما تَمَّ إِلَّا أَنْتَ بالبَابِ هُنَا

قال لي:

أَحْسَنْتَ تَعْرِيفَ الهَوَى وَعَرَفْتَ الحُبَّ فَادْخُلْ يَا أَنَا.

\* \* \*

## التداوي بالعشق

لا يمكن لامرأة أن نصفها بالنائمة والكاملة، ما لم يكن جهاز أنوثتها يعمل وليس مُعطلًا عن الشغل ، أو منقوصًا أو ضعيفًا.

عندما تُحبُّ أحدًا - حبًّا لا يُحدُّ - فأنت تَشْتَقُّ منه، لِمَا بينكما من مُشاكلة، وشائج متينة، وأواصر قوية، وصلاتٍ حميمة، وألفة ، وقُرب عميق وخاص، كأنه شجرةٌ أصلٌ تلدُّ فروعًا، وتثمرُ فاكهةً جديدةً تنتقلُ إلى بطنِ رُوحك . كأنه كلمةٌ أولى تلدُّ وتُشتقُّ منها الأفعالُ والأسماءُ؛ فالاشتقاق فعلٌ عشقٍ، وطقسُ خَلْقٍ، يتصلُّ ولا ينفصلُ، ابن الولادة الدائمة لا العُقم؛ لأن الأصل في المحبة - كما يقول محي الدين بن عربي - : "أن تكون أنتَ عين محبوبك وتغيبُ فيه عنك، فيكون هو ولا أنت".

والمرأة لغةً، كلتاها يُشتقُّ منها، ومن لا يقدِرُ على الاشتقاق مصيرُه الفناء، وكلُّ لغةٍ عدمت الاشتقاق ماتت، وكل امرأةٍ ضربتِ الشمسُ جذورَها خاصمها الاشتقاق؛ فانزوت وذبلت وجفت على عودها.

يقول الحلاج (244 - 309 هجرية / 858 - 922 ميلادية):

جُبِلْتُ رُوحَكَ في رُوحِي كما

يُجِبُّ العَنَبُ في المِسْكِ الفَتِيقُ

فإذا مسَّكَ شيءٌ مسنِي

فإذا أنتَ أنا لا نفترقُ.

وما يحدثُ في العشق (وهو جنونٌ إلهيٌّ كما رآه أفلاطون) من امتزاجٍ وازدواجٍ وتزاوجٍ ، حيث التغازُلُ والتداخلُ والتداولُ والتبادلُ والتناوُلُ، كأنَّ العاشقَ والمعشوقَ في اقتتالٍ، وفي مُعجم "تاج العروس" لمرتضى الزبيدي (1145 - 1205 هجرية / 1732 - 1790 ميلادية): (اقتتل الرجل معناه إذا عشقَ عشقًا مبرحًا)، يحدثُ الشيءُ نفسه في الكلام، ولا يستمرُّ عشقٌ لا يطولُهُ مطرٌ، ينزلُ من سماءِ العاشق، وكذا لا تستمرُّ لغةٌ تبيثُ في سريرها دُونَ تلافحٍ؛ كي تحيا وتتسع أرضها، ولا تضمر أعضاؤها وتتحوَّلُ أو تجمُدُ أو تنشفُ أو تتصلَّب.

ولا يمكن لامرأة أن نصفها بالتامة والكاملة، ما لم يكن جهاز أنوثتها يعمل وليس مُعطلاً عن الشغل، أو منقوصاً أو ضعيفاً.

وفي الزمن العربي القديم كانت النساء يتداوين بالعشق، إذ - كان وما يزال - هو الدواء الذي لا مثيل له، يشفي الجسد والروح، ويشرح الصدور، ويحيي موات القلوب، ويبلغ بالمرأة إلى أقصى مدى، لأن "الرجل لباس المرأة، وهي لباسه"، وكأس شراب الحب هو القلب من المحب لا عقله ولا حسه "كما يذكر ابن عربي، وما العشق في أحد معانيه إلا شرح وكشف وفتح لجسد المرأة، وما الرجل إلا سفينة يبحرُ بعمقٍ مُدهشٍ نحو ساحلي أو شاطئ المرأة، يقول الأحرص الأنصاري (105 هجرية/723 ميلادية):

مَا عَالَجَ النَّاسُ مِثْلَ الْحُبِّ مِنْ سَقَمٍ

وَلَا بَرَى مِثْلَهُ عِظْمًا وَلَا جَسَدًا

مَا يَلْبِثُ الْحُبُّ أَنْ تَبْدُو شَوَاهِدُهُ

مِنَ الْمُحِبِّ وَإِنْ لَمْ يُبْدِهِ أَبَدًا

وبدلاً من أن نبحث عن التداوي بالعُشب، علينا أن نَعَمَّ تجربة التداوي بالعشق، وهي تجربةٌ مجرّبةٌ وشهيرةٌ في تراث العشق العربي، وفي زماننا، وفي كل الأزمان، ولو كتب كلُّ مُحِبِّ تجربته في العشق، لرأينا عجباً، إذ لكل عاشقٍ مزاج خاص ومختلف، وفصول جديدة وذاتية في تجربته، ولا أتصورُ أن تجربةً تنسخُ أخرى أو تكررُها.

وفي العشق على المحراث أن يشقَّ الأرضَ، وعلى الرجل أن يحفر بئرَهُ، كما جاء في كلِّ التعاليم والوصايا والنصوص الدينية سماويةً كانت أو أرضيةً.

ففي العشق شيءٌ من الجنّة، أو هو الجنّة - كلها - بما حوت، فهو يُذهبُ الحزنَ، إذ فيه يحوز الرجل امرأته دون تملكٍ، والحياسة هنا تعني الجذب والعلو والحشو والملاء والدفع والمخالطة والمداخلة والمُجامعة والزعزعة والزلزلة والإرواء ولا تعني الامتلاك والاستبداد.

والإمام علي بن أبي طالب (23 قبل الهجرة- 599 ميلادية / 40 هجرية -661 ميلادية ) يقول شعراً في الحثِّ على العشق، وإتيان المرأة يومياً:

"طوبى لمن كانت له قوصرة

يأكل منها كلَّ يومِ ثمرة".

والمقصود بالقوصرة المرأة وهي وعاء من قصب يعمل للتمر. و"تكني العرب عن المرأة بالقارورة والقوصرة . قال ابن بري: وهذا الرجز ينسب إلى علي بن أبي طالب - عليه السلام - وقالوا: أراد بالقوصرة المرأة، وبالأكل النكاح " مثلما جاء في "لسان العرب" لابن منظور (630 - 711 هجرية/ 1232 - 1311 ميلادية) .

وإذا وجدنا في زماننا أن الرجل صار مهجوساً بجسد المرأة دون أن يعبر قنطرة عقلها، ذاهباً نحو نهر رُوحها، ومن ثم يفشل في مسعاه، إذ لا عشق يبقى أو يكبر إذا كان محوره الجسد، لأن العشق ليس فقط "ثقب اللؤلؤ" أو "فضّ الصدف" أو "إدخال المرود في المكحلة"، وهذه النظرة لها امتدادها في ثقافتنا العربية - قديماً - حيث نقرأ في كتاب "الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيان التوحيدي " 310 - 414 هجرية/ 922 - 1023 ميلادية" أنه: "كان الرجل فيما مضى إذا عشق الجارية راسلها سنة، ثم رضي أن يمضغ العلك الذي تمضغه، ثم إذا تلاقيا تحدّثا وتناشدا الأشعار، فصار الرجل اليوم إذا عشق الجارية لم يكن له هم إلا أن يرفع رجلها؛ كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة". قال محمد بن سيرين: "كانوا يعشقون من غير ربيبة، فكان لا يستنكر من الرجل أن يجيء فيحدث أهل البيت ثم يذهب. قال هشام: ولكنهم

لا يرضون اليوم إلا بالمواقعة" . كأن الرجل في زمن أبي حيان أو في زمان الجاحظ أو في زماننا هذا لا يدرك أن المرأة هي "التي تُخطب وتُراد وتُعشق وتُطلب، وهي التي تُفدى وتُحمى " كما يذكر الجاحظ (159 هجرية - 775 ميلادية/ 255 هجرية- 868 ميلادية) أحد أوائل العرب الذين كتبوا في العشق، وقد تجلّى ذلك في كتابه الأشهر "الحيوان".

وقبل ألف عام أو يزيد - أي في القرن التاسع الميلادي - انشغل أتباع الهوى من الفقهاء والأئمة والمتكلمين والفلاسفة والمنتصوفة بموضوع العشق، وقدموا فيه كتباً ورسائل، ولهم فيه رؤى ونظرات وقصصٌ ونوادرٌ وطرائفٌ تشير إلى عقولٍ عارفةٍ تعمل، ولا تجعل اشتغالها بالدين يحجبها أو يمنعها عن التأليف في علم العشق، ووضع أسس وقواعد ونظريات فيه، أسست وغيّرت وأثرت في المجتمع العربي، وانتقل هذا التأثير إلى أوروبا عبر كتاب ابن حزم الشهير (طوق الحمامة في الألفة والألاف)، وجاء بعدهم الشعراء العذريون؛ فقدموا تجارب مهمة ما تزال تعيش معنا ونستعيدها، وقد عانى كثيرٌ من هؤلاء الفقهاء ظلم المجتمع لهم ومن عاصروهم؛ لأنهم كتبوا في العشق، والكتابة فيه " أمر لا يليق بأولي الفضل "، وكان ابن حزم يعلم ذلك جيداً، لكنه مضى في طريقه مؤلفاً كتابه مُردِّداً : "وأنا أعلم أنه سينكر عليّ بعض المتعصّبين على تألّيفي لمثل هذا،...".

ومن أشهر رسائل العشق وكُتبه ما قدمه للحضارة الإنسانية كل من: الجاحظ ، وابن سينا، والكندي، وابن داود الظاهري، والوشاء، وابن المعتز، وإخوان الصفاء وابن حزم وسواهم.

لكنَّ دعاء محي الدين بن عربي : "إلهي، اسقني لا بالحُبِّ، ولكن بالرغبة فيه"، لا يزال يتردَّد بين السَّاعين إلى الحُبِّ، إذا سعى كل من ضربه العشق إلى من يعشق، دون أن يقبل من واشٍ حرفاً ضد من يحبُّ؛ لأن الثقة بين العُشَّاق وأهل الوَلَه حَيَّة ولا تموتُ أو يصيبها وهَن.



## العشقُ فضيلةٌ وليس رذيلة

لا أحد يملك أن يرذِّدَّ العشق أو يبعده عن وجه قلبه، لأن سلطانه أعز من سلطان الملوك، ولا فرار أمام العاشق من أن يصل المعشوق، ويمضي معه في الطريق، وإذا كانت الحياة سلسلة من المقامات؛ فإن العشق هو المقام الأكمل والأتم لدى من يعشق ويعرف ويفقه، إذ لا إيمان بشيء دون حُب، ولا يقين لدى العاشق أو المعشوق إن لم يكن القلب في مدار التصديق والتحقُّق، لأن العشق تمامُ النفس، وكمالُ القلب، وعلامةٌ على قوة ذات من يحب، وليست دليلاً على وهنيه وضعفه.

العشقُ فضيلةٌ وليس رذيلةٌ أو خطيئة يرتكبها من يعشق؛ لأن المرأة ليست شرًّا مستطيرًا، أو إثماً ملعونًا، أو شيطانًا رجيماً يفسد الرجل، والحب لا يناقض الدين، أو يخالف الأخلاق والقيم، (وليس يُمنكِرُ في الديانة ولا بمحظورٍ في الشريعة، إذ القلوبُ بيد الله عزَّ وجلَّ)، والحبُّ "اتصالٌ بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عُصرها الرفيع" كما يذكر ابن حزم الأندلسي في كتابه (طوق الحمامة في الألفة والألف)، أي إن الحب ليس مُحرمًا ولا ممنوعًا، بل هو اتحادٌ بين رُوحين متحابين.

والعشق هو فلسفة الفطرة التي يكون عليها المُحبُّ والمحبُّوبُ كلُّ في فلكه أو هما معًا، فلا تنمُّوه - كما فعل السُّفهاء منَّا والمتعصِّبون - بل اذكروا محاسنه، لأنه يقوي النفس ويغنيها، ويجعلها خيرةً سخية متوهجة، حيث لا فظاظة ولا غلظة أو احتداد وعنف، وتصير رؤيتها أكثر جلاءً ووضوحًا، ويوسِّع أفقها أكثر، ويزيدها فرحًا، ويعينها على فهم ذاتها، ويعودها الصدق والحُرية، والثقة بالذات، ويجعل الإنسان مُرتفعًا نبيلًا في سلوكه وكلامه، عالي المقام، سويًا مستقيمًا، لا عوار فيه ولا مرض، فالحبُّ ليس ابن الغرض، بل ابن النبض والبسط وليس القبض، لأنَّ النفسَ فُطرت على العشق، والهوى يغلبُ عليها .

وفي العشق (لا يمكن لأحدٍ أن يكون مخلصًا للحبِّ ما لم يخضع له)، والإنسان بتأثير سلطة العشق وسطوته يستطيع أن يفعل ما لم يكن يفعله قبل أن يصير ابنًا للعشق، أو إمامًا له، أو مؤمنًا به، أو ممارسًا له، والشاعر يقول: "لأنني ببهجة الحب أوجَّه لساني وعيني وقلبي وعقلي".

والحبُّ طبقا لفلسفة الفطرة - مثلما جاء على لسان جارية كانت مُعلَّقةً بأستار الكعبة -: "جلَّ والله عن أن يُحصى، وخَفِيَ عن أن يُرى. فهو كامنٌ ككُمون النار في حَجْرها. إن قَدَحْتَهُ ورى، وإن تركتَهُ توارى". كما يروي الأصمعي (121 - 216 هجرية / 740 - 831 ميلادية) حينما سألهما : ما الحب؟

وإذا كان الحُبُّ عند الإغريق له ربُّ هو «كيوبيد» ابن «عطارد» بالعربية أو «ميركوري» باليونانية و «الزُّهرة» بالعربية (جاء في لسان العرب: الزُّهرة هي الحُسن والبياض)، ويُسمَّى أحياناً نجم الصبح أو نجم المساء، ويطلق عليه أخت الأرض، وسمَّاه البابليون عشتار، وهي تمثل الأنوثة وإلهة الحُب عندهم. أو «ينوس» عند الرومان إلهة الجمال والحُب، أو أفروديت (إلهة الحُب، وكان لها قبل الإسلام معبد في مدينة الطائف بالحجاز حيث عبدها العرب وسمَّوها اللات)، كما يُعرَف كوكب "الزُّهرة" عند الهنود القدماء باسم "شوكرا". ومن هنا جاءت تسمية واحد من أقدم وأشهر كتب العشق العربي، وهو "الزُّهرة" لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني الفقيه الظاهري (255 - 297 هجرية / 869 - 910 ميلادية)، وقد وضعه في بغداد سنة 890 ميلادية، والحب عند العرب قضاءً من الله، لأنَّ القلوب بيده، وهو مُقلِّبها أنَّى شاء:

"فيا ربِّ سَوِّ الحُبَّ بيني وبينها

يكون كفافاً... لا عليّ ولا ليا".

ولا أحد يملك أن يرُدَّ العشق أو يبعده عن وجه قلبه، لأن سلطانه أعز من سلطان الملوك، ولا فرار أمام العاشق من أن يصل المعشوق، ويمضي معه في الطريق، وإذا كانت الحياة سلسلةً من المقامات؛ فإن العشق هو المقام الأكمل والأتم لدى من يعشق ويعرف ويفقه، إذ لا إيمان بشيء دون حُب، ولا يقين لدى العاشق أو المعشوق إن لم يكن القلب في مدار التصديق والتحقُّق، لأن العشق تمامُ النفس، وكمالُ القلب، وعلامةٌ على قوة ذات من يحب، وليست دليلاً على وهنيه وضعفه.

فلا محبة بلا معرفة ذات من تعشق، أو إدراك ومخالطة لمن تحبُّ، وموافقة ومؤالفة واندماج بين روحيين، وإن كنت أدرك أنه في العشق نادراً ما يجد الماء مجرى يوافقه، (وشبه الشيء منجذبٌ إليه)؛ لأن "الشبيه يبحث عن الشبيه" فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسَّموات، وعليها فطرت المخلوقات، ولها تحرَّكت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها واتصلت بداياتها بنهاياتها، وبها ظفرت النفوس بمطالبها، وحصلت على نيل مآربها وتخلصت من معاطبها" - روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية-.

ويقول ابن الرومي (221 هجرية - 836 ميلادية / 283 هجرية - 896 ميلادية):

أعانفها والنفسُ بعدُ مشوقةٌ

إليها وهل بعد العناق تداني

وألثمُ فاها كي تزول صبابتي

فيشتد ما ألقى من الهيمان

ولم يكن مقدار الذي بي من الجوى

ليشفيه ما ترشف الشفتان

كأن فؤادي ليس يشفي غليله

سوى أن يرى الروحين تمتزجان.

ولو كان هناك حبٌ جامعٌ وعميقٌ، وليس مجرد رغبةٍ عابرةٍ أو محض نزوةٍ عارضةٍ، فأنا مع المنح التام، والبذل دون أغراضٍ، والهبة المقدسة دون انتظار شيء؛ لأنَّ العشق أكبرُ من الشروط، وأقوى من القوانين والأعراف، وما دام هناك امتزاجٌ وازدواجٌ واتحادٌ بين رُوحين فلا بد للجسدين أن يصيرا واحداً .

أما فيما هو عابرٌ فلا محل للرجل أو المرأة أساساً في أمر كهذا يتطلب وجود عُشاق لا قانصين للأجساد أو كنوز النساء على اختلافها وتعددها في المرأة الواحدة، خصوصاً لو كانت بريئة الطابع، عفوية السمات، ولو تأملنا الشعر العربي، لوجدنا أن المرأة قد وصلت فيه درجةً من الألوهية والعبادة المقدسة، لا نجدها في شعر ذلك الزمان، ولا في شعر زماننا هذا، وتلك الربوبية انتقلت فيما بعد من الأندلس إلى سائر أوروبا، بل سجد شعراء في أوروبا (بدايات القرن الثاني عشر الميلادي، في جنوب فرنسا تحديداً) يقلدون الفقيه الأندلسي ابن حزم (384 هجرية- 994 ميلادية / 456 هجرية- 1064 ميلادية) في كتابه (طوق الحمامة في الألفة والألف)، وهو الكتاب الأتم والأكمل في فلسفة العشق عربياً وإنسانياً، ذلك الكتاب الذي ألفه في مدينة " شاطبة " - وقد عاش من علمائها شاطبيون في مصر، ودفنوا ما بين الإسكندرية والمقطم"، حوالي سنة (418 هجرية / 1028 ميلادية) .

فلم يكن الأوروبيون في القرون الوسطى يعرفون مكانة المرأة حين تكون معشوقاً كما هو لدى العرب، إذ هي الربة الأسرة ، القبلة التي يقصدها العاشق، والأسر في العشق - كما أرى - حرية لا حد لها، إذ يطمئن الطائر أنه بين يدين تحضنانه ولا تشويانه، فللطير منطقٌ (اقرأ " منطق الطير " لفريد الدين العطار، بترجمة بديع محمد جمعة)، ونظام مقدس لم يستطع الإنسان - بعد - الوصول إليه، ولذا أنصت إلى الطير ومنطقه، وتعلم لغاته، لعلك تعرف أبجدية العشق. قال جلال الدين الرومي:

امنح من تحبُّ أجنحةً ليطير

وجذوراً ليعود، وأسباباً ليبقى.

\* \* \*

## الرغبة ليست حبًا

الحب لدى العربي ابن الديانة التوحيدية ، من المفترض أن لا شراكة فيه ، حيث يكون العاشق موجدًا لا مشرکًا أو معددًا مكثرًا.

الرغبة ليست حبًا، وإنما احتياج مؤقت سرعان ما يتبخر بفعل شمس الوقت التي تُظهر الحقيقة من التوهم؛ فالحب أكبر وأعمق وأدوم منها بكثير، و"الحب ذوقٌ ولا تُدرى حقيقته" كما يقول محي الدين بن عربي شعرًا، وهو فعلٌ باطني لا شعوري قادم من منبع الروح وأصل أصلها، غير مُتكلف أو مُتعمد أو مُنقصد من طرف المُحب، لأن كل مصيبة بعد فقد الحب أمرٌ عظيمٌ جليل، إذ الحب آتٍ من قلب وروح وعقل المُحب، حيث يكون عظم الحب للمحبيب لا يُوصف أو يُحد، والحب لدى العربي ابن الديانة التوحيدية، من المفترض أن لا شراكة فيه ، حيث يكون العاشق موجدًا لا مشرکًا أو معددًا مكثرًا، وهو ما يؤكد ابن عربي في كتابه "الفتوحات المكية": "اعلم أن الحب لا يقبل الاشتراك، فلا يصح أن يحبّ المُحب اثنين أصلًا، لأن القلب لا يسعهما"، بينما الرغبة ميلٌ مؤقت أني زائلٌ، قادم من منبع الجسد، مرتبطٌ بزمانٍ ومكانٍ محددين، لن تكون لهما صفة الاستمرار أو الديمومة، ومتأرجحٌ لا ثبات فيه عند الراغب في كائنٍ من لحم ودم أو في شيء مادي جامد، فالرغبة تسعد، إذ هي حبٌ مؤقتٌ في الوجود وليس الغيبة، والحب يخلق ويصوغ وينشئ، وفيه إشراقٌ وتجلٍ، وديمومته في الوجود والغيبة معًا، إذ لا يتغير بتغير حضور المحب أو المحبوب أو في غياب أحدهما عن الآخر، وهو "واجب الوجود" كما يرى ابن سينا، والرسول يقول: "أنت مع من أحببت"، و"المرء مع من أحب". ونجمه دائمًا ساهر لا يعرف الكسل أو الدعة أو الغفو، لا نوم في عينيه، و"الحب أصله في لغة العرب الصفاء".

وإن كان سقراط (469 ق.م - 399 ق.م) يرى أن الحب "ضرب من الشوق أو الرغبة في شيء يعدمه المرء، ولما كانت الرغبة إنما تعني الحاجة أو الافتقار؛ فإن الإيروس يسعى نحو امتلاك الجميل، دون أن يكون هو نفسه جميلًا (...). الإنسان حين يشتهي شيئًا يملكه، إنما يشتهي في الحقيقة استمرار حالة الامتلاك، والحب بهذا المعنى إنما اشتهاه صادر عن الحرمان؛ لأن المحب يرغب في امتلاك موضوع بعيد أو غير حاصل له".

وليست هناك صعوبة في التفريق بين الحب والرغبة، وأرى أن أبرز عنصرين للوصول إلى الحقيقة هما البؤس، حيث الروح هي من تُقبل وتقبل، وليست الشفاء، ونظرة العين إلى المرأة أو الرجل، ففي اتجاه النظرة يتحدد كل شيء، سواء أكانت نظرة نيلٍ مجرد، أم نظرة عشق لا يُحد.

وأصاب الجاحظ (159 هجرية - 775 ميلادية / 255 هجرية - 868 ميلادية) حين قال إن "العشق هو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب، وليس كل حب يسمى عشقاً. وإنما العشق اسم للفاضل عن ذلك المقدار، كمثل السرف اسم لما زاد على المقدار الذي يسمى جوداً".

ويرى الطبيب والفيلسوف جالينوس (نحو 129 - 200 ميلادية): "أن العشق من فعل النفس، وهي كأمينة في الدماغ والقلب والكبد، وفي الدماغ ثلاثة مساكن: مسكن للتخيل وهو في مقدم الرأس، ومسكن للفكر وهو في وسطه، ومسكن للذكر وهو في مؤخره...".

أشفقَ دوماً على خالي القلب من العشق؛ لأنَّ حياته ناقصة، وطريقه مُقفلٌ، وسماؤه واطنَّة، ولعنته مُصابةٌ بوهنٍ، لأنَّ العشق يُخصب الخيال ويغذيه ويمنحه درجةً أعلى مما كان عليه قبل الحبِّ، ويمنح العاشقَ فرصةً لكشف طاقاته الباطنية والقدرات الخلاقة التي منحها خالقه إياها، وكشف جمال الذات والحياة معاً، تلك الحياة التي تستحق أن تُعاش كاملةً تامةً وغير منقوصة، حيث تفتح أمامه آفاق تُبرز إنسانيته، التي ربما كانت مجهولةً أمامه، فالعشق مُختبرٌ دافقٌ ودافئٌ لإدراك أعماقنا، والتعبير عنها لغة أو سلوكاً عندما نمارس العشق، وإذا كانت دماغ الإنسان تتغذى على عناصر كثيرة كالأوكسجين والغذاء المادي بأنواعه، والثقافة والتعليم والمعرفة، فكيف سيعيش وينضح ويفقه ويتغير دون عشق؟

فالعشق هو الذي يعلو بالدماغ ويسمو بها، كي تصير عقلا، وليس مُجرّد رأسٍ مصلوبةٍ أو مغروسةٍ فوق جسد الإنسان، حيث يخنفي القلق، ويزول التوتر، وتزداد الثقة في النفس، ويتعدّد الإبداع والابتكار والخلق، ويُقبل الإنسان على الحياة بعقلٍ واعٍ مُحبٍّ عارفٍ مُدركٍ للتطور الذي حدث له من جرّاء هذا الحب. ولا يوجد عالم مثاليّ ملآن بالجمال والخير والحق، دون وجود الحب عند من يحيون تحت سمائه، حيث لا قبح ولا شر أو بغضاء أو كراهية وحسد، إذ يجعل المحب في حال رضا وامتلاء وتحقق، كما يقول الشّاعر العربي:

فَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَيْبَةٍ

وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبَدِّي الْمَسَاوِيَا

والحب ليس ابن الربح والكسب والذات العابرة المؤقتة وشغل الوقت، بل وصلٌ نفسٍ واتصالٌ رُوحٍ، قبل أن يكون بهجة وتوقد رغبة تذهب نحو ما هو جسدي، لأن ما هو روعي يبقى أثره عميقاً يضرب العقل، على العكس تماماً من متعة الجسد التي تزول حتى ولو تمنى الراغب المعاودة لكنها لا تؤثر في نسيج روجه أو عقله، وهنا يمكن أن نذهب إلى باب الوصل من كتاب ابن حزم الأندلسي "طوق الحمامة في الألفة والألاف" رغم بُعد الزمن بيننا، لكنه ما زال معبراً عن جنة العشق التي قد تُعادل من وجهة نظره وهو الفقيه الظاهري جنة الله: "ولولا أنّ الدنيا دارٌ ممرٌ ومحنةٌ وكدرٌ، والجنة دارٌ جزاءٍ وأمانٍ من المكاره، لقلنا إنّ وصلَ المحبّوبِ هو الصفاء الذي لا كدرَ فيه، والفرح الذي لا شائبة فيه ولا حزن معه، وكمال الأمانى ومنتهى الأراجي، ولقد جربتُ اللذات على تصرّفها، وأدركتُ الحظوظ على اختلافها، فما للدنو من السلطان ولا المال المستفاد ولا الوجود بعد

العدم، ولا الأوبة بعد طول الغيبة، ولا الأمن بعد الخوف والنزوح عن الآل من الموقع في النفس ما للوصل، "... بأحسن من وصل حبيب قد رضيت أخلاقه، وحمدت غرائزه، وتقابلت في الحسن أوصافه  
وإنه لمُعجَز السنة البُلغاء ومقصر فيه بيان الفصحاء".

وعلىنا أن نتأمل نصوص الحُب التي أطلقها العشاق في الثقافات والحضارات المختلفة، والتي صارت من علامات الأدب الشعبي، ولنا في ما قالته نساء البشتون في أفغانستان مثالا لافتاً، في كوننا أمام نصوصٍ شفهيةٍ جُمعتْ لا يكتبها إلا كبارُ الشعراء في التاريخ، وهنا نسأل عن العشق الذي يجعل امرأةً متعلمةً أو غير متعلمةٍ " تقول "هذه النصوص الفريدة الكبرى، سوى أنه استطاع أن يمنحها طاقة تخييلٍ فذة، ولغة غير مسبوقَةٍ في التعبير عن أشواقها تجاه من تعشق.

فعشق كهذا «لا تدرك حقيقته إلا بالمعاناة»، ومعانيه «أدق من أن تُوصَف» كما قال ابن حزم في كتابه " طوق الحمامة في الألفة والألف"، وبشكل عام نحن أمام أقوامٍ إذا أحبُّوا ماتوا: قال سعيد ابن عقبة الهمداني الأعرابي: "ممن أنت؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا...".

ومن لم يتخيل في العشق فهو خارج زمرة العشاق، بل دخيل عليهم . ومن لا يعشق وقته مُهدَّر بلا طائل؛ لأنه مثلما قال ابن النفيس: "لا شيء كالوصال"، ذلك الذي يجمع بين العاشق والمعشوق، ولا شيء يمنع العشق حتى لو نظر من يعشق " إلى القمر عند امتلائه" كما يقول بعض الأقدمين الذين عدُّوا العشقَ مرضًا عضالاً ينبغي علاجه، وإن كان مرضًا فهو عندي أجملُ الأمراض، ولا أملكُ إلا الدعاء لمن في قلبه مرضُ اسمه العشق بالأل يشفى منه أبدًا.

\* \* \*

# لا مُصيبة أعظم من الجهل بالحُب

الغريبُ والفقيرُ بيننا من لا عشقَ لهما، فهو دليلُ الرُّوح والنفس والقلب معًا، وأرى أنَّ العشقَ هو ما يُزيِّن المرءَ بين أهله وناسه ومُجتمعِه، ويجعلُ منه صورةَ أخرى لم يكن هو نفسه يدركها عن ذاته، فالعشقُ دواءُ الدين ولم يكن يومًا داءً له.

رِبةُ العشقِ حُرِّيَّةٌ؛ لأنه فضيلةٌ، بل هو أساسُ الفضائل وأصلُّها، وكان في الزمن القديم إلهاً معبودًا له كماله المطلق، فالعشقُ يقودُ النفسَ إلى معرفة الحقائق الكبرى، ويحلُّ الرموز، ويكشفُ الكنوز، إذ له بهأوه ونوره وحكمته، فهو هيكلٌ من النور، وعمارَةُ الحدسِ والحلم، كما أنه يكشفُ الغطاءَ عمَّا كان مختفيًا مُتواريًا نائيًا في أقاصي النفس، التي بفضلِ العشقِ ستعملُ بحركيةٍ عاليةٍ ودؤوبٍ في استنكاه ذاتها، ورصد أحوالها، ومعرفة عوالمها.

ويجعلُ العشقُ الإنسانَ يبلغُ الحياةَ الأزليَّةَ من فرطِ سعادته به، إذ هو نورٌ يمشي من فرطِ امتلاء قلبه بمن يحب، ويؤدِّي إلى الحكمة التي تجمعُ وتختصرُ ما سبقها، كما أنه الوصولُ إلى الجوهر، حيث يُحرِّرُ الإنسانَ من أموره المادية، علاقته الدنيوية العادية العابرة، ويُطهرُ النفسَ ويصقِّبها، حيث لا وساطة في العشق، واعلم أن الوسيط هو "أنت" لا أحد سواك، حيث تكون وتسلك، ففي العشق لا غالب

ولا مغلوب، إذ كلُّ يؤثِّرُ في الآخر بالقدر نفسه، أو قد يكون هناك واحدٌ أكثر أو أقل من الآخر، والآخر هنا للذكر فقط وليس للفصل، فأنا في العشق - الذي هو سلطان القلوب وبُستانها - لا أفصلُ بين متصلين متداخلين متحدين حاليين في بعضهما البعض (العاشق والمعشوق)، إذ ما العشق إلا "سفرُ الأسرار" بين اثنين مُتمازجين في بدنٍ واحدٍ، وسفرُ العاشق في أقاليم المعشوق وكشف عوالم جغرافياته.

لا برزخ في العشق يفصلُ بين شيئين؛ لأنَّ البرزخَ ظلمةٌ محضٌ، حيث يتحوَّلُ العشقُ إلى نورٍ شفيف، وفي هذه الحال يصيح العشقُ هو الحال الجوهرية للذات، بحيث يصيرُ العاشقُ والمعشوق (أنا أنت، أو أنت أنا)، ومن ثمَّ تحدثُ اللذة القصوى، ويصلُ الإنسانُ الأسمى الكامل عبر جوهره إلى جوهر من يعشق؛ لأن أول الشُّروع في العشق هو الانسلاخ كليَّةً عن الحقد والحسد والانتقام والتسقي والبغضاء والكرهية والأنانية والبُخل، حيث تغادر النفس البدن مُتجرِّدةً من شواغل الدنيا.

وفي العشق تتعدَّدُ الكنوزُ والينابيعُ، وتصيرُ لا نهائيةً الوجود والتحقُّق، حيث المعشوق بالنسبة إلى العاشق ليس ضميرًا غائبًا حتى لو غاب عن العين، ولكونه موجودًا في رُوح العاشق فهو ضميرٌ منكلمٌ، وضميرٌ مخاطبٌ طوال الوقت، إذ هو "سيد الوقت"، وهو القلب الفعَّال عند الذين يحسبون الحُب عددًا أو رقمًا، أو يترجمونه إلى كسبٍ وحصاد تجرِبَةٍ، فالعشق يحدث بالذوق الباطني،

والعاشق مُجرّدٌ عظيمٌ، إذ يخلّص رُوحه مما علق بها من ماديّاتٍ وشوائبٍ، ولا ينتظم أمره "دُون سوانح نورية". إذ للعاشق "قوة حدس وعاطفة وخيال"، وهو عرفانيٌّ بالضرورة، حيث يتحد مع معشوقه عبر معرفته الحدسية به، وهو في حالٍ دائمةٍ لكشفِ الأسرار التي تتبدّى له في سموات عشقه.

وليست الربقة ضعفاً من العاشق أو المعشوق الذي يميل به الهوى، ولكنها حلّولٌ واتحادٌ فيمن يعشق (الأصلُ في المحبة أن تكون أنت عينٌ محبوبك – ابن عربي)، وتلك العبودية لا تعني نُقصاً بل هي الكمال بعينه، لمن يعرف أحوال العُشّاق، وصِفة العشق؛ لأن العشق ديانةٌ يؤمن بها من في جوفه قلبٌ ينطقُ.

والعشق سلطةٌ أعلى من أيّة سلطةٍ أخرى، واستحوادٌ كليٌّ دُون خنقٍ أو خرقٍ لناموس الحرية، وسطوته لها الحكم والنفاذ.

لكننا ما زلنا نرى العشقَ في مجتمعاتنا عيباً أو خُروجاً على الأعرافِ والتقاليدِ والقيم الدينية أو المجتمعية، ونحدّد للمُحب سناً معينة، ومن يتجاوزها نعتبره (ها) مجنوناً ذهب عقله، أو مُتصايماً قليل الحياء، عديم التربية، كأنّ من صار طاعناً في السن أو حتّى على شفا الموت لا قلب له ولا رُوح، أو كأنّ من يقول ذلك لا يدرك أنّ لذة الوصل في العشق لا تعدلها لذة ثانية، خصوصاً إذا ما علق بقلب المُحبِّ حُب المرأة التي يطلبها ويرجوها ويحلم بها، ويهب رُوحه لها هبةً لا تُستردُّ، بعدما ذاب قلبه بذكرها.

فالمرأة مكانٌ مقدّس، قبلةٌ لصلاةٍ أبديةٍ، هي الدنيا الواسعة بالنسبة للمُحبِّ، لا يرى مكاناً سواه، إذ هي الأرض رغم رحابتها، وتعدّد النساء عليها، حيث اختصرت جميع النساء: ﴿پ پ پ پ﴾ [سورة التوبة: آية 118]، والشاعر العربي يقول:

وَإِنِّي إِذَا صَلَّيْتُ وَجَّهْتُ نَحْوَهَا بِوَجْهِي وَإِنْ كَانَ الْمُصَلَّى وَرَائِيَا

قيس بن الملوّح " مجنون ليلي " (24 هجرية - 645 ميلادية / 68 هجرية - 688 ميلادية)، والمرأة طقسٌ حجّ، وليست رُكناً من أركانها بل هي الحجُّ بشعائره، هي الفرض الذي لا يصحُّ دينُ العاشق إلا به، حيث تُغسل الرُوح فيه، ويصفو القلب من أكداره، وتصيرُ النفس خاليةً من شوائبها وخطاياها المادية الدنيوية، فالحُب العالی حُبٌ مقدّس لا ياء في أبجديته.

وأنا لا أحاولُ البحث عن نظريةٍ عربيةٍ في العشق، أو أقدم فلسفةً للحبِّ، بقدر ما أسعى - كعادتي - إلى إرشاد رُوحِي ومعرفة نفسي أولاً حين تعشقُ، ومعرفة نفس المعشوق - المرأة، في أحوالها وتحولاتها وأشواقها وإقبالها وإدبارها وسعيها ورُجوعها وتوقُّدها وانطفائها... مُستنداً ومُعتمداً ومُسترشداً ولاجئاً ومُستجيراً من حينٍ إلى آخر بشيُوخي في العشق - خصوصاً الفقهاء والعلماء والأئمة منهم - ممن أسسوا علماً للعشق؛ استطاع أن يُغيّر فعلَ الحُبِّ لدى الآخر الذي أطلع على

مُنتجِه الكِتَابِي ، مُؤمَّنًا بَأَنَّ لَا أَحَدَ يَدْرِكُ العِشْقَ سِوَاءِ أَكْبَانَ أَفْلَاطُونِ أَمْ ابْنِ حَزْمِ القَرطَبِي الأَنْدلسِي  
أَمْ سِوَاهُمَا، يَقُولُ أَفْلَاطُونُ: "مَا أُدرِي مَا الهَوَى، غَيْرَ أَنَّنِي أَعْلَمُ أَنَّهُ جُنُونٌ إلهِي لَا مَحْمُودٌ وَلَا  
مَذْمُومٌ".

فالعِشْقُ حَيَاةُ القُلُوبِ، وَلَا مُصِيبَةُ أَعْظَمَ مِنَ الجَهْلِ بِهِ، لَا يَعْقِلُهُ إِلَّا العَالِمُونَ العَارِفُونَ بِعِلْمِ القُلُوبِ:

وَأُولَئِكَ مَا عَرَفْنَا الهَوَى..

وَأُولَئِكَ الهَوَى مَا عَرَفْنَاكُمْ - شَهَابُ الدِّينِ السُّهْرُورِدِي - قُتِلَ سَنَةَ 586 هِجْرِيَّةً فِي حَلَبِ، بِأَمْرِ مِنَ  
صَلَاحِ الدِّينِ الأَيُّوبِي، وَكَانَ عَمْرُهُ سَنَةً وَثَلَاثِينَ عَامًا.

وَلَا مُرُوءَةٌ لِمَنْ لَمْ يَدْخُلِ العِشْقَ قَلْبَهُ..

وَالغَرِيبُ وَالْفَقِيرُ بَيْنَنَا مِنَ لَا عِشْقَ لِهَمَّا، فَهُوَ دَلِيلُ الرُّوحِ وَالنَّفْسِ وَالقَلْبِ مَعًا، وَأَرَى أَنَّ العِشْقَ هُوَ  
مَا يُزَيِّنُ المَرءَ بَيْنَ أَهْلِهِ وَنَاسِهِ وَمُجْتَمَعِهِ، وَيَجْعَلُ مِنْهُ صُورَةَ أُخْرَى لَمْ يَكُنْ هُوَ نَفْسَهُ يَدْرِكُهَا عَنِ  
ذَاتِهِ، فَالعِشْقُ دَوَاءُ الدِّينِ وَلَمْ يَكُنْ يَوْمًا دَاءً لَهُ :

هَلْ لِدَاءِ الهَوَى سَمِعَتْ دَوَاءٌ؟

هَلْ لِمَيْتِ العَرَامِ فِي الحُبِّ طَبٌّ؟ - السُّهْرُورِدِي .

هُوَ "العِشْقُ" بَيْنَ نَفْسَيْنِ تَاقَتَا إِلَى عِوْدَةِ التَّكْوِينِ الأَوَّلِ لِهَمَّا، إِذْ كَلَّ نَفْسٍ تَطْلُبُ جُزءَهَا المَقْسُومَ، لِأَنَّ  
نَفْسًا وَاحِدَةً يَتِيمَةً لَنْ تَصْفَقَ، وَقَدِيمًا قَالِ أَبِقْرَاطُ (460-370 قَبْلَ المِيلَادِ) : إِنَّ النَفْسَ المَنْفُودَةَ بِطَلْبِ  
الرَّغَائِبِ وَحَدَهَا تَهْلِكُ.

\* \* \*

## كانت في الأصل إلهة تُعبدُ

صار الخوف من النساء، وكراهيتهن وازدراؤهن واحتقارهن والخط منهن، والعنف ضدهن، و اعتبارهن أوعية جنسية لا أكثر منهاجًا وثقافة شعبية عامة؛ من فرط ما يُقال ويُذاع ويُكتب، في المساجد والمناهج والكتب، كأنهن لسن " شقائق الرجال "، ولا نستوصي بهن خيرًا؛ حتى صار الإسلام دين العرب يُعرف بأنه مُرادفٌ لكره النساء، بعد أن كان العرب - وخصوصًا الغُذريين والصوفيّين - يرون الحبَّ دينًا ومذهبًا.

غاب خطابُ الحب في الثقافة العربية، وصار الخناق ضيقًا على الناس، وحلَّ خطاب الكراهية بديلاً مكانه، ولم يعد العرب يقدّمون خطاب العشق المعروف والمشهود لهم به في تراثهم وتراث الإنسانية (أو أي خطابٍ آخر)، إذ انغلق الفقهاء، وتشدّد العلماء، وتعمّقت الشيوخ، وجُمِدت عقول ونفوس الأئمة (هذا إذا كان هناك أئمة من الأساس في زماننا)، وصار الخوف من النساء، وكراهيتهن وازدراؤهن واحتقارهن والخط منهن، والعنف ضدهن، و اعتبارهن أوعية جنسية لا أكثر منهاجًا وثقافة شعبية عامة؛ من فرط ما يُقال ويُذاع ويُكتب، في المساجد والمناهج والكتب، كأنهن لسن " شقائق الرجال "،

ولا نستوصي بهن خيرًا؛ حتى صار الإسلام دين العرب يُعرف بأنه مُرادفٌ لكره النساء، بعد أن كان العرب - وخصوصًا الغُذريين والصوفيّين - يرون الحبَّ دينًا ومذهبًا، وكأنَّ المشتغلين بالدين ينقلون عن أرسطو الذي رأى أنّ "النساء عبارة عن تشوهات طبيعية أو رجال ناقصين"، مع أن الحياة ما هي إلا رواية عشقٍ فصولها غنيّة ومتعدّدة.

وصار نتاج فقهاء العرب والمسلمين من كتب العشق كُفرًا وزندقًا ومرؤفًا، إذا جاء على لسان قلمٍ عربيٍّ مُعاصرٍ أو حديثٍ، ولذا أخذت الكراهية مكان العشق، والحقد مكان الحب (الذي هو سقرٌ في أرض الرُوح)، فبدلاً من أن كان لويس أراجون يقدّم مجنون ليلي (ويكتب ديوانه مجنون إلسا)، والعشرات من الكُتّاب والمفكرين الأوروبيين يُقدِّدون ابن حزم الأندلسي، حتّى تغيّر شكلُ الحب وممارسته بين ناس أوروبا، صار العرب هم الناقلون عن غيرهم، ولم نعد نرى العشق (الذي هو الوصول إلى المعرفة الكبرى) إلا فيما ندر بين العرب، وسادت "علاقاتٌ وتجاربٌ" عابرة، لا رائحة لها أو أثر،

لا تترك علاماتٍ في نفوس وأرواح المُحبين؛ لأنها مسّت الجلد فقط، ولم تمسّ أو تسكّن الشغاف (غلاف القلب: ﴿□ □ □﴾ [سورة يوسف: آية 30]، أي إنّها علاقاتٌ حبّ تمسّ الجلد، ولا تمتع القلب، أو لا تشرح الرُوح، وتلك لها تسمياتٌ أخرى، ليس من بينها الحبُّ مُطلقًا.

ولا يكون هناك عشقٌ إلا إذا كان هناك تقاربٌ وتجاذبٌ وتوافقٌ ثم تآلف، واتحادٌ وامتزاجٌ وتداخلٌ وتشاكلٌ وحلولٌ وانصهارٌ وأنسٌ ووجدٌ والتصاقٌ وتزاوجٌ بين رُوحين، بحيث يصلان إلى درجة من

التوحد لا تقبل المشاركة، كل منقطع إلى خيله " الأرواح جُودٌ مُجَنَّدَةٌ، مَا تَعَارَفَ مِنْهَا انْتَلَفَ، وَمَا تَنَّاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ " - الحديث النبوي:

وَاللَّهِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ

إِلَّا وَحُبُّكَ مَفْرُوعٌ بِأَنْفَاسِي

وَلَا جَلَسْتُ إِلَى قَوْمٍ أَحَدْتُهُمْ

إِلَّا وَأَنْتَ حَدِيثِي بَيْنَ جُلَاسِي

وَلَا ذَكَرْتُكَ مَحْزُونًا وَلَا فَرِحًا

إِلَّا وَأَنْتَ بِقَلْبِي بَيْنَ وَسْوَاسِي

وَلَا هَمَمْتُ بِشُرْبِ الْمَاءِ مِنْ عَطَشٍ

إِلَّا رَأَيْتُ حَيَالًا مِنْكَ فِي الْكَاسِ

الْحَلَّاجُ ( 244 - 309 هجرية / 858 - 922 ميلادية).

وما عدا تلك الحال التي يكون عليها العاشق والمعشوق، لا يمكن تسمية ما هما عليه من مظاهر أخرى عشقًا؛ لأن العاشق الحق لا يرى أمامه في هذا العالم سوى معشوقه؛ ويؤثره على ما سواه ممن حوله؛ و لأنَّ العشق " له نفوذ في القلب "، باعتبار القلب لبُّ المعشوق أو الإنسان بشكل عام، حيث يلزم المحبوب قلب المُحب، "حُبُّكَ الشَّيْءُ يُعْمِي وَيُصِمُّ" الحديث النبوي، وبالعشق ننتصر على السلطة والثروة والأعراف والعادات والتقاليد والنظم التي يتبعها البشر، فهو الاستثناء الذي يحذف أية قاعدة، لأنَّ به ينتظم الوجود بين الرُّوحين في جسدٍ واحدٍ صُغُودًا، ويسلي عن المصائب، ويلغي العزلة، ويبعد الوحدة بوجوده، ويمنع الشكَاية، ويملاً الوقت، في مجتمعٍ عربيٍّ يمارس الازدواجية والسرية والتقية في العشق، وقديماً قال عليُّ بن الهيثم: إنَّ "العشق ثمرة المُشاكلة، وهو دليلُ تمازج الرُّوحين، وهو من يجزُّ اللطافة، ورقة الصنعة، وصفاء الجوهر وليس يحد لسبعته، والزيادة فيه نقصانٌ من الجسد".

والعشق كما يراه محمد بن الهذيل العلاف (135 - 235 هجرية) "هو جرعة من نقيع الموت"، وعند هشام بن الحكم (354 هجرية-965 ميلادية / 403 هجرية - 1013 ميلادية) عاشر الحكام الأمويين للأندلس، وثالث خلفائهم في قرطبة: "مقتل في صميم الكبد ومُهجة القلب"، وراه أبو العباس أحمد بن يحيى: "... العشق فيه إفراط، وسُمِّي العاشقُ عاشقًا؛ لأنه يذُبُّ من شِدَّة الهوى كما تَذُبُّ العسقةُ إذا قُطِعَتْ، والعسقةُ: شجرةٌ تَحْضُرُ ثم تَذِقُّ وتَصْفَرُّ،...".

والمرأة – التي تَعْشَقُ وتُعشَقُ، هي عندي ( أحسنُ خَلَقَ اللهُ ) - ليست أم الشرور، ولا هي حبل من حبال الشيطان، كما يرد ذلك في كُتُبِ كَثِيرَةٍ لفقهاء، ولا هي خُلِقَتْ - فقط - للغواية والإغراء، ومن يعشقها بحق يمنحها المكان المخصَّص للخالق، لأنها كانت في الأصل إلهة تُعبد حتى في وجود الديانتين اليهودية والمسيحية، وظلت تُؤلَّه فيما قبل الإسلام، ولما دخلت دائرة العشق عُبِدَتْ حتى في وجود الإسلام، إذ تعامل معها العاشق - وخصوصًا الشاعر - على أنها معادلٌ موضوعيٌّ حقيقيٌّ ومجسَّدٌ للإله، وحتى في أيامنا هذه يستخدم المحبُّون تعبيراتٍ من نوع : أعبدك، نبيَّتي، رسولتي، صاحبة العصمة، إلهتي، ربَّتي ، دنياي، أيتها المقدَّسة، أنتِ الكتاب.

وَإِنِّي إِذَا صَلَّيْتُ وَجَّهْتُ نَحْوَهَا

بِوَجْهِهِ وَإِنْ كَانَ الْمُصَلِّي وَرَائِيَا

وَمَا بِي إِشْرَاكَ وَلَكِنَّ حُبَّهَا

كَعُودِ الشَّجَى أَعْيَا الطَّبِيبِ الْمُدَاوِيَا

مجنون ليلي قيس بن الملوح بن مزاحم العامري (68 هجرية/687 ميلادية).

ويقول جميل بُنَيَّة - جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي، أبو عمرو (82 هـ / 701 ميلادية، دفن بمصر ) ، وهو ما يمكنُ تسميته بـ " دُعاء العشق " وهو أمام الكعبة يؤدِّي مناسك الحجِّ، والتي اعتبرها مناسك للوصول إلى المعشوق، حيث تصير هي الكعبة التي يطوف حولها، ويدخلها بكُلِّه:

وبين الصِّفا والمَرَوَتَيْنِ ذكركم

بمختلفِ والناسِ سَاعٍ ومُوجِفِ

وعند طوافي قد ذكركِ مرَّةً

هي الموتُ بل كادت على الموتِ تضعفُ.

\* \* \*

اللّٰهُ يَعْلَمُ لَوْ أَرَدْتُ زِيَادَةً

فِي حُبِّ عَزَّةَ مَا وَجَدْتُ مَزِيدًا

رُهْبَانُ مَدِينِ وَالَّذِينَ عَهَدْتُهُمْ

بِيَكُونَ مِنْ حَذْرِ الْعَذَابِ فُجُودًا

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتَ كَلَامَهَا

خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعًا وَسُجُودًا –

كُنْثِيرُ عَزَّةَ (كُنْثِيرُ بن عبد الرحمن بن الأسود بن مَلِيح 40 - 105 هجرية / 660 - 723 ميلادية)،  
سافر إلى مصر، وكانت أكثر إقامته فيها، حيث دارُ عَزَّةَ (عزة بنت حُميل بن حفص من بني حاجب  
بن غفار) بعد زواجها، وفيها صديقه عبد العزيز بن مروان الذي وجد عنده المكانة ويُسر العيش.

ويقول يحيى بن معاذ الرازي ( تُوفي سنة 258 هجرية الموافق لسنة 872 ميلادية) : "لو أمرني  
الله أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمتُ للعاشقين عذابًا".

وأبو حامد الغزالي (450 - 505 هجرية / 1058 - 1111 ميلادية). يقول في كتابه " إحياء علوم  
الدين":

"فلا معنى للعشق إلا محبة مُؤكَّدة مفرطة، ولذلك قالت العرب: إن محمَّدًا قد عشق ربه لمَّا رآوه  
يتخلَّى للعبادة في جبلِ جِراء".

فالعشق هو سيرة النفس التي تبدأ في التكتُّف والإلهام والتجرُّد والحدس عندما تعرفُ العشق،  
وتسكُرُ وجَدًا، وتطمئنُّ أن سكتًا صار لها، ومغناطيسًا صار يجذبها، وتزهده في أيِّ شيء ما خلا  
الحُب، وتصل إلى الحقيقة – المُراد (المعشوق) التي تنشدها وتطلبها، بحيث يرى العاشق معشوقه  
الأنثى كأنَّها:

صَفَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَأُطْفٌ وَلَا هَوَا

وَنُورٌ وَلَا نَارٌ وَرُوحٌ وَلَا جِسْمٌ.

عمر بن الفارض ( 576 هجرية - 1181 ميلادية / 632 هجرية - 1235 ميلادية).

\* \* \*

## العاشقُ كائنٌ طِينتهُ الحُبُّ

الحُبُّ هو أقصى تجليات الرُّوح، ليس له سواحل، يمتدُّ بطول مساحات القلب، يرسم له جغرافيته، ويُحدِّد لصاحبه مجاله المغناطيسي الذي يتحرَّك فيه، وهو غالبًا مجال لا شاطئ له ولا تخوم، لأن الحُبَّ فوق العقل الواعي، بما يحمل من سُموقٍ وسُمو في الجنون، حيث تكون نفس المُحب في أعلى درجات الإشراق، وتكون في حالٍ حميمةٍ لا معتادة ولا مألوفة، لا تعرف إلا المرتبة العليا من الشعور، حيث يتجرَّدُ العاشق ويتخلَّص من شوائب النفس، ويشفَّ، ومن ثمَّ يدخله الحُبُّ في ميلادٍ رُوحِيٍّ جديدٍ له، ويصير في شوقٍ دائمٍ لمحبوبه.

هناك نوع من البشر لا يستحق أن يعيش، أو يُعاتب أو يُناقش في سلوكه الشاذ والغريب، حيث يحيا على الهزل، والفراغ، وهذر الوقت، وتجفيف الحواس، وضرب أعناقها بيندقية إهمال حاجات القلب وطلب الروح، ومن المؤكَّد أنه يعاني مشكلاتٍ وأزماتٍ رُوحيةً ونفسيةً واجتماعيةً؛ لأنه "يؤمن" بالترفع عن حُيِّهِ للمرأة؛ إذ يعتبرها كائنًا لا يستأهل إسالة دم الوقت على عتباته، ولا يستحق منحه الرعاية والعناية والاهتمام والحُب، والانشغال به، مع أنه "في المرأة يكتمل ظهور الحقيقة" كما يذكر محي الدين بن عربي، ومع أن الحُب عند البعض الآخر دين ومِلَّة وعقيدة، ووصول إلى المعرفة الكبرى، "إنَّ الغرامَ هو الحياة فمُتَّ به حُبًّا فحُكَّ أن تموتَ وتعدُّرا" - عمر بن الفارض - حيث الحُب يصوغ رُوح المُحب، ويجلو قلبه وبصيرته، ويشف الحواس، ويوقظ النفس من سباتها، ويُفِّقه فيما لا يعلم "ومن لم يفقههُ الهوى فهو في جهلٍ عمر بن الفارض، ويُلهمه الواردات والأحوال، ويجعله في مقامٍ خاص، لا ينافسه آخر في مرتبته. والحُب - الذي أعرف وأمارس - لا غرض منه ولا غاية، "وبي يفتدي في الحُب كلَّ إمام" - عمر بن الفارض.. إذ عند أصحاب النفوس الكبيرة والقلوب الراقية ليس وراء الحُب مرمى فـ:

كل حُبِّ يكونُ معه طلبٌ لا يُعوَّلُ عليه. "و" كل محبَّة لا يؤثُر صاحبها إرادة محبُوهِ على إرادته فلا يُعوَّلُ عليها.

"و" كل محبَّة لا يلتدُّ صاحبها بموافقة محبُوهِ فيما تكرهه نفسه طبعًا لا يُعوَّلُ عليه ابن عربي.

فالحُبُّ منحةٌ وليس منحةً، إذ هو منَّة إلهية يرسلها الله إلى عباده المُصطفين، الذين ليس في قلوبهم مرض أو هوى أو غرض، حيث يفنى العاشق في محبُوهِ، إذ "كل حُبِّ لا يفنيك عنك ولا يتغيَّر بتغيُّر التجلِّي لا يُعوَّلُ عليه" - ابن عربي، و يرتفع المحبوب - المرأة إلى رتبة الألوهة، التي هي أصل الوجود و عمادُه، إذ يتم التعامل والتخاطب والتفاعل والتواصل معها بقداسة:

شَرِبْتُ الحُبَّ كَأَسَا بَعْدَ كَأَسٍ

فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَمَا رَوَيْتُ

فالعشقُ بحرٌ سُكَّرَ لا ينفدُ، كأنه بحرٌ من الكلمات، إذ العاشقُ كلما ارتوى عطش، وكلما أكل جاع، (وَهَلْ رَأَيْتَ مُحِبًّا غَيْرَ سَكْرَانَ)، والعاشقُ رغم الطمأنينة والأمان اللذين يعيشهما؛ فإنه غيرُ مطمئنٍ أو مستسلمٍ بأنه احتوى من يحب، وهذا هو الخطأ الذي يقع فيه أغلب البشر إذ يستنيمون للوضع الذي هُم فيه أو عليه، غير مُدركين أن الحُبَّ يحتاج إلى إدارةٍ ترعاه وتعمِّقه وتُجَلِّيه وتزيده وتوفِّف شجرَ حواسه..

ولذلك نرى حولنا تجارب عشقٍ غير مكتملة، أُجْهضتْ بضربات الإهمال واللامبالاة والجهل والتجاهل. والحُبُّ هو أقصى تجليات الرُّوح، ليس له سواحل، يمتدُّ بطول مساحات القلب، يرسم له جغرافيته، ويحدِّد لصاحبه مجاله المغناطيسي الذي يتحرَّك فيه، وهو غالبًا مجال لا شاطئ له ولا تخوم، لأن الحُبَّ فوق العقل الواعي، بما يحمل من سُمُوقٍ وسُموٍ في الجنون، حيث تكون نفس المُحب في أعلى درجات الإشراق، وتكون في حالٍ حميميةٍ لا معتادة ولا مألوفة، لا تعرف إلا المرتبة العليا من الشعور، حيث يتجرَّدُ العاشقُ ويتخلَّصُ من شوائب النفس، ويشفَّ، ومن ثم يدخله الحُبُّ في ميلادٍ رُوحِيٍّ جديدٍ له، ويصير في شوقٍ دائمٍ لمحبوبه:

"وَمَا زِلْتُ إياها وَإيايَ لَمْ تَزَلْ" - عمر بن الفارض، حيث ينقل المُحب من حالٍ إلى حالٍ أخرى قد تكون هي النقيض تمامًا لما هو عليه، حيث يعيش في مقامات البسط والفرح والرجاء، وتتكشَّف له أحوال كانت غائبةً عنه، تُخصُّ فقط المحبين، ويطمئن بعد حيرةٍ، ويأنس بعد أرقٍ وقلقٍ، إذ قلب المُحب مغمورٌ في ماء الوصل، يعرُجُ برُوحه كل ليلة، يفيض بالاسم الأعظم للمحبيب، ويترقَّى من حالٍ إلى أخرى، هي عندنا الحياة الأخرى للمُحب؛ لأنه يخرج من حجاب النفس "الأنا"، ممزقًا الأستار والحُجب، ليصير معدن المعادن النفيسة، ومحل جميع الأحوال، وفي ترقٍّ مُستمرٍ، سره صافٍ، سائح في المكان، نفسه مصفاةً .

والحُبُّ كائنٌ مقدَّسٌ، وله من صفات الإله الكثير، وفي كلِّ الكُتب المقدَّسة سنجد أن كلمة الحُبِّ وحقول دلالاتها تتكرَّر بشكلٍ لافتٍ مما يشير إلى قداسته، ولذا لا أومن أبدًا بموتِ الحب، فمن ينفي الحُبَّ ويُفصِّيه ويكفِّر بوجوده ويراه هو والعدم سواء، هو عندي لا يُحبُّ نفسه، وتنتفي عنه سمات وصفات إنسانية كثيرة، فالعاشق كائن طينته الحُبِّ، وماؤه الهوى، وهواؤه العشق، وترابه الغرام.

والحُبُّ لا يحتاج معلمًا ولا مُوصيًا ولا ناصحًا؛ لأن قلب المحب هو وحده القِبلة والمقصد والمدرسة، وما على المُحب إلا أن يدع قلبه يفتح بابه؛ كي تشرق شمسُه، ويخفق جناحًا طائرُه، وينزل مطرٌ جسده بردًا ساخنًا وسلامًا جامحًا، غير خجلان مع أن في الخجل حُبًّا لا نهائيًا، وأرى أن عقل المُحب في قلبه؛ لأنَّ "الحُبُّ أَمَلُكَ للنفس من العقول"، وقيل: "لا خير في حب يُدبَّر بالعقل"، والحب - كما يذكر ابن عربي في الجزء الثاني من كتابه "الفتوحات المكية" - لا يجتمع مع العقل

في محلٍّ واحدٍ فلا بد أن يكون حُكم الحُب يناقض حُكم العقل فالعقل للنطق و التهيام للخرس"،  
والرُوح هي من ترشد الجسد الباذخ حامل الكُنوز إلى فعل العشق الذي لا يساويه فعلٌ إنسانيٌّ آخر.

والمُحب دومًا غيرٌ بعيدٍ؛ لأنه ربما يكون أمامك أو جِوَّاك أو جوارك أو حولك أو على بعد خطوةٍ أو خطواتٍ منك أو تحت سماء واحدة معك، وأنت غافلٌ أو ناسٍ أو منشغلٌ أو غير مكترثٍ أو ذو قلبٍ لا يُبصر.

فيمكن للمُحب أن يبیت ليلةً واحدةً مع من يحب، تُعادل أو قد تزيد على حياةٍ بأكملها، قد عاشها دونما معرفةٍ جوهر الحُب وجواهره التي تزيّن رُوحه وجسده معا .

والحُب كما يقول أجاثون Agathon: "لا يأوي إلى كل النفوس لأنه إذا رأى طبيعة جافة أو نفسا خشنة فإنه ينفر منها ويبتعد عنها ولا يَألف إلا النفوس اللينة الرقيقة، فلهذا كان أرق الأشياء لأنه يلمس بخفة (... ) أطف جزء من أرق الأشياء وأطفها" .

وعلى المُحب أن يرى النور الجِواني الذي يملأ باطنه، ويترك طائرَ رُوحه؛ ليطير بعيدًا في سموات العشق التي لا حدَّ لعددتها، لأنه بالحب نرى أشياء لم نكن نبصرها من قبل، فالرُوح هي التي تجذبنا وتجعلنا ندور في فلك صاحبها – صاحبته، لأنها الأعمق والأبقى والأهم، وهي التي تمنحنا الطمأنينة والصدق والحلم والحُب والأمان ، وعمومًا المرأة تتوقُّ إلى العشق وتتمناه وتطلبه، والمهم أن يكون هناك من يستأهلها، فالمرأة بطبيعتها مهيأةٌ للعشق، ومستقبلة له، ومناحة إياه لمن تريد هي، وإن بدت في خفرٍ وحياءٍ وخجلٍ، على الرغم من أنها تدرك أن في الخجل خسارات، لكن تلك طبيعتها في كلِّ الثقافات والحضارات، مع اختلافاتٍ طفيفيةٍ، ففي الثقافة الفرنسية – رغم الرُقي والنقْد والتحضُّر والترف المادي، ما تزال المرأة الفرنسية تطلق المثل السائر- الذي ترسخ في لا وعي الفرنسيين وأمم أخرى بالطبع - (الرجل هو الصيِّاد)، وأنها هي الفريسة المُشتهاة أو المُغوية، وإن كنتُ أرى أن المرأة أكبر وأجلُّ وأسمى من أن تكون فريسةً يُطاردها الرجل؛ لأجل الفوز بها؛ والاستمتاع بجسدها ، وهو أمرٌ بعيد – تمامًا – عن مقصدي في العشق، وكذا تربيته الروحية والثقافية.

فالحُب – الذي أعرفُ - ثنائي القطب، وليس وقفًا على الصيِّاد، ولا على الفريسة، فمن غير الحُب يصبح الأمرُ "تجربة صيد – علنًا من هاوٍ" أو "نزهة قنص – خفاءً من مُحترفٍ"، ولا حُب يحيا تحت مظلة شرطٍ أو طلبٍ أو غرضٍ؛ لأننا عندما نعشقُ، يكون اليوم الذي نحياه بألف يومٍ مما كُنَّا عليه قبل العشق.



## اللهم امنع عنا خسوف المرأة – القمر

الليل سَكُنْ، وزمَنْ لعتاب المرأة من تهوى، إذ هو الآية التي ترشد إلى السرّ الذي لم يكشف أو في سبيله إلى الكشف والإشراق، ففيه نختبرُ الحواس، وندركُ حركة نجوم المشاعر في سموات من نُحب، وفيه نتبيّن الخيطَ الأبيض من الخيط الأسود في النسيج الحريريّ للعشق.

يرغب المُحب أن يكون وحده في سيارته أو منزله، أو حتى غرفته أو أي مكانٍ آخر يخلو فيه ، دون مُشاركةٍ من أحدٍ إلا إذا كان المحبُوب معه، فهو يعتزل ويختلي ليذكر الوصل، ويفقهه ويفسّر مظاهره، ويرى أن أفضل الأوقات للُعزلة والخلوة هو الليل، ولذا نراه ينتظر الليل بفروغ صبرٍ لا يحتمله؛ كي يناجي ويسترجع ويُهاثف ويصل، ومنذ عبادة الإنسان للقمر (كان القمرُ إلهاً مُذكَراً في بعض الحضارات، وإلهةً أنثى في حضاراتٍ أخرى) والنجمة والهِلال لهما مكانةٌ خاصةٌ في نفوس البشر، حتى أن المسلمين يتعاملون بقداسةٍ معهُما، ونلاحظ ذلك في الأعلام العربية والإسلامية والشعارات المُتداولة، وكذا وجود الأهلّة وارتفاعها أعلى المآذن، وفوق أبواب ونوافذ المساجد، وارتباط التقويم الهجري بظهور القمر، ثم نومه في سرير الانتظار؛ حتى يظهر من جديدٍ محاقاً فهلالاً ثم بدرًا مُستويًا تامًا، بعد أن يدورُ القمر حول الأرض دورةً كاملةً، كأنها من صلُب العقيدة وصميم منّيها المُقدّس، وما تلك الطقوس التي تُمارَس إلا جزء مما ورثته الشُعب عن أسلافهم القدماء الذين قدّسوا الليل، وعبدوا القمر الذي يرؤنه مُرتبطاً بالخُصوبة، وبدورة الولادة والحياة والموت بشكلٍ عام،

وكان يُرمزُ له بالهِلال، وتلك العبادة كانت من أكثر العبادات انتشارًا لدى الحضارات الموجودة في بلدان الشّرق الأوسط، ومنها بالطبع الحضارة المصرية، والجزيرة العربية التي كانت هي الديانة الرئيسية فيها، وقد عبَدَ العرب إله القمر واعتبروه "رب الأرباب"، حيث سُمّي الإله القمر "سين"، إذ له ثمانية وعشرون منزلًا، وفي كل يوم يمرُّ ينزل في واحدٍ منها ، ثم يعيد دورته الشهرية من جديد، كأن المنازل مُرتّبة على عدد حُرُوف اللغة العربية (ثمانية وعشرون حرفًا)، حيث يبيت كُلّ ليلة في حرفٍ بدءًا من الألف وانتهاءً بالياء، كأنّ "المكان إذا لم يُؤنث لا يُعوّل عليه" – كما يقول ابن عربي .

وتشير دراساتٌ إلى أنّ "رمز الهلال كان سائدًا في العُصور القديمة على الأختام، والأعمدة، والأواني الفخارية، والأحجبة، وألواح الصلصال، والأقراط، والقلادات، ورسوم الحوائط، وقد برهنت هذه الكشوف أن إله القمر كان رأس كُلّ الآلهة، حتى أن الخبز كان مصنوعًا في شكل هلالٍ كعملٍ مُسخّرٍ لإله القمر".

وهناك من يقول إن سيناء جاءت من اسمه، وكذا يس في القرآن:  
{قَدْ قَفَّ قَفَّ جَج} [سورة يس: آيات 1-3]. ومن هنا تم التعامل مع الليل بسحريةٍ وقداسةٍ وخشوعٍ



وَأَزْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكَكَلٍ  
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي  
بِصُبْحٍ، وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلٍ ..

لأنَّ ليلَ العاشقِ ملآنَ بالشرابِ والغرامِ والبُوحِ والوصلِ والفتنةِ والسِّحرِ وترتيلِ الجسدِ لآياته، حيثُ يصيرُ الهُمُّ هَوًى وهِمَّةً، والسُّهدُ سِحْرًا وسَفَرًا في جسدِ الرُّوحِ ورُوحِ الجسدِ، والسَّأمُ سلامًا للنفسِ، والوحشةُ وصلا، والرَّهبةُ رغبةً ورهافةً، ويصبحُ الليلُ الطويلُ قصيرًا ولا يتمنَّاهُ العاشقُ أن ينجلي؛ لأنَّهُ يتجلَّى فيه ويعشَقُ، كما أنَّه ينتظرُ بشغفٍ أن يدركه الليلُ؛ كي يكونَ على انفرادٍ مع من يُحبُّ، لأنَّ الظلامَ السَّادرَ في سواده عندَ العاشقِ محضُ نُورٍ، وليسَ ليلُ النابغةِ الذبياني الذي "تضاعفَ فيه الحُزنُ من كُلِّ جانبٍ".

فالليلُ مُؤنِسٌ وأليفٌ حميمٌ لمن في قلبه عِشْقٌ، بل هو ينتظره، ويتعجَّلُ حلوله؛ لأنَّه زمنُ عشقه، ووقتُ تجلِّيه، حيثُ لا خوفٌ ولا رهبةٌ بل هناك شغفٌ ورغبةٌ، فالليلُ دومًا لديه مُضَاءٌ بقمرِ امرأةٍ أدركها الحُبُّ وغشيها، فسُورُ الليلِ تنحلُّ مع سُورِ المعشوقِ - المرأةِ التي تضيءُ حلقةَ الظلامِ بنورِ جسدها وبهائه المشرقِ :

لِيَالِي يَدْعُونِي الْهَوَى فَأَجِيبُهُ

وَأَعِينُ مَنْ أَهْوَى إِلَيَّ رَوَانَ .

امرؤ القيس .

ولمَّا يكتملُ القمرُ بدرًا تامًّا يرقصُ العُشَّاقُ رقصَةً أبديةً، ما تزالُ تُمارسُ لدى عددٍ من الشعوبِ، حيثُ يرونَ أبديةَ المرأةِ - التي هي عندي إنسانٌ قمرِيٌّ -، وعلوَ جسدها، وبلوغَ رُوحها الشجرةَ الأولى، الذُّرَّةَ.

فاللهم امنع عَنَّا حُسُوفَ المرأةِ - القمرِ:

"إذا الليلُ أضواني بسطتُ يدَ الهوى

وأذلتُ دمعًا منْ خلائقه الكبرُ".

أبو فراس الحمداني (320 - 357 هـ / 932 - 968 م) .

"في حَضْرَتِكَ يَنْحَنِي الألهة الكِبَارُ، وأمامَكَ تُبْسَطُ قِراءاتُ كلِّ البلادِ، إنَّني أركعُ أمامَكَ، وأُبقي هذه الحالُ أَطْلُبُ وَجْهَكَ، عساكَ تَسْتَجِيبُ لِرَغباتي في العَدْلِ وهِناةِ العَيْشِ، عسايَ في اللَّيلِ أَسْمَعُ غُفرانَ دُنوبي".

يقول أبو منصور الحلاج المقتول (244 - 309 هجرية/ 858 - 922 ميلادية)

طلعت شمسٌ من أحبُّ بليلٍ

فاستنارت فما لها من غروب

إن شمسَ النهارِ تغربُ بالليلِ

وشمسِ القلوبِ ليس تغيب.

\* \* \*

# أحمد الشهاوي

## (سيرة ذاتية)

وُلد بمدينة دمياط في 12 من نوفمبر عام 1960م، وعاش فيها خمس سنوات، ثم انتقل مع أسرته للعيش في قريته «كفر المياسرة» التي تبعد عن المدينة 40 كيلومترا، حيث درس المرحلة الابتدائية بها، ثم المرحلة الإعدادية والثانوية بـ «الزرقا»، والتحق بعد ذلك بكلية التربية في دمياط جامعة المنصورة «قسم الرياضيات»، وظل عامًا واحدًا بها، بعدها التحق بقسم الصحافة في كلية الآداب بسوهاج – جامعة أسيوط، وتخرج في مايو 1983م.

شارك – أيام دراسته للصحافة – في تأسيس جريدة «صوت سوهاج»، وهي جريدة شهرية يحررها طلاب قسم الصحافة، وكان يرأس القسم الثقافي بها، والتحق بالجيش المصري لأداء الخدمة العسكرية في أبريل 1984م، وأثناء أداء الواجب الوطني كان قد دخل جريدة الأهرام في 1 من يناير 1985م؛ ليعمل في قسم الأخبار، وفي 18 من فبراير 1990م صدرت مجلة «نصف الدنيا» الأسبوعية عن مؤسسة الأهرام، ليتولى مهام سكرتير تحرير المجلة، ثم نائبًا لرئيس التحرير في مايو 2000م، ثم مديرًا للتحرير، وهو من المؤسسين لها، ثم صار بعد ذلك كاتبًا متفرغًا بالأهرام.

وفي سبتمبر 1991م، شارك في برنامج الكُتَّاب الدوليين International Writing Program بالولايات المتحدة الأمريكية لمدة ثلاثة أشهر، وتم منحه شهادة الزمالة في الأدب من جامعة أيوا الأمريكية في 12 من ديسمبر 1991م. وفي سبتمبر 1994م حاز على دبلوم خاص في الثقافة والعلوم من المركز الأيوني Ionic Center، باليونان، وتُرجمت قصائده إلى لغات عدّة، وصدرت في كتبٍ، ومختاراتٍ كثيرةٍ حول العالم .

- عضو في الموسوعة العالمية للشعر who's who منذ عام 1992م.
- حاز على جائزة اليونسكو في الآداب عام 1995م.
- شارك في برنامج مؤسسة جيراسي الإبداعية - أكتوبر 1995م – سان فرانسيسكو – كاليفورنيا.
- حاز على جائزة كفافيس في الشعر - مايو 1998م.
- عضو لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة – القاهرة - أكتوبر 2001 - 2006م

• أصدر له مهرجان الشعر العالمي – روتردام – كتابي مختارات شعرية باللغتين الإنجليزية والهولندية - يونيو 2004م.

• منذ يوليو 1987م، يجوبُ الأفاقَ مسافرًا في رحلاتٍ أدبية وثقافية وشعرية إلى بلدان العالم:

• الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، فرنسا، ألمانيا، إسبانيا، تركيا، هولندا، إيطاليا، بلجيكا، مقدونيا، الدانمارك، سويسرا، بريطانيا، اليونان، الأردن، سورية، العراق، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا، ليبيا، اليمن، الإمارات، الكويت، قطر، السعودية، سلطنة عُمان، كولومبيا، كوستاريكا، نيكاراغوا، جواتيمالا، السلفادور، الإكوادور، الأرجنتين، المكسيك، الهند.

• تناول شِعْرهُ العديد من أطروحات الماجستير والدكتوراه في الجامعات المصرية والعربية.

صدر له:

الشعر :

1. «رُكعتان للعشق» – دار ألف للنشر – القاهرة – 1988م.
2. الأحاديث «السفر الأول» – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة - 1991م.
3. الأحاديث «السفر الثاني» – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة - 1994م – مكتبة الأسرة – مهرجان القراءة للجميع – القاهرة – 1999م.
4. كتاب الموت – الدار المصرية اللبنانية – القاهرة – 1997م.
5. قُلْ هي – الدار المصرية اللبنانية – القاهرة – 2000م.
6. لِسَانُ النَّارِ – الدار المصرية اللبنانية – القاهرة 2005م – وزارة الثقافة والسياحة – طبعة ثانية – صنعاء – 2005م.
7. بابٌ وَاحِدٌ وَمَنَازِلُ- الدار المصرية اللبنانية -القاهرة - 2009م.
8. أسوقُ الغمام – كتاب أخبار اليوم - القاهرة 2010م.
9. سماءٌ باسمي – الدار المصرية اللبنانية – القاهرة - 2013م - الطبعة الثانية 2018م.( القائمة الطويلة لجائزة زايد للكتاب سنة 2014م).

10 – لا أراني - الدار المصرية اللبنانية 2018 م . (القائمة الطويلة لجائزة زايد للكتاب سنة 2018م).

مختارات من شعره :

1. الأحاديث «مختارات» – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة – 1996م.

2. مائة في الأصابع – «مختارات» الدار المصرية اللبنانية – القاهرة – 2002م – مكتبة الأسرة – مهرجان القراءة للجميع – طبعة ثانية خاصة في 25 ألف نسخة – القاهرة – سبتمبر 2002م.

أدب العشق:

1- «كتاب العشق» – دار سعاد الصباح – القاهرة – 1992م.

2- أحوال العاشق – الدار المصرية اللبنانية – القاهرة – 1996م – مكتبة الأسرة – مهرجان القراءة للجميع – طبعة خاصة في 25 ألف نسخة – القاهرة – 2001م – الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الثالثة - 2002م.

3- الوصايا في عشق النساء (الكتاب الأوّل) – الدار المصرية اللبنانية – القاهرة يوليو 2003م – مكتبة الأسرة – مهرجان القراءة للجميع – طبعة ثانية خاصة في 25 ألف نسخة – القاهرة يوليو 2003م، طبعة ثالثة 2010م.

4- الوصايا في عشق النساء (الكتاب الثّاني) – المكتب المصري للمطبوعات – القاهرة 2006م.

5- أنا مَنْ أهوى.. 600 طريق إلى العشق، الدار المصرية اللبنانية 2016م - الطبعة الثانية 2017م - الطبعة الثالثة 2018م.

6- كُنْ عاشقاً، الدار المصرية اللبنانية، 2018 ميلادية.

فلسفة الدين:

1- نواب الله، الدار المصرية اللبنانية، 2016م- الطبعة الثانية 2017م.

2- عدماء الدين، الدار المصرية اللبنانية، 2019 ميلادية.

كتب عن الشّاعر:

• حوار القرآن والشعر عند أحمد الشهاوي – د. حياة الخياري – الدار المصرية اللبنانية – 2012م.

## ترجمات لأعماله:

1. «مياه في الأصابع» Agua En Los Dedos باللغة الإسبانية، ترجمة ميلاجروس نوين Milagros Nuin – المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد – مدريد - 2002م.

- طبعة جديدة مضافاً إليها مختارات من الوصايا في عشق النساء «الكتاب الأول» عن جامعة كوستاريكا بالاشتراك مع مهرجان الشعر العالمي في كوستاريكا - 2008م.

• مشيت في أحرفك زارعاً زمني (مختارات شعرية) باللغة التركية، Harflerind Yuru Dum Zanimi ekerek - ترجمة متين فندقجي – دار Artshop – إستنبول – تركيا – 2010م.

• لا أحد يفكر في اسمي (مختارات شعرية) – Nadie Piensa en mi nombre باللغة الإسبانية – ترجمة د. محمد أبو العطا – سان خوسيه- كوستاريكا - 2011م.

• باب واحد ومنازل Une Seule porte et Des Demeures - ترجمة د.محمد ميلود غرافي – Aile Edition - نانت – فرنسا – 2013م.

• لِسَانُ النَّارِ Atesin Dili - ترجمة متين فندقجي - دار النشر artshop - إستنبول - تركيا - 2013م.

• سماءٌ باسمي Benim adima bir gokyuzu - ترجمة د. محمد حَقِّي صوتشين - Kirmizi - إستنبول – تركيا - 2013م.

• سماءٌ باسمي Un cielo con mi nombre - ترجمة د. عبير عبد الحافظ - سان خوسيه - كوستاريكا 2014م - طبعة أخرى - Ediciones El Quirofano الإكوادور - 2014م.

## قيد النشر:

1. طبقات الكافر (رواية).

2. كِتَانُ الأِلَهِةِ.

3. مَنزَلُ الأَلفِ (سيرةٌ في الشِّعر).

4. اسمُهُ أَحْمَدُ.

5. الوصايا في عشق النساء (الكتاب الثالث).

عنوان البريد الإلكتروني:

ahmad\_shahawy@hotmail.com

\* \* \*